مجلد ٢ — عدد ٥
فبراير ١٩٤٦

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير

طه حسين

مجلد ٢



القاهرة ١٩٤٦

الكاتب المصرى



ربيع الأول ١٣٦٥ فبراير ١٩٤٦

مجلد ٢ — عدد ٥

فى الحب

سيبسم لهذا الـ...واز قوم وسيعبس له آخرون ، وسيكون بين الباسمين من يبسم عن رضا لأنه يريد أن يقرأ عن الحب شيئاً ، ومن يبسم عن سخرية لأنه لا يرضى أن يكون الحب موضوعاً للحديث فى مجلة ينتظر منها الجد الصارم ولا يحب منها الإقبال على لغو الحديث . فأما العابسون فسيكون عبوسهم سخطاً خالصاً ؛ لأن حديث الحب لهو كله ، وما أكثر الصحف والمجلات التى تلهج باللهو وتغرق فيه !

ومع ذلك فقد كانت حياتنا فى العصر الأول أسمح من هذا كله وأكثر يسراً ، وكانت أحاديث الحب لا تثير سخطاً ولا عبوساً وإنما تثير رضا وابتهاجاً وتدعو إلى الروية والتفكير فى كثير من الأحيان . وقد مضى فى تاريخنا الأدبى والعقلى عصر لم يكن الحب فيه هزلا ولا دعابة ، وإنما كان جداً خالصاً لا يخلو من صرامة وحزم فى كثير من الأحيان . فلم يكن حب الغَـزِلين فى شمال الحجاز وفى نجـد لهواً ولا مجوناً ولا مصدراً للدعابة والفكاهة ، وإنما كان جزءاً من جـد الحياة اقتضته ظروف من السياسة والدين فدفع إليه الغَـزِلون فى شىء من التصوف لعله خير ما يستحق البقاء من شعرنا العربى القديم . ونحن نقرؤه فنجد راحة إليه واستمتاعاً به لا يشوبهما مجون ولا يتصل بهما ميل إلى العبث واللهو ، وإنما تجد فيهما النفوس غذاء روحيًّا يرتفع بها عن صغائر الحياة ويعزيها عن هـذه السفاسف اليومية التى تنزل بها عما تحب لنفسها من مكان رفيع . على أن هذا الهيام الذى شمل النفس العربية فى نجد وشمال الحجاز لم يتردد

فى أن يغزو البيئات الدينية والعلمية الصارمة الحازمة فى مكة والمدينة . فقد كان شعر جميل وكُثَيِّرٍ والقيسين ينشد فى المسجد الحرام وينشد فى المسجد النبوى ، ويستمع به فى هـذين المسجدين المطهرين قوم وقفوا أنفسهم على رواية العلم والدين لا يجدون فى ذلك حرجاً ولا جناحاً ؛ وربما تجاوز بعضهم هذا الاستمتاع بأحاديث الحب وما كان ينشد فيه من شعر إلى الحب نفسه ؛ فشقى بالحب إن كان الحب شقاء ، ونعم بالحب إن كان الحب نعيما ، وذاق لذته المؤلمة وحلاوته المرة، إن صح أن تكون اللذة مؤلمة وأن تكون الحلاوة مرة .

وقد كان عبد الرحمن بن أبى عمـار الجشمى صاحب قراءة للقرآن ورواية للحديث وإقبال على النسك والزهد وتفرغ للعبادة والطاعة ، حتى لقّبه أهل مكة بالقس . فلم يمنعه ذلك حين رأى سلاّمة وسمع غناءها أن يحبها حبًّا انتهى به إلى الهيام وجعله شاعراً غَزِلاً كغيره من الشعراء الغزلين . لم يجد فى ذلك حرجاً ولا جناحاً ؛ لأن ذلك لم يورطه فى إثم ولا فسوق . وعبد الرحمن بن أبى عمار القس هو الذى يقول فى سلامة هذين البيتين الرائعين :

سلام هل لى منكمُ ناصرُ ... أم هل لقلبى عنكُـم زاجرُ
قد سمع الناس بوجدى بكم ... فمنهم اللائم والعـاذر

ويزعم الرواة أن سلامة أحبّت القس وحببت إليه ، وهمّت ذات يوم أن تقبّله أو ان تضع فمها على فمه كما يقول الرواة ، ولـكنه امتنع عليها مؤثراً نقاء القلب وصفاء الضمير ، مشفقاً أن ينعم بحبها فى الدنيا فيشقى بحبها فى الآخرة ويصبح من هؤلاء الأخلاّء الأعداء الذين ذكرهم القرآن الـكريم .

وقد آثر ابن عباس رحمه الله ، كما يعرف الناس جميعاً ، أن يسمع لغزل ابن أبى ربيعة على أن يسمع لأسئلة نافع بن الأزرق فى الفقه والحديث وتفسير القرآن . فقد كان القدماء أسمح منا نفوساً وأحسن منا استقبالا لأمور الحياة ، يعنفون بأنفسهم فى مواضع العنف، ويرفقون بها فى مواطن الرفق، ولا يتكلفون هذا الجد السخيف والتزمت الذى لا يدل على شىء . وأنا بعد هذا كله لا أريد أن أتحدث عن الحب مرغّباً فيه أو مرغباً عنه محسناً له أو زارياً عليه، بل لا أريد أن أتحدث عن الحب فى نفسه ، وإنما أريد أن أتحدث عنه من حيث إنه كان موضوعاً للبحث والدرس والتأليف عند أديبين عظيمين : أحدهما عربى مسلم قديم ، والآخر أوربى

مسيحى حديث . فأما أولهما فهو ابن حزم الأندلسى . وأما ثانيهما فهو ستندال الفرنسى . فقد عاش أولهما فى القرن الحادى عشر ، وعاش ثانيهما فى القرن التاسع عشر ، فبينهما نحو ثمانية قرون . وهما بعد ذلك يختلفان أشد الاختلاف ولا يكادان يتفقان إلا فى الشىء اليسير جداً .

فابن حزم مسلم متعمق للإسلام يؤمن به إيماناً صادقاً متيناً يرتفع به إلى شىء يوشك أن يكون نسكاً . وهو قد وقف حياته أو أكثر حياته على تعمق العلوم الإسلامية والعربية ؛ فهو متقن لرواية الحديث ، محسن للفقه ، متخصص فى الكلام متفوق فى الجدل ، عالم بشؤون الفِرَق الإسلامية مهاجم لأكثرها مدافع عن أقلها، منافح عن الإسلام ، ناقد لما ورث المسيحيون واليهود من المسيحية واليهودية ، عارض لكل مسألة من مسائل الدين بالدرس والنقد والتحليل ، مظهر رأيه فيها ، مؤيد له بما يرى أنه الحجة القاطعة والبرهان الساطع الذى لا يمكن الشك فيه . فهو بذلك رجل من رجال الدين ، ومن رجال الدين الذين وقفوا أنفسهم وحياتهم على درسه واستقصائه والذود عنه والقيام من دونه .

وهو صاحب مذهب بعينه فى الدين ليست عليه كثرة المسلمين ؛ فهو ظاهرى يؤثر النص ويكره التأويل ، ولا يحب التأول ولا يميل إلى التأويل . وهو من أجل ذلك لا يخاصم فى الكلام وحده وإنما يخاصم فى الفقه أيضاً . وهو من أجل ذلك متقن للغة أشد الاتقان ، متعمق لكل ما يتصل بها من علم أشد التعمق . فهو لغوى ، وهو نسابة ، وهو راوية للشعر والأدب والأخبار . ثم هو قبل هذا كله من أسرة قد تولّت الوزارة واتصلت بالقصور وعملت فى الدواوين ودبّرت أمور السياسة ؛ وقد شارك فى بعض ما نهضت به الأسرة من الأعباء . ولكنه صرف نفسه عن السياسة ، أو صرفته الظروف عن السياسة إلى العلم ، فأحاط بكل ما كانت تتكون منه الثقافة الإسلامية العربية فى ذلك الوقت . ثم لم يكتف بأن يكون عالماً ممتازاً ، بل أراد أن يكون معلماً ممتازاً أيضاً ، ومؤلفاً ممتازاً كذلك ، هذا هو ابن حزم .

أما ستندال فقد نشأ فى عصر الثورة الفرنسية ، وشارك فى الخطوب السياسية والعسكرية التى امتلأ بها عصر نابليون وقاتل فى غير موقعة من مواقع هذا القائد العظيم ، وشهد الأحداث الكبرى التى اضطربت لها فرنسا ثم اضطربت لها أوربا ثم اضطرب لها العالم كله فى آخر القرن الثامن عشر وفى النصف

الأول للقرن التاسع عشر . وهو بحكم نشأته وبيئته والعصر الذى عاش فيه مسيحى اللون حر الضمير واسع الثقافة إلى أبعد حد ممكن . ولكنه لم يكن وزيراً ولم يحاول أن يكون وزيراً ، ولم يكن معلماً ولم يحاول أن يكون معلماً ، وإنما عاش لنفسه أولاً ، ومنح قلباً ذكيًّا وعقلا خصبا وضميراً حيًّا ونبوغا فنيًّا ممتازاً ، فلم يجد بدًّا من أن يصور حياته وحياة الناس من حوله وحياة العصر الذى عاش فيه .

فالاختلاف بين هذين الرجلين بعيد إلى أقصى غايات البعد ، ولكنهما على ذلك يلتقيان فى بعض الأمر . فكلاهما أوربى المولد والنشأة : ولد ابن حزم ونشأ وعاش فى أسبانيا ، وولد ستندال وعاش فى فرنسا وغيرها من البلاد الأوربية .

وقد ذكرت آنفاً أن ابن حزم عربى مسلم . وما أردت بعروبته هذا المعنى الضيق الذى يتصل بالجنس والنسب ؛ فقد يقال إن ابن حزم لم يكن عربيًّا صليبة ، وإنما أردت هذه العروبة التى تتصل بالثقافة والسياسة والدين واللغة والنشأة وهذه الخصال التى هى أهم ألف مرة ومرة من الجنسية والعنصرية .

فقد كان الرجلان إذن أوروبيين ، ولكن أحدهما عربى الحياة ، والآخر فرنسى الحياة ؛ وأحدهما من أبناء القرن الحادى عشر ، والآخر من أبناء القرن التاسع عشر . وقد كان الرجلان يلتقيان فى شىء آخر، فكلاهما عاش فى عصر فتنة واضطراب عاش ابن حزم فى عصر انهيار الدولة الأموية فى الأندلس وانتثار النظام السياسى فى هذا الجزء من أوربا ، وقل إن شئت فى هذا الجزء من العالم الإسلامى القديم . وقد شهد ابن حزم انتقال السلطان من بنى امية إلى حجابهم ، ثم انهيار الأمر حول هؤلاء الحجاب ، وقيام ملوك الطوائف ، وتدخل البربر فى شؤون العرب الأسبانيين . ثم هو لم يشهد ذلك من برجه العاجى ، وإنما شهده شهود المشارك فيه ، المصطلى بناره ، المتحمل لآثاره ، فذاق السجن ونفى من الأرض وتقاذفته مدن الأندلس ، بل تقاذفته مدن العالم الإسلامى الغربى ؛ فهو قد عبر إلى إفريقية ، وهو قد عبر إلى الباليار ، وهو قد لقى فى هذا كله ألوانا من المحن وضروبا من الخطوب .

وعاش ستندال فى عصر الثورة وفى عصر الحروب التى أثارها نابليون أو أثيرت عليه ، وشارك فى هذه الحروب فانتصر حين انتصر نابليون وانهزم حين انهزم نابليون . واضطرته هذه الحروب إلى التقلب فى أقطار أوربا ، فذهب إلى

ألمانيا والنمسا والروسيا وأقام فى إيطاليا فأطال الإقامة وعاد آخر الأمر إلى فرنسا .

وليس المهم بالقياس إلى هذين الرجلين أنهما عاشا فى عصر الفتنة والاضطراب وتأثرا بهما فى حياتهما المادية ، وإنما المهم أن كليهما قد منح حساً دقيقاً وشعوراً رقيقاً وعاطفة ثائرة ومزاجاً حاداً وذوقاً رفيعاً ، فتأثر بهذه الفتنة وتأثرا بهذا الاضطراب ، وعاش عيشة سخط وشذوذ وقلق لا عيشة رضا واطمئنان وحرص على ملاءمة الجيل الذى كان يعيش فيه .

كان ابن حزم شاذا فى أسبانيا المسلمة المضطربة . وكان ستندال شاذا فى فرنسا المسيحية الثائرة . وكان كلاهما ساخطاً على مايرى ، منكراً لما يشهد ، عاكفا على نفسه يتسلى بعلمه وأدبه عما يجرى حوله من الخطوب .

فى هذا كله كان الرجلان يختلفان ويتفقان . ومن هنا فرغ ابن حزم لعلوم اللغة والدين ، وفرغ ستندال للقصص والإنشاء الأدبى الخالص . ولكن ابن حزم ألّف كتابا فى الحب ، وستندال ألّف كتابا فى الحب أيضاً . ومن النافع أن نقف عند هذين الكتابين وقفة قصيرة ؛ فقد يكون من المفيد أن نرى كيف عُنِى الأديب المسلم القديم والأديب المسيحى الحديث بهذا الأمر الخطير الذى هو الحب .

وإذا قلت إن الحب أمر خطير ، فإنما أصدر فى ذلك عن ابن حزم من جهة وعن ستندال من جهة أخرى . ولست فى حاجة إلى أن أصدر فى ذلك عن شعر الشعراء ولا عن أدب الأدباء ولا عن الحياة نفسها ؛ لأنى لا أكتب فصلا فى الحب من حيث هو ، وإنما أكتب فصلا فى الحب كما صوره هذان الأديبان .

والظاهر أن الحب قد كان خطيراً حقًّا فى أسبانيا المسلمة أيام ابن حزم . وليس أدل على ذلك من أن هذا المحدّث الفقيه المتكلم الفيلسوف المنفى من أرض وطنه قد فرغ لكتابة رسالة فيه . وهو لم يفرغ لكتابة هذه الرسالة إلا لأن صديقا من أصدقائه الفقهاء المحدّثين المتأدبين قد طلب إليه أن يكتب هذه الرسالة . فلولا أن الأمر له شئ من خطر لما طلب هذا الفقيه المحدّث الأديب إلى ابن حزم أن يفرغ له ويكتب فيه ، ولما أجاب ابن حزم إلى ماطلب إليه وهو على جناح سفر قد أزعج عن وطنه واستقر فى شاطبة لينتقل منها إلى منفى آخر . ثم نحن نقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن الحب قد شغل ابن حزم فى حياته كلها كما شغله الفقه والتفسير والحديث والكلام ونقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن

الحب لم يشغله وحده ولم يشغله مع صاحبه الذى طلب إليه تأليف الكتاب وحدهما ، وإنما الظاهر أنه كان يشغل الناس جميعاً فى أسبانيا المسلمة لعهد ابن حزم . ولعله كان يشغل المثقفين والممتازين أكثر مما كان يشغل غيرهم من الناس .

أما فى فرنسا فالحب شىء خطير فى كل وقت لا يحتاج ذلك إلى دليل . ولكنك سترى أن ستندال لم يكن يقدر الحب كما ألفه مواطنوه الفرنسيون .

أكاد أعتقد أن فى نفوسنا من أسبانيا المسلمة صورة غير مطابقة للحقيقة الواقعة أثناء القرن الخامس للهجرة على أقل تقدير . فنحن نقرأ فقهها وفلسفة حديثا وكلاما وتفسيرا ولغة ، ونحن نقرأ أخبار الفتن والحرب فيخيل إلينا أن أسبانيا المسلمة قد كانت فى القرن الخامس موطن الجد المظلم والثورات المنكرة والاختلاف المؤذى للنفوس ، لا نكاد نستثنى من ذلك إلا هذه البيئات الخاصة التى كانت تمتاز بالعكوف على اللذات والانصراف إلى الشعر والموسيقى والغناء . ولكن ابن حزم يعطينا فى كتابه « طوق الحمامة » صورة أخرى لأسبانيا المسلمة فى ذلك العهد صورة وطن كان الناس فيه جميعا يذوقون الحب ويبلون لذاته وآلامه ، يتعرضون له كما يتعرضون لغيره من محن الحياة ، بل يتعرضون له كما يتعرضون للموت ، لا فرق فى ذلك بين أصحاب الجد منهم وأصحاب الهزل ، ولا بين الذين يفرغون للعلم والدين والذين يفرغون للأدب والفن والذين يفرغون للسياسة والحرب .

وأكبر الظن أن أمور الناس كلهم تجرى على هذا النحو فى جميع أقطار الأرض . ولكن حظوظ الناس من الحرية فى تصوير هذا والتعبير عنه تختلف باختلاف الأوطان والبيئات والظروف . والظاهر أن أسبانيا المسلمة كانت على حظ عظيم لا فى الحب وحده بل فى التحدث عن الحب أيضاً . ومن الحق أن ابن حزم تحرّج شيئاً أو كاد يتحرج شيئاً من الكتابة فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يلبث أن يعفى نفسه من هذا الحرج بآثار رواها فى أول الكتاب ويحض على الطاعة ونهى عن المعصية وترغيب فى الفقه سجّلها فى آخر الكتاب . فقد روى ابن حزم بسنده المتصل إلى أبى الدرداء رحمه الله أنه كان يقول : « أجمّوا النفوس بشىء من الباطل ليكون عونا لها على الحق » . وروى آثاراً أخرى عن جماعة من السلف الصالح رحمهم الله .

وكان هذا أشبه باستئذان للدخول فى هذا الموضوع الخطير الذى يظهر أن ابن حزم فكر فيه وعاش معه منذ نشأ إلى أن مات . وأخص ما يتفق فيه

ابن حزم وستندال أنهما لم يريدا أن يكتبا فى الحب كتابة المتزيد المتكلف، وإنما أرادا أن يكتبا فيه كتابة العالم الذى يؤثر البحث والاستقصاء، ويعتمد على الملاحظة والمشاهدة؛ ويستنبط من هذا كله أصولا وقواعد هى أشبه بالعلم وأقرب إليه من شبهها بالأدب وقربها إليه. فليس الذى يعنيهما أن يرويا الأخبار ولا أن يستنبئا الخيال ولا أن يفلسفا فى غير موضع للفلسفة، وإنما الذى يعنيهما أن ينظرا إلى الواقع ويعمدا إليه ويأخذا منه فى غير تكلف ولا تصنع ولا احتيال. ثم هما بعد أن يتفقا فى هذا كل الاتفاق يختلفان فيه كل الاختلاف أيضاً كلاهما يريد العلم ويعتمد على الظواهر الواقعة. ولكن أحدهما يعيش فى القرن الحادى عشر، والآخر يعيش فى القرن التاسع عشر، وبين حياة العقل الانسانى فى هذين العصرين أمد بعيد. فابن حزم يعيش فى عهد الكلام وما بعد الطبيعة، وستندال يعيش فى عهد العلم والتجربة. فليس غريباً أن يكون ابن حزم فيلسوفاً حين يفسر الظواهر الواقعة، وأن يكون ستندال عمليًّا حين يفسر هذه الظواهر نفسها.

ومن هنا عمد ابن حزم إلى تعريف الحب كما كان الناس فى عصره يعمدون إلى تعريف كل شىء. وعمد إلى تعريفه على النحو الفلسفى الذى ألفه أصحاب المنطق؛ فهو يثبت قبل كل شىء أن الحب حقيقة واقعة لا منصرف عنها ولا تخلص منها، وأنه من أجل ذلك شىء مباح لا ينكره الدين ولا العرف ما دام لا يتجاوز حدود الدين والعرف. وهو يذكر الحب الذى ألمّ بطائفة من خلفاء بنى أمية فى الأندلس ومن خلفاء الفاطميين فى مصر، والحب الذى ألمّ ببعض الفقهاء من أبناء الصحابة والتابعين وما أفتى به ابن عباس رحمه الله فى بعض الأمور التى تتصل بالحب. ثم يذكر بعد ذلك « مائية الحب » كما يقول، وهى كلمة يأخذها من « ما »، وهى توازى كلمة « الماهية » عند الشرقيين من أصحاب المنطق والفلسفة. كأن الشرقيين يأخذون كلمتهم من «ما هو»، وكأن ابن حزم وأصحابه الأندلسيين يأخذون كلمتهم من « ما » وحدها، فيجعلون الألف همزة حين ينسبون. ومائية الحب كما يقول ابن حزم أو ماهيته كما يقول الشرقيون هى عند ابن حزم « الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ». كان ابن حزم يذهب إلى ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من قدماء اليونان من أن هناك عنصراً رفيعاً تأتلف منه نفس واحدة

قد قسمت أجزاؤها على المخلوقات ذوات النفوس . فقد يحدث اتصال بين بعض هذه الأجزاء المقسمة بين الناس فيكون الحب ، وقد يحدث انفصال فيكون البغض . وبمقدار مايكون الاتصال قويًّا أو ضعيفاً يقوى الحب أو يضعف ، وبمقدار ما يكون الانفصال قويًّا أو ضعيفاً يشتد البغض أو يلين .

وهذا الاتصال إنما هو ملاءمة فى الشكل وتشابه فى الطبع وحنين جزء من النفس إلى جزء آخر من النفس ، والأعراض الطارئة هى التى تباعد بين هذه الأجزاء أو تتيح لها ان تقترب وتأتلف . وابن حزم لا يحب أن يذهب مذهب إمامه محمد بن داود الظاهرى ومذهب غيره من الفلاسفة الذين يرون أن النفوس كرات مستقلة تستقر فى المخلوقات إلى حين ، وإنما هو يرى أن النفوس أجزاء من نفس واحدة قد قسمت على المخلوقات إلى حين ، ثم هى تعود إلى أصلها ، وإن كان ابن حزم لم يصرح بهذه العودة فى هذا الكتاب . والشىء المهم هو أن الحب عند ابن حزم لا يأتى من الأجسام وإنما يأتى من النفوس . وليست الأجسام فى حقيقة الأمر إلا وسائط ووسائل تتيح للنفوس أن تتقارب أو أن تتباعد . وآية ذلك أن من الناس من يحب شخصاً تنقصه هذه الخصلة أو تلك من خصال الجمال الجسمى وهو يعلم أن بين الناس من يستوفون خصال الجمال كلها أو أكثرها ومن يزيدون على محبوبه فى هذه الخصال . فلو كان الجمال الجسمى مصدر الحب لما أمكن أن يحب الإنسان شخصاً قبيحاً أو منقوص الحسن ، ونحن نعلم أن العاشقين لمن لا يبلغ الحسن فيهم أقصاه ولمن يقدر عليهم القبح ليسوا قليلين . ولا تفسير لذلك عند ابن حزم إلا أن الحب ظاهرة تتصل بالنفوس ولا تتصل بالأجسام إلا اتصالا عارضاً . فنحن هنا أمام بحث فلسفى يتصل بما بعد الطبيعة أكثر مما يتصل بالطبيعة نفسها ، أو قل إنه يتخذ الطبيعة سُلماً يرقى فيه إلى ما بعد الطبيعة . وليس شىء من هذا كله غريباً ؛ فابن حزم يعيش فى القرن الحادى عشر ، والعلم عنده ما ورث عن الفلاسفة والمتكلمين .

فأما ستندال فهو لا يعمد إلى التعريف ولا يفكر فى الاستنباط المنطقى ، وإنما يعمد إلى الاستقراء والاستقصاء . فهو لا يعرف الحب جملة وإنما يستقصى أنواع الحب عند أفراد الناس وعند أصنافهم . وهو يضع أصلا فى أول كتابه لا يكاد يحققه حتى يشك فى دقته ويفتح باب الاستقراء والاستقصاء من جديد . فليس هناك حب واحد إذن ، وإنما هناك أنواع أربعة من الحب : أولها الحب الجامح

الذى يملك على النفس أهواءها وعواطفها وحسها وشعورها، والذى يندفع كالسيل لا يلوى على شىء ولا يترك لصاحبه حظاً من أناة أو روية أو تفكير. والثانى الحب المترف الذى ينشئه التكلف وما تقتضيه الحضارة الراقية المصفاة من إتراف فى الذوق وتأنق فى فنون المتاع، والذى لا يكاد يتصل بالنفس ولا بالقلب، ولا يكاد يؤثر فى العاطفة أو فى الشعور، وإنما هو لون من ألوان الذوق وفن من فنون الترف، قد وُضعت له قواعده وأصوله، وأحاط الناس بأسراره ودقائقه، فهم يصعدون فيه عن علم وينتهون إلى غايته عن بصيرة. والثالث الحب الجسدى الذى تدفع إليه الغرائز والذى يشترك فيه الإنسان والحيوان والرابع حب الغرور الذى ينشأ عن الكبرياء وإيثار النفس بهذه الظواهر الخداعة التى يكبر بها الإنسان أمام نفسه وإن لم يكبر بها فى أنفس الناس. وقد مثل ستندال لأنواع الحب هذه بأمثلة تصورها تصويراً صادقاً وتدل عليها دلالة واضحة. فأبطال الحب المعروفون الذين تحدث عنهم التاريخ يصورون النوع الأول. والمترفون من الفرنسيين أثناء القرن الثامن عشر يصورون النوع الثانى. والصائد الذى يشتهى قروية رآها تهيم فى الغابة فأعجبه شكلها يصور النوع الثالث. وكثرة الشعب الفرنسى فى عصر ستندال تصور النوع الرابع. على أن ستندال لا يلبث أن يلاحظ أن هذا التقسيم ليس دقيقاً ولا نهائياً، وأن من الممكن أن ينحل كل نوع من هذه الأنواع الأربعة إلى أنواع أخرى جزئية يُدَلُّ عليها بألفاظ أخرى. فأمور الحب أشد دقة وأكثر اختلافاً وأيسر تفاوتاً من أن تستقصى على نحو قاطع محتوم. وليس المهم عند ستندال أن تُحْصَى أنواع الحب أو تستقصى، وإنما المهم أن نتبين كيف ينشأ الحب وكيف ينمو وكيف يضعف وكيف يموت. وستندال يرى أن هذا كله إنما يجرى طبقاً لقوانين يعرضها فى هذا الكتاب. والإعجاب هو أول درجة من درجات الحب ترقاها النفس حين تتجاوز نظرتها العادية البريئة من الاكتراث إلى الشخص الذى كتب لها أن تحبه، فهى تبدأ بالخروج عن عدم الاكتراث إلى التفات خاص لا يكاد يتم حتى ينشأ عنه إعجاب يقف النفس عند هذا الشخص الذى التفتت إليه. ولا يكاد هذا الإعجاب يتصل حتى ترقى النفس فى هذا السلّم إلى درجة أخرى، وهى درجة التوق أو الشوق أو الطموح إن شئت. وهى الدرجة التى يقول فيها الإنسان لنفسه، أُحِبُّ إلى بأن أقبِّل هذا الشخص أو بأن يقبلنى؛ فهو طموح إلى الاتصال المادى بعد أن تم الاتصال النفسى.

ثم يرقى الإنسان إلى الدرجة الثالثة. فأنت تستطيع أن تتوق وأن تشتاق وأن تطمح، ولكن هذا كله شيء وانتظار الوصول إلى ما تطمح إليه شيء آخر . فإذا تجاوزت الطموح إلى الأمل فقد ارتقيت إلى الدرجة الثالثة فى تصعيدك إلى الحب . ثم لا يكاد يستقر الأمل فى نفسك، أو لا تكاد نفسك تستقر فى الأمل، حتى تبلغ الدرجة الرابعة، وهى الدرجة التى يتم فيها تكون الحب . فأنت قد أعجبت ثم اشتقت ثم أملت ثم استحال هذا كله فى نفسك إلى لذة قوية تحدث بمجرد أن ترى من تحب أو أن تسمعه أو أن تمسه أو أن تتصل بسبب من أسبابه . وأنت إذا وجدت هذه اللذة معرض لأن تجد الألم إذا انقطعت الأسباب بينك وبين من تحب . وكذلك لاتبلغ الدرجة الرابعة حتى تضطرب بين مايحدث الحب من لذة وألم ومن نعيم وجحيم . وإذا وجد الحب فلا بدّ له من أن ينمو إلا أن يقتل يوم مولده ونموه. يبدأ حين تبلغ الدرجة الخامسة، وهى ما يسميه ستندال التبلور الأول، ومنشؤها اتصال تفكيرك فيمن تحب . فأنت لا تفكر فيه كما هو قبل أن تلتفت إليه، أو قل إنك لا تفكر فيه كما يفكر فيه غيرك من الناس الذين لا يحفلون به ولا يأبهون له ، وإنما تسبغ عليه شيئاً من إعجابك به وشوقك إليه وأملك فيه ، وإذ أنت تضيف إليه محاسن تزعم أنها لا توجد فى غيره ، وإذا أنت تقوى شعورك بالغبطة حين تتصل به بمقدار ما تضيف إليه من المحاسن . فهو وحده الذى يستطيع أن يرضى ما تطمح إليه نفسك من المثل العليا فى اللذة والسعادة والنعيم . وغيره لا يقدر على أن يبلغك من هذا كله شيئا؛ لأن هذا كله موصول بماخلعت على محبوبك من المحاسن والخصال التى ميزته بها من الناس جميعاً . وكذلك تتصل نفسك به اتصالا قويًّا متيناً غير مقطوع ، وإذا أنت حريص أشد الحرص على استبقاء هذا الاتصال والتزيد منه فى كل لحظة ما وجدت إلى ذلك سبيلا . وإذا بلغت هذا الحرص فليس لك بدٌّ من أن ترقى إلى الدرجة السادسة؛ فالحرص مصدر الخوف والشك . ومتى انتهيت من الحرص إلى غايته فلا بد لك من أن تشك فى أنك موفق أو غير موفق . وأنت فى هذه الدرجة السادسة تسأل نفسك بين لحظة ولحظة، أيجد حبك صدى فى نفس محبوبك أم لايجد؟ ثم أنت لا تكتفى بهذا السؤال ، ولا تطمئن إلى هذا الشك . ومتى اطمأن الإنسان إلى الشك ! إنما أنت مضطر إلى أن تلتمس الدليل القاطع على أنك لم تخطىء فيما قدرت ولم تخفق فيما طلبت وعلى أن محبوبك يقارضك حبا

يحب ويبادلك هياماً بهيام . وأنت كذلك تسأل نفسك ثم تجيب نفسك ثم تشك فى الجواب فتستأنف السؤال . فإذا طال عليك هذا الأمر وظفرت بالإشارة الدالة أو اللمحة المطمعة أو الآية المقنعة فأنت راق على رغمك إلى الدرجة السابعة وهى التبلور الثانى كما يسميها ستندال .

فأنت قانع بأنك محبوب ، وأنت تزين لنفسك هذا الحب الذى تجده والذى تطمئن إلى أن له صدى فى نفس من تحب ، تخلع على هذا الحب من صفات القوة والسعة والعمق والجمال ما شئت وما لم تشأ . ثم يصبح هذا الحب حياتك التى تملك عليك كل شىء ، وتصرفك عن كل شىء وتأخذ عليك طريقك . وقد انتهيت الآن إلى قمة الحب ، فلم يبق إلا أن يتصل نعيمك به أو شقاؤك ، بما يمكن أن يعرض له من الضعف والفتور .

كذلك يعرض ستندال مقدمات الحب ونشأته ونموه وبلوغه إلى أقصى غاياته . ثم هو يعود إلى هذه الدرجات بعد ذلك فيدرسها درساً مفصلا عميقاً يضرب له الأمثال ويستدل عليه بالوقائع . فهو كما ترى بعيد كل البعد عما بعد الطبيعة ، قريب كل القرب من الطبيعة نفسها ، لا يلتمس للحب حدًّا ولا رسماً ولا تعريفاً ، وإنما يميز أظهر أنواعه ثم يتبعه منذ تتهيأ النفس له إلى أن تفنى النفس فيه . وواضح جدًّا أن ستندال حين يسلك هذه الطريق إنما يذهب مذهب العلماء المعاصرين له الذين تأثروا بنشأة العلوم التجريبية وتطورها ، فاعتمدوا على الملاحظة المباشرة أكثر مما اعتمدوا على أى شىء آخر .

وقد همّ ابن حزم أن يسلك هذه الطريق نفسها ، بل هو لم يسلك إلا هذه الطريق ، طريق الملاحظة المباشرة ؛ فهو لا يخترع أحاديثه عن الحب اختراعاً ولا يبتكرها ابتكاراً ولا يخلقها من عند نفسه ، وهو لا يكاد يلم بالفلسفة إلا حين يحاول تعريف الحب . وهو لا يقرر أصلا من الأصول ولا فرعاً من الفروع إلا مستمدًّا له مما رأى بنفسه أو مما وجد فى نفسه أو مما سمع من الذين لا يعرض الشك له فيما يلقون إليه من الأحاديث . فابن حزم معتمد على الملاحظة المباشرة كما يعتمد عليها ستندال ، ولكن ابن حزم لا ينتفع من ملاحظته المباشرة كما ينتفع بها ستندال . فبين الرجلين دهر طويل تطوّر فيه العقل الإنسانى وتطورت فيه مذاهب البحث ومناهجه ووسائل الملاحظة وأدواتها تطوراً عظيما بعيد المدى . فملاحظة ابن حزم دقيقة كملاحظات ستندال ، ولكنها قريبة لا تتعمق ولا تكاد

تتجاوز نفسها إلا قليلا ؛ لأن ابن حزم لم يظفر من أدوات البحث والاستقصاء والتعمق بمثل ما ظفر به الكاتب الفرنسى الحديث .

وبين الرجلين فرق آخر ، وهو أن ابن حزم على شذوذه الذى لفت إليه المعاصرين جميعاً فى الشرق والغرب ، بل لفت إليه الذين جاءوا بعده بوقت طويل ، لم يستطع أن يخلص من العادة المألوفة فى التفكير والاستنباط ؛ فهو قد فكر كما كان الناس يفكرون من حوله بل كما فكر الناس من قبله ومن بعده ، واستنبط كما كانوا يستنبطون ، لم يستطع أن يتجاوز ذلك ؛ لأن وقت تجاوزه لم يكن قد آن ، ولأن وسائل هذا التجاوز لم تكن قد استكشفت بعد .

وقد يكون من الغريب أن ابن حزم قد صرّح أكثر مما صرح ستندال . فستندال يزعم صادقاً أو غير صادق — ومن المحقق أنه غير صادق — أنه لم يتخذ نفسه موضوعاً للملاحظة فى أى فصل من فصول كتابه ؛ فهو لم يتحدث عن نفسه ولا عن عواطفه وشعوره بحال من الأحوال . أما ابن حزم فيحدثنا عن نفسه فى صرامة رائعة حقًّا ، ولعل أحاديثه عن نفسه هى خير ما اشتمل عليه الكتاب . وليس عليه من ذلك بأس ؛ لأنه يحدثنا صادقاً من غير شك أنه لم يقترف فى الحب إثماً ولم يورطه الحب فى خطيئة كبيرة من الكبائر .

وهو من أجل ذلك يحدثنا عن نفسه فى صراحة وإسماح ، ويقص علينا من أنبائه ما يثير فى نفوسنا كثيراً جدًّا من الرفق به والرثاء له والعطف عليه . فنحن نشهده فى دار أبيه الوزير وقد تعلقت نفسه بجارية من جوارى الدار رائعة الحسن ، بارعة الجمال ، قوية النفس ، صادقة العزم ، حازمة الجد ، لا تحب العبث ولا تميل إلى الدعابة ، وإنما تغرق فى الجد إغراقاً يكاد يدفعها إلى العبوس . وقد اجتمع أهل الدار فى يوم من الأيام التى يجتمعون فيها لبعض الأمر ، وقد ألمّ بهم ضيف فطعموا ونعموا ، وأشرفوا من بعض أطناف الدار على البستان ينظرون إليه ثم إلى النهر ، ثم يمدون أبصارهم إلى أبعد من البستان وأبعد من النهر ، فيرون من قرطبة وضواحيها منظراً عجباً . وقد وقفت هذه الجارية عند باب من أبواب الطنف تشرف منه على هذا المنظر الرائع الجميل ، وابن حزم يحتال متنقلا ليدنو منها ويقف من مكانها غير بعيد ، ولكنها لا تحس احتياله ولا تلاحظ قربه حتى تنأى وتنتقل إلى باب آخر . وابن حزم يتبعها رفيقاً دائماً محتالا دائماً متهالكا دائماً ، وهى تبعد كل ما قرب وتنأى كل ما دنا . ثم يقترح مقترح أن تهبط الجماعة

إلى البستان وتجلس على عشبه الأخضر بين ما يزينه من شجر وزهر فيهبط القوم، ويحاول ابن حزم أن يدنو فتنأى صاحبته. ثم يقترح مقترح على الجارية أن تغنى، وكانت بارعة فى العزف متفوقة فى الغناء، فتضرب وتغنى، ويكون هذا كل ما استطاع ابن حزم أن يظفر به من هذه الجارية. ثم تمضى الأيام وتحدث الأحداث وتلم الخطوب ويبعد العهد، ويعود ابن حزم بعد أعوام إلى وطنه فى قرطبة فيرى هذه الجارية وقد ابتذلتها حوادث الدهر واضطرتها الخطوب إلى أن تتكلف مالا يتكلف أمثالها من المترفات، وإذا الزهر قد ذوى وإذا الحسن قد غاض، وإذا الضر قد بدا أو كاد يبدو. ونحن نرى ابن حزم يصور نفسه لنا وقد شُغِفتْ فتاة قلبه كما لم تشغفه فتاة قط، وقد اتصل الحب بينه وبينها ثم اختطفها منه الموت. فانظر إلى الجزع الذى ليس بعده جزع، والوجد الذى ليس بعده وجد، والعذاب الذى لايشبهه عذاب، وإذاهو يقضى أياماً لايضع ثيابه ولا ينعم بطعام أوشراب، وإذا هو يذكر حبيبته مستيقظاً ويحلم بها نائماً، ويقول فى حبه لها الشعر أثناء اليقظة وأثناء النوم. وإذا الأيام تمضى حتى تصبح أعواماً وأعواماً، والسن تتقدم بالفتى قليلاً قليلاً حتى يصبح كهلاً ثم يصير إلى الشيخوخة، وحبه لتلك الفتاة ما زال شابًّا فى قلبه لم يؤثر فيه مر الزمن ولم يستطع السلوان أن يرقى إليه.

فابن حزم إذن يعتمد على الملاحظة المباشرة الحرة الصريحة يلاحظ نفسه وخلطاءه ويلاحظ الناس من حوله، ولكنه على هذا كله مقيد مقصوص الجناح، لا يكاد يتعمق ولا يكاد يرتفع؛ لأنه يفكر كما كان يفكر الناس فى عصره؛ فأسبابه إلى التعمق والاستقصاء قصار لا تتجاوز به القواعد السطحية أو التى توشك أن تكون سطحية.

وقد رتب ابن حزم كتابه ترتيباً منطقيًّا مقارباً، ولكنه كره أن ينفذ كتابه على النحو المنطقى الذى رتبه قبل أن يبدأ فى إنشائه، وآثر أن يخالف بين الخطة المرسومة وتنفيذ هذه الخطة فوضع فصول كتابه حيث اقتضت مناسباتها أن توضع لاحيث اقتضى الترتيب المنطقى أن تكون وهذا أيضاً دليل على أن ابن حزم قد حاول أن يتخفف من أثقال عصره ويتحرر من قيود التفكير التى كانت تمنع معاصريه من الحركة الحرة كما نفهمها نحن الآن، ولكنه لم يبلغ مما أراد إلا أقله وأيسره. ودليل آخر على أن ابن حزم أراد أن يتحرر من هذه القيود فذهب إلى أبعد

مما ذهب إليه ستندال ولكنه مع ذلك لم يبلغ ما أراد، وهو أن ابن حزم كره أن يرجع بحديث الحب إلى ماامتلأت به كتب الأدب من أخبار العشاق والمحبين، فلم يحفل بكل ما كان من حديث الأعراب ومن غزل الغزِلين فى نجد والحجاز ومن تكلف الشعراء بعد ذلك لما تكلفوا من فنون الحب، وأبى إلا أن يقصر ملاحظته على نفسه وعلى ما رأى وما سمع من معاصريه . على حين لم يكتف ستندال بما رأى وما سمع، وإنما اعتمد على ماقرأ أيضاً، وعلى ماقرأ من أخبار القدماء فى جنوب فرنسا نفسها وفى أسبانيا المسيحية والمسلمة، بل على ماقرأ من كتب العرب أنفسهم؛ فهو قد عرف كتاب الأغانى ونقل عنه أطرافاً من أخبار الغزلين ومن أخبار جميل وبثينة بنوع خاص . والغريب أننا نُعْجَبُ بابن حزم لأنه أعرض عمـا كان يعرف من أمر القدماء وأبى أن يعتمد على غير الملاحظة المباشرة . ونعجب فى الوقت نفسه بستندال لأنه طلب ما لم يكن يعرف من حب القدماء، فاستقصى حب الغزلين فى جنوب فرنسا وتأثرهم فى هذا الحب بحضارة المسلمين فى الأندلس . ثم مضى يستقصى أصل هذا الحب الأسبانى حتى انتهى به «الأغانى» إلى صدر الإسلام ثم إلى العصر الجاهلى . وقد أخطأ فيما فهم من ذلك وأصاب، ولكنه حاول مالم يتعود أمثاله أن يحاولوه؛ فنحن نعجب به من هذه الناحية، كما نعجب بابن حزم لأنه ترك مالم يتعود أمثاله أن يتركوه .

كلا الرجلين قصد إلى إجادة الدرس وإتقان البحث وتعمق الاستقصاء . ولـكن أحدهما وفق لمـا لم يوفق له الآخر لأنه ملك من الوسائل والأدوات وأسباب العلم والثقافة ما لم يتح لصاحبه .

على أن هناك نواحى امتاز بها ستندال ولم تخطر لابن حزم على بال . فكلا الرجلين قد حاول درس النفس الإنسانية من بعض نواحيها . وكلا الرجلين قد اتخذ هذا الدرس وسيلة إلى نقد الحياة الاجتماعية المحيطة به . وكلا الرجلين قد أعطانا صورة دقيقة أو مقاربة لهذه الحياة . ولـكن ابن حزم وقف عند هذا الحد، فأما ستندال فتجاوز النقد إلى الاقتراح . فستندال ينقد الحياة الفرنسية نقداً مرًّا لا يكتفى بذلك بل يعرض لتربية الفتـاة فيستخلص عيوبها ويرد إلى العيوب كثيراً من آفات الحب عند الفرنسيين بل عند الاوربيين . ثم هو لا يكتفى بذلك بل يقترح مذهباً جديداً فى تربية الفتاة لتستطيع أن تحب حبًّا صحيحاً صالحاً نقياً، وتلهم الفتى حبًّا صحيحاً صالحاً نقيًّا . ثم هو يتجاوز ذلك إلى

الزواج ، فينقد نظامه ، ويقترح ألواناً من الإصلاح تقرب المسافة بين الحب والزواج تقريباً بعيداً . وكل هذه أمور لم تخطر لابن حزم ؛ لأنه كما قلت كان مثقلا بقيود عصره مقصوص الجناح لم يستطع أن يتعمق ولا أن يرتفع .

وفى كتاب ستندال لون آخر من ألوان البحث لم يخطر لابن حزم ولم يكن يمكن أن يخطر له . فستندال يبحث عن الصلة بين الحب وبين طبائع الشعوب من جهة ، وبين الحب ونظام الحكم من جهة أخرى . وهذا اللون من بحث ستندال ممتع حقاً ، ولا سيما حين يعرض لبعض خصائص الشعوب والحكومات . فالحب مقيد بارد شديد الكسل والفتور فى بلاد الإنجليز ؛ لأن طبيعة الإقليم وطبيعة الشعب وطبيعة الحكومة الأرستقراطية ، كل ذلك يقتضى أن يكون الحب الإنجليزى خجلا مستخذياً لا يظهر إلا على استحياء . والحب فى إيطاليا جامح مندفع لايثبت أمامه شىء ، وهو لايستخفى ولا يتردد ولايستخذى ولايخجل ، وإنما يظهر صريحاً حرًّا كما تظهر الشمس ؛ لأن طبيعة الإقليم الإيطالى والشعب الإيطالى وتفرق السلطان فى إيطاليا لعهد ستندال ، كل ذلك يقتضى أن يكون الحب الإيطالى جريئاً عنيفاً مقداماً . والحب فى فرنسا مغرور منافق لا يكاد يثبت ولا يستقر ؛ لأن طبيعة الشعب الفرنسى والإقليم الفرنسى ونُظم الحكم فى فرنسا بعد انهيار الإمبراطورية ، كل ذلك يقتضى أن يكون الحب الفرنسى مرائياً ثرثاراً لا يقول شيئاً ولا يصور شيئاً . فأين نحن من ابن حزم الذى لم يتجاوز بالحب وطنه الأندلسى ! وقد خطر له مرة أو مرتين أن يعبر بالحب مضيق جبل طارق ففعل ، ولكنه تحدَّث إلينا عن أندلسى باع جارية له كان يحبها لبعض البربر ثم تبعتها نفسه ، ولم يستطع السلو عنها ، ولم يُرد البربرى أن يعفيه من البيع ، فرفع أمره إلى السلطان فى قصة طريفة مؤثرة .

وقد مضى ابن حزم بالحب إلى الشرق فأبعد حتى انتهى إلى بغداد ، ولكنه يحدثنا عن عالم أندلسى انتهى إلى حارة لاتنفذ ، ورأى فى هذه الحارة جارية دلته على أن الحارة غير نافذة ، وكانت الجارية سافرة فراعه حسنها وشغفه حبها ، وخاف على نفسه ودينه الفتنة فسافر إلى البصرة ومات فيها شهيداً لهذا الحب .

فكأن ابن حزم لم يرد أن يعرض فى كتابه لغير الحب الأندلسى ، درسه فى موطنه ، ثم تبعه أحيانا إلى مهاجره فى إفريقية أو فى بغداد .

على أن هناك مسألة هى فيما أعتقد أجل خطراً من كل ما عرضت له فى هذا

الحديث إلى الآن . لماذا ألف ابن حزم كتابه طوق الحمامة ؟ ولماذا ألّف ستندال كتابه فى الحب ؟

أما أيسر الجواب على هذه المسألة فهو أن صديقا لابن حزم طلب إليه أن يضع له هذه الرسالة ففعل ، وأن ستندال أنفق حياته كلها متتبعاً للحب على اختلاف صوره وأشكاله ومواطنه فألف فيه كتابا . ولكن هذا لا يقنعنى ، ويخيل إلىّ أن هناك جوابا آخر قد يكون أجل من هذا خطراً وأبعد منه أثراً . فكتاب ابن حزم وكتاب ستندال لم يقصد بهما إلى الحب فى نفسه ، وإنما قصد بهما إلى الفن ، إلى فن تصوير الحب والتعبير عنه . فقد ألف ابن حزم كتابه فى البلاغة إذن ، وقصد به إلى أن يعلم الشعراء والكتاب والشعراء خاصة كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يصفونه فى الشعر والنثر . وآية ذلك هذه النماذج الشعرية التى يبثها فى كل فصل من فصول الكتاب ، وهى نماذج ينشئها هو ولا ينقلها عن غيره . وأكبر الظن أنه صنع كثيراً من هذه النماذج خاصة لهذا الكتاب .

وأما ستندال فقد ألّف كتابا فى النقد وفن الجمال ، أراد به إلى أن يشرح أولاً مذاهبه فيما عرض من أمر الحب فى قصصه المختلفة ، وأراد به بعد ذلك أن يعلم القصاص كيف يتصورون الحب وكيف يصورونه وكيف يعرضونه فيما ينشئونه من القصص الطوال والقصار . وآية ذلك هذ النماذج القصصية التى أضافها إلى كتابه بعد أن عرض نظرياته فى الحب .

فنحن إذن أمام كتابين من كتب العلم لم يقصد بهما صاحباهما إلى العبث ولا إلى اللهو ولا إلى مجرد التجربة، وإنما قصدا بهما إلى التعليم قبل كل شىء .

وقد أعجب القدماء بكتاب ابن حزم ولكنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه أثر أدبى ، على أنه غاية فى نفسه لا وسيلة إلى فن الشعر . ولم يعجب المعاصرون لستندال بكتابه فى الحب حين نشره فى أوائل القرن الماضى، فقد بيع من طبعته الأولى فى عشر سنين بضع عشرة نسخة ، فلما مضى على نشره عشرون عاما أنبأنا ستندال نفسه بأنه لا يظن أن الذين ذاقوه وفهموه قد بلغوا المائة . أما الآن فقد تقدّمت دراسات الحب من نواحيه المختلفة تقدما هائلا، حتى أصبح كتاب ابن حزم وكتاب ستندال كتابين لهما خطرهما فى التاريخ الأدبى ليس غير ، ولكنه خطر غير قليل .

طه حسين

فى أفق السياسة العالمية

مشكلة إيران

لو درى « زرادشت Zoroaster » الذى ظهر فى إيران قبل المسيح بألف عام تقريبا وبشّر الناس برسالة النور والحق، أن النار المقدسة التى اتخذها رمزاً لعبادته ستتفجر يوماً من سفوح الجبال وبطون الأرض عيوناً سائلة فيها نور ودفء ولها بأس شديد، وأن القوة الغاشمة ستفيد يوماً من هـذه العيون المتفجرة فتعرض بلاده وأهلها للقمع والعـدوان. — لو درى « زُرادشت » ذلك لآثر أن يجف هذا السائل وأن تفيض تلك العيون فى قاع الأرض مستغفراً لأهله من خطيئتهم فى حق الآلهة على أن تذهب بلاده فريسة لآلهة النار والحديد فى هذا القرن العشرين!

وأول ما انسلّ النـاس إلى إيران فى هذا العصر الحديث لاستخراج زيت البـترول كان فى بدء القرن العشرين حين حصل أحد رجال المال الانجليز من الحـكومة الفارسية على امتياز استخراجه لمدة ستين عاماً من مايو سنة ١٩٠١، وظل الرجل سبع سنين يحفر وينبش وينقب عن السائل النفيس ولـكن بدون جدوى. وأخيراً فى سنة ١٩٠٨ عنـدما صدرت الأوامر فعلا بوقف العمل وصل رجاله إلى نبع لا ينضب معينه عند « مسجدى سليمان » فى الجنوب الغربى من إيران. فتشجع الرجل وعاوده نشاطه، وأخذت حقول البترول تتسع قليلا قليلا، والآبار تكثر شيئاً بعد شىء والإنتاج يتضاعف رويداً رويداً، حتى بلغ مبلغاً كبيراً، وتكونت لاستنباطه الشركة الإنجليزية الفارسية.

ولما رأت البحرية الإنجليزية ان مصلحة الأسطول تقضى باستعمال البترول فى تسيير سفنه بدلا من الفحم، وكانت موارد الإمبراطورية البريطانية وعملائها تقصر عن إمداد الأسطول العظيم بكل حاجته من الوقود الأبيض، عملت

الحكومة الانجليزية على ضمان موردٍ البترول من إيران فاشترت فى سنة ١٩١٤ معظم أسهم تلك الشركة ؛ وبذلك تحول الامتياز من الفرد إلى الشركة ومنها إلى الحكومة ، وأصبحت إنجلترا منذ ذلك الوقت تعتمد على إيران فى تزويد أسطولها بما يناهز ٢٠ ٪ من البترول الذى يلزمه .

وقد تكون مثل هذه الكشوف المعدنية فى البلاد التى تعتز بحكوماتها وشعوبها مصدر ثروة وقوة لا يستهان بهما ، على أنها فى بلاد كايران تعاقب عليها ملوك وحكومات ضعيفة حقباً طويلة من الزمن ، لا تلبث هذه الكشوف أن تكون للأقوياء كالقصاع للجياع يتهافتون عليها ويتسابقون إلى اقتناصها



ويتشابكون ، ولكنهم فى النهاية يأكلون إلى حد التخمة ، وصاحب القصعة جائع قائم على خدمتهم ، لا يملك من أمره فتيلا . وكذلك كان فى إيران ؛ فقد اقتضى كشف الزيت أن تقام معامل لتصفيته وتكريره ، وأن توضع أنابيب وسكك حديدية وتمهد طرق وتنشأ مركبات لنقله ، وأن تكون للشركة أو بالحرى للحكومة صاحبة الامتياز مراكز للرقابة والحراسة ، لا فى أماكن الآبار وحدها بل على طول الطرق والسواحل التى يمر فيها موكب البترول إلى الخليج الفارسى . ومن ثمّ نشأت للحكومة الإنجليزية هناك مصالح حيوية جعلتها تمد أخطبوطها الاستعمارى إلى جزره وسواحله وموانيه لتجعل منه بحيرة إنجليزية .

وكانت روسيا وحدها فى أول الأمر ترنو ببصرها نحو إيران جارتها الهزيلة المتخاذلة تريد أن تقص من أطرافها مايتاخم إمبراطوريتها الواسعة التى أنشأتها فى وسط آسيا وغربيها فى أثناء القرن التاسع عشر . ولكن هزيمتها المنكرة أمام اليابان سنة ١٩٠٥ جعلتها تتراجع مؤقتاً وتعقد مع انجلترا اتفاق سنة ١٩٠٧ ، وبمقتضاه بدأ الجانبان بأن أكدا احترامهما لاستقلال ايران وسلامة كيانها ، ثم ثنّيا بتقسيمها إلى منطقتى نفوذ : الشمالية منها لروسيا والجنوبية لإنجلترا ، وترك مابين المنطقتين أرضاً حراماً محايدة تأمن بها انجلترا خطر التصادم الروسى . وقد فسر كلا الطرفين أن احترام الاستقلال لا يتنافى البتة مع السيطرة وتثبيت النفوذ الاقتصادى والسياسى بجميع الوسائل مادامت جيوش الدولتين لا تحتل المنطقتين .

ومع أن إيران كانت فى ذلك الوقت قد استيقظت من سباتها وقامت بحركة دستورية أرغمت فيها الشاه على إعلان الدستور ودعوة المجلس الوطنى إلى الاجتماع لإصلاح المفاسد التى شملت جميع مرافق البلاد ، فإن عقد المعاهدة الروسية الانجليزية ، وما تلاه من تقسيم البلاد إلى مناطق نفوذ تجارية أو سياسية ، قد خيب أمل الإيرانيين وجعلهم يمقتون الروس والانجليز جميعاً ، ويتربصون بهم الدوائر حتى إذا بدأ المصلحون يضطلعون بأعمال الحكومة ويباشرون إصلاح الحالة ، أهملوا رجال الحكومتين ولجأوا إلى الحكومات المحايدة يستعينون برجالها فى وضع أسس الاصلاح ، فجعلت كل حكومة من هذه الحكومات تقتطع لنفسها ناحية من نواحى الإصلاح ، فكان من نصيب الولايات المتحدة إصلاح مالية البلاد ، وجاء البلجيك ينظمون الجمارك ، وتولى رجال السويد إنشاء هيئة قوية للشرطة وحراسة الأمن ، واستخدم الطليان فى تدريب الجيش ، وإنشاء

الطرق . ولما كان الأمريكيون فى مقدمة هذه البعثات أهميــة إذ كانوا يشرفون على مالية البلاد أوجست روسيا خيفــة من وراء الإصلاحات ، فأرسلت إنذاراً نهائيًّا إلى حكومة إيران تطالبها بطرد بعثة الولايات المتحدة ، وإلا زحفت بجيشها نحو طهران . فعز على الوطنيين الإيرانيــين أن يذعنوا لإنذار روسيا ، ووقفوا فى وجهها . ولو أن بريطانيا آزرت جانب الوطنيين ونصرت قضيــة الأحرار ضد استبداد الحكومة القيصرية ، لازدهرت حركة الإصلاح فى البلاد وباءت روسيا بالإخفاق والخذلان . ولــكن روسيا و بريطانيا كانتا متحالفتين فلم تصنع بريطانيا شيئاً ، وزحفت روسيا فاحتلت جيوشها قزوين ومنها هددت طهران . وعندئذ سقطت حكومة الثوار وتولت الأمر حكومة رجعية ما لبثت أن حلت المجلس الوطنى ، وأبعدت المستشار الأمريكى وأعوانه ؛ وبذلك صالحت الروس ، وعادت الحال فى إيران سيرتها الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الأولى .

ولما انتهت الحرب كانت الثـورة الروسية قد اندلعت ، واستنكر الثوار المعاهدات التى عقــدتها الحــكومة القيصرية مع الحلفاء ، فبطل العمل ضمناً بالمعاهدة الإنجليزية الروسية بشأن إيران . وكانت ألمانيا قد خرجت أيضاً من الميدان مدحورة ، فأصبحت إنجلترا وحدها أمام المسألة الإيرانية ولا منافس لها ، نخيل إليها أنها تستطيع تسوية علاقاتها معها على الوجه الذى يرضى مطامعها ، فعقدت معها فى سنة ١٩١٩ معــاهدة جديدة أكدت فيها النغمة التقليدية التى اعتادت الدول أن تفتتح بها معاهداتها مع الدول الضعيفة ، كتركيا فى ذلك الوقت وكإيران ، فاستهلتها باحترام استقلال إيران ، وحفظ كيانها ، ثم نصت على شروط جعلت من إيران فى حقيقة الأمر دولة تحت حماية بريطانيا فى الوقت الذى كانوا فيــه قد قيدوا اسم فارس فى سجلات عصبة الأمم كدولة مؤسسة .

وفات بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى أن روحاً جديدة قد بدأت تسرى فى إيران على أثر إعلان مبادئ ولسون وقيام الثورة البلشفية على حدودها ، وأن هذه الروح تتطلب سياسة جديدة تخالف السياسة الاستعمارية العتيقة التى اتبعتها بعد الحرب لتثبيت أقدامها بالقروض المــالية وبتعيين مستشاريها وموظفيها وضباطها فى الجيش والمالية وسائر مصالح الدولة . وكما باءت سـياسة إنجلترا بالخسران فى مصر والهند وإيرلندة بعــد الحرب العالمية الأولى كذلك أصابها

الإخفاق فى إيران . فما هى إلا فترة قصيرة حتى قامت وزارة جديدة فى إيران استندت إلى حكومة الثوار فى روسيا فضربت بالمعاهدة الإنجليزية عرض الحائط ، وبدأت صفحة جديدة فى حياة البلاد .

وكان البلاشفة فى أول أمرهم حراصاً على كسب عطف جيرانهم من الأتراك والأفغان والإيرانيين ليعوضوا بصداقاتهم مافقدوه من ناحية أوربا بعد أن قطع الحلفاء كل صلة بهم . ولذلك لم يكن غريباً أن تسخو روسيا مع الإيرانيين فتنزل لهم بمقتضى معاهدة سنة ١٩٢١ عن جميع ديونها وعن امتيازاتها وعما كان لها فى منطقة نفوذها من سكك حديدية ومهمات ، كما نزلت طبعاً عن معاهدة سنة ١٩٠٧ مؤيدة عزمها على عدم التدخل فى شئون إيران أو المساس بحقوقها بأى شكل كان . وكانت نتيجة ذلك أن تشجع الإيرانيون فقاموا ضد الإنجليز وأبعدوا ضباطهم ومستشاريهم وموظفيهم معلنين فسخ معاهدة سنة ١٩١٩ وأصبحت روسيا بعد ذلك الحليفة المفضلة لدى الإيرانيين .

وكما أن خاتمة الحرب العالمية الأولى فى البلاد المستضعفة قد أنتجت أبطالا أمثال سعد زغلول وديفاليرا وغاندى ومصطفى كمال — أولئك الذين أضاءوا الطريق أمام شعوبهم فوحدوا كلمتها وقادوها نحو الحرية والتحرر من نير الأجنبى تارة بالسلم وأخرى بالعنف وآناً بالصمت ، كذلك تمخضت الظروف التى تلت تلك الحرب فى إيران عن بطل وطنى عظيم فى شخص الشاه السابق رضا خان بهلوى الذى نهض بمعاونة أحد الزعماء الصحفيين الايرانيين من ضابط بكتيبة القوزاق الإيرانية إلى وزير للحربية فى سنة ١٩٢١ ثم إلى رئيس الوزارة فى سنة ١٩٢٣

وكان هذا الوزير الجديد من القوة والصرامة وسمو الروح الوطنية بدرجة جعلته معبود الشعب والدكتاتور المتسلط على شئونه فى آن واحد ؛ لذلك خشى مناوئوه الإقامة فى إيران ، فنهم من رحل إلى العراق كصديقه الزعيم الصحفى ومنهم من فضل الإقامة فى أوربا لينعم بمباهجها كالشاه أحمد . وبذلك خلا الجو لرضا خان ، فبدأ فى إيران عهد إصلاح لم تعرف البلاد مثله من قبل أو من بعد . وكان مصطفى كمال رائده فى الحكم ومثله الأعلى ، فسار على نهجه فى معظم إصلاحاته متجنباً منها ما كان يمس الدين واللغة والشعور القومى . فمن ذلك أنه آثر أن يتوج نفسه شاهاً على إيران فى سنة ١٩٢٥ بدلا من أن يعلن نفسه رئيساً لجمهورية

يقيمها من جديد وأنه أبقى على الإسلام ديناً للدولة وعلى علماء الإسلام المجتهدين وعلى الكتابة العربيـة وحروفها ، وسار فى إصلاحاته الأخرى بروح العزم ، مستلهماً القوة من الشعب والجيش . وكان فى مقدمة إصلاحاته النهوض بالجيش ، ونشر لواء الأمن والسلام فى أرجاء الدولة ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية ، وإنشاء السكك الحديدية والمعاهد والكليات والمصانع .

أما سياسته الخارجية فكان من الطبيعى بعد ماقاسته إيران أخيراً على أيدى بريطانيا أن يَطّرِد نمو العلاقات بينه وبين اتحاد السوفييت ، فوفد إلى إيران من روسيا عدد كبير من المهندسين والخبراء والصناع والفنيين ، وأخذت العلاقات التجارية تزداد وتقوى بين البلدين ، حتى بلغ نصيب روسيا ٤٠ ٪ من قيمة مجموع التجارة الخارجية لإيران .

وقد تأكدت الصلات السياسية بتجديد المعاهدة فى سنة ١٩٢٦ . وكان من أهم مانصت عليه تعهد روسيا لإيران برد الاعتداء عليها من ناحية أذربيجان وأرمينية ، وفى مقابل ذلك يصرح لروسيا بدخول قواتها البلاد إذا هاجمتها قوات من الجنوب وعجزت إيران عن ردها . وقد توثقت الصـلات بين البلدين حتى أن ممثل روسيا فى بلاط الشاه كان فى رتبـة سفير ، وهو امتياز لم تظفر به فى إيران سوى تركيا وأفغانستان ومصر .

أما بريطانيا فقد توترت العلاقات بينها وبين إيران منذ البداءة ، وظهر الخلاف جليًّا فى ثلاث مسائل : الأولى تمرد الشيخ خزعل صاحب « المحمرة » على خليج فارس ، وقد أبدل اسمها الآن وأصبح «حزام شهر» . وكان الشيخ معتزًّا بصداقة بريطانيا ، فرفض أن يذعن لرضا خان كما أذعنت سائر الولايات التى كانت تتمتع من قبل بقسط وافر من الاستقلال والفوضى فى وقت واحد ، فأرسل إليـه الشاه قوة أخضعته وحملته أسيراً إلى طهران ، وحاولت الحكومة الانجليزية فك أسره فلم تفلح .

وأما الحادث الثانى فكان بسبب الشركة الإنجليزية الإيرانيـة لاستخراج البترول ، وكانت شروط العقد مجحفة بإيران ، فانتهز الشاه فرصة هبوط إيرادات الشركة فى سنة ١٩٣٢ على أثر الأزمة المالية العالمية ، وأصدر قراراً بإلغـاء شروط الشركة ، فقامت إنجلترا وقعدت وحشدت قطعاً من الأسطول فى شكل مظاهرة بحرية فى الخليج الفارسى لإرهاب الشاه ؛ ولكنه ثبت فى موقفه فاضطرت

الحكومة الانجليزية إلى عرض موضوع النزاع على عصبة الأمم ، فاحتج الشاه بأن موضوع النزاع لايخص الحكومة الانجليزية ولا مجلس العصبة ؛ إذ أن القضية محصورة بين الحكومة وإحدى الشركات . وأخيراً سوى الموضوع وديًا بعقد اتفاق جديد بشروط سخية لإيران ؛ إذ اشترط ألا يقل نصيبها عن ١٠٠٥٠٠٠٠ جنيه فى السنة ، ودفعت الشركة مليون جنيه تسديداً لما عليها . وقد زاد إنتاج الشركة بعد ذلك ، ووصل نصيب الحكومة الايرانية إلى أكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وبلغ الانتاج قبل الحرب الأخيرة ١٠٠٠٠٠٠٠ طن فى العام .

وأما المسألة الثالثة فكانت بشأن « جزيرة البحرين » قرب الساحل الغربى للخليج الفارسى . وقد كانت هذه الجزيرة تابعة لإيران إلى قرب نهاية القرن الثامن عشر حين احتلها العرب . ولما بدت أهمية الخليج وظهر تنافس الدول بعضها مع بعض فى سبيل التفوق فيه انحاز شيخ الجزيرة إلى بريطانيا ، فأعلنت حمايتها على الجزيرة إلى الآن . ولكن الحكومة الايرانية لم تعترف بهذه الحماية ، وأخذ رضا خان يطالب بريطانيا برفع حمايتها ورد الجزيرة إلى إيران . والجزيرة من أهم القواعد البحرية لبريطانيا فى هذه المنطقة . وأهل الجزيرة من العرب وبينهم إيرانيون ، ولا يمكن أن تتخلى عنها بريطانيا طوعاً .

وعلى رغم هذه الخلافات بقيت العلاقات بين إيران وبريطانيا مشوبة بروح العطف والتقدير من الجانبين . ودل الإنجليز على صفاء الجو بين الدولتين بإرسال بعثة شرف لتهنئة الشاه بمناسبة الاحتفال بزفاف ولى عهده فى مارس سنة ١٩٣٩ .

وقد حرصت حكومة الشاه على أن تقوم علاقاتها مع الدول الشرقية على أقوم الدعائم . فقد سوت خلافاتها مع الأفغان ، وأخذت صلاتها مع العراق تتحسن وخاصة بعد أن انتهى الانتداب البريطانى عنها وقُبِلت العراق عضواً فى عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ وقد تأيدت الصداقة بزيارة الملك فيصل لطهران فى ذلك العام نفسه . ولما استعصى حل مشكلة « شط العرب » الذى يفصل بين المملكتين عرض الموضوع على مجلس العصبة ، وتم الاتفاق فى سنة ١٩٣٧ على أن يكون الشط حرًّا للسفن التجارية والحربية للدولتين وبقيت « عبدان » - وهى مركز تكرير البترول وشحنه - تابعة لإيران ، ورخص لكل من الدولتين

بأن تصرح لدولة ثالثة بدخول أسطولها بشرط إخطار الدولة الأخرى .

أما صلات الشاه بتركيا فكانت على الدوام مشبعة بروح الولاء والصداقة وتعاقدت الحكومتان فى سنة ١٩٣٤ ، وفى نفس تلك السنة حقق رضا خان أمنية طالما تاقت نفسه إليها بزيارة الرئيس أتاتورك فى أنقرة . وقد توجهت جهود الحكومتين فى توثيق الصلات بين دول الشرق الأوسط فى سنة ١٩٣٧ بعقد ميثاق « سعد أباد » قرب طهران بين تركيا وإيران والعراق وأفغانستان . وفيه تأكيد لتبادل الصداقة بين المتعاقدين ، ووعد بعدم الاعتداء وبالتشاور فيما بينهم فى كل ما يهم علاقاتهم الخارجية .

وعلى الرغم من أن الحرب الأخيرة قد وقفت عمل الميثاق كما وقفت ميثاق البلقان وغيره من المواثيق والمعاهدات الدولية ، فإن روح التعاون وتبادل المودة بين شعوب الشرق الأربعة ، قد أوجد لأول مرة فى التاريخ الحديث شعوراً بالتضامن السياسى وإحساساً بالنضج والاستقلال عن دول أوربا الكبرى ، وهو شعور لم يكن موجوداً من قبل . وليس من شك فى أن ميثاق «سعد أباد» هو الذى أوجد النواة التى أنبتت ميثاق جامعة الدول العربية فى أثناء هذه الحرب ، ولن يمضى وقت طويل حتى يتقارب الميثاقان .

أما مصر فقد جمع بينها وبين إيران رباط المصاهرة بين البيتين المالكين ، وكانت الحفلات التى أقيمت بمناسبة زواج ولى العهد من الأميرة فوزية من أبلغ الدلالات على روح الأخوة والمودة التى بدأت تسود بين دول الشرق الأوسط وشعوبه .

وأخيراً تأتى ألمانيا ، وقد كان لظهور هتلر ومبادئه صدى بالغ الأثر فى إيران ؛ فقد كانت حكومة الشاه رضا خان جماعية عسكرية فى أساسها ومرماها . والإيرانيون يعتقدون أنهم سلالة الجنس الآرى الذى نادى به هتلر وفضله على جميع الأجناس . وكان هذا مما دعا الشاه فى سنة ١٩٣٥ أن يقرر تسمية بلاده باسمها القديم « إيران » وأن يخطر الدول بذلك . من هذه الأسباب لم تلبث العلاقات بين البلدين أن توثقت ، فأرسلت ألمانيا خبراءها الاقتصاديين والماليين والمهندسين ، وأنشأت لحكومة الشاه مصانع للأسلحة والذخيرة والحديد وبناء السفن ، وزودت الجامعة فى طهران بعدد من الأساتذة والمستشرقين ، كما استقبلت فى ألمانيا عدداً كبيراً من البعثات العلمية الإيرانية . وأخذت ألمانيا

من الحكومة امتيازاً لخطها الجوى إلى طوكيو ، وملأت السوق بالصحف والمجلات وكتب الدعاية وأشرطة السينما الألمانية .

وفى سنة ١٩٣٧ كانت إيران قد بلغت من المكانة وخطورة الشأن بين الدول مبلغاً دعا إلى اختيارها عضواً غير دائم فى مجلس عصبة الأمم ، وقد ترأس ممثلها المجلس فى يناير سنة ١٩٣٨ .

وقد أعلنت الحرب العالمية الثانية وإيران تنعم لأول مرة فى تاريخها الحديث بحكومة وطنية مصلحة قوية ، وكانت صلاتها على خير مايرام مع أخواتها من دول الشرق ومع دول الغرب أيضاً ، اللهم إلا فرنسا ، وقد كان سبب النفرة بينهما حادثاً تافهاً حول لفظة « الشاه » باللغة الفرنسية ، وإلا بريطانيا وقد راعها كثرة عدد الألمان فى إيران وما أرسلته منذ إعلان الحرب من مدنيين وسياح ، استعداداً للعمل ضد الحلفاء عندما تحين الفرصة . ومع ذلك فإن إيران لم تتردد فى إعلان حيدتها عندما بدأت الحرب . ولما هاجمت ألمانيا روسيا فى صيف عام ١٩٤١ عادت إيران فأكدت حيدتها مرة ثانية . ولكن ألمانيا بدأت تستغل انتصاراتها وتحض إيران على انتهاز الفرصة للتخلص من الدولتين الطامعتين فى أراضيها وهما بريطانيا وروسيا ، فتشبث الشاه بالحيدة الدقيقة . وليس أدل على ذلك من أن إيران لم تتحرك عندما أعلن رشيد عالى الكيلانى ثورته العسكرية فى مايو سنة ١٩٤١ ضد الحلفاء وتسلم مقاليد الحكم فى بغداد .

غير أن روسيا كانت تعانى الأمَرَّين من جراء إغلاق البحر الأبيض المتوسط والمضايق فى وجهها ، ولم يكن أمام حلفائها لنجدتها سوى طريق البحر الشمالى المتجمد ، وهو طريق طويل محفوف بالأخطار ، ثم طريق الهند وإيران وهو طريق ممهد ولكن لا سبيل إليه إلا باختراق أرض إيران وموافقة الشاه ؛ لذلك اشتد الضغط على إيران وجعلت روسيا وهى تقاسى أشد المحن أمام الهجوم الألمانى تحض بريطانيا على ضرورة احتلال إيران قبل فوات الفرصة . وقد بدءوا بأن طلبوا إلى الشاه طرد الألمان النازحين إلى إيران ، وعز على الشاه أن تضطره الدول إلى خرق الحيدة التى أعلنها وإغضاب ألمانيا ، فأجاب أنه عازم على إبعاد الأجانب جميعاً من إيران ، وفى هذا إشارة إلى إخراج الإنجليز الذين يعملون فى الشركة الإنجليزية الايرانية للبترول ، فلم يرق هذا الرد فى نظر الحلفاء ، وقرروا

الزحف على إيران . وفى أغسطس سنة ١٩٤١ زحف الروس من الشمال واحتلوا أذربيجان ومقاطعات بحر قزوين ، وزحفت بريطانيا من الجنوب فاحتلت الأقاليم الجنوبية ، ولم يقو الجيش الايرانى على المقاومة أكثر من ثلاثة أيام فسقطت الحكومة وأساء الناس الظن بسياسة الحيدة التى انتهجها الشاه ، ما دامت قد أدت إلى كارثة الاحتلال . وعلى ذلك تألفت حكومة جديدة موالية للحلفاء ، ونفى الشاه إلى جزيرة « موريشص » شرق جزيرة مدغشقر ، حيث مات فى المنفى ودفن فى مصر فى العام الماضى .

وعلى الرغم مما أكده الحلفاء من أن احتلال البلاد كان لضرورة حربية مؤقتة ستزول بانتهاء الحرب ، وعلى رغم ما جاء فى قرارات مؤتمر طهران فى نوفمبر سنة ١٩٤٣ خاصًا بإيران من أن الدول الثلاث المؤتمرة : روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة متفقة على الاحتفاظ باستقلال إيران وسيادتها وسلامة أراضيها — على الرغم من ذلك كله فان البلاد منذ احتلها الأجنبى وغاب عنها سيدها وقائدها والنافخ فى روحها قد دبّت فيها عقارب التخاذل والقطيعة واضطرب حبل الأمن فى الفيافى السحيقة التى تفصل المدن والولايات بعضها عن بعض ، ولم تعد الولايات تحس بوطأة الرقابة ودقة الحراسة التى كانت تبديها الحكومة المركزية قبل الاحتلال ، وعلى ذلك بدت عوامل الانحلال التى نلحظ مقدماتها الآن .

ووجه الخطر فى مشكلة إيران أن روسيا تعتبر بلاد إيران وما جاورها داخلة فى منطقة نفوذها الكبرى ، وأن ضمان السلام وحسن الجوار فى هذه المنطقة يفرض على روسيا واجبات قد لا تكلَّف بها دوليًا ، ولكنها تراها ضرورة حيوية ، لتأمين حدودها الممتدة إلى مسافات شاسعة ، ولزيادة الرخاء فى ربوع جمهوريات السوفييت الصغيرة المنتشرة وسط آسيا وغربيها . وهى لذلك تعمل الآن على أن يكون لها النفوذ الأول لدى حكومات هذه البلاد وشعوبها .

وإذا كانت روسيا فى بدء ثورتها قد زهدت فى ضم هذه المناطق إليها ، لأنها كانت فى شغل شاغل عنها ، ولأن الصناعة والحركة العالمية فى تلك المناطق لم تكن قد ارتقت بعدُ بحيث يتيسر تحويل البلاد إلى مبدأ الشيوعية ، فإنها الآن وقد انقضى ربع قرن من الزمن تطورت فيه شئون هذه المناطق تطوراً صناعيًا ملحوظا على أثر كشف آبار البترول وزيادة إنتاجه واصطبغت فيه سياسة روسيا

الخارجية بالصبغة الاستعمارية ، لاترى مندوحة من بسط نفوذها فى هذه المنطقة إما بالضم وإما باحتضان حكوماتها الوطنية .

وعلى هـذا الأساس سارت روسيا فى سياستها فى إيران منذ احتلت جيوشها الأقاليم الشمالية فى أغسطس سنة ١٩٤١؛ فقد عملت فيها كأنها باقية أبداً، فأنشأت حزب الجمهور أو الشعب، وكان محظوراً ظهور الأحزاب فى عهد الشاه السابق . وجعلت روسيا تناصر الحزب الجديد وتعزز جانبه ، حتى استطاع فى ولاية أذربيجان (وبها ثلاثة ملايين نفس من خمسة عشر فى جميع إيران) أن يقف فى وجه حكومة طهران وأن ينشئ فيها حكومة ذاتية لها جمعيتها الوطنية وجيشها ولغتها وبريدها وسائر مصالحها .

وإذا كانت الأنباء تؤكد أن الأذربيجانيين لم يعلنوا انفصالهم تماماً عن حكومة طهران ، فلا شك فى أنهم سائرون فى هذا الطريق ، وأن نجاحهم سيغرى غيرهم فى الولايات الأخرى ، وخاصة مناطق الأقليات كالأكراد وما كان منها متاخماً لحدود اتحاد السوفييت مثل قزوين وجيلان وشمالى خراسان . ومتى استقلت أذربيجان واتخذت تبريز عاصمة ، فلا يبعد أن تبحث لها عن ميناء على الخليج الفارسى ؛ وحينئذ تبلغ روسيا مطمعها الأزلى فى الوصول إلى المياه الدافئة سواء فى أوربا عن طريق المضايق والبحر الأبيض المتوسط أو فى آسيا بسبيل الخليج الفارسى والمحيط الهندى ؛ ولا مفر حينئذ من تصادم المصالح الروسية والبريطانية .

ولا عبرة البتة بما أكدته روسيا من أنها لم تساعد ثوار أذربيجان حربيًا ، فيكفى أنها منعت قوات طهران من قمع الفتنة ، وكانت حجتها أن مهمة روسيا تنحصر فى حفظ النظام ، وأنها لو سمحت لقوات طهران بالتدخل لاضطرب النظام وسفكت الدماء . وفى اعتقاد روسيا أن حكومات طهران الرجعية هى من الضعف والفساد بدرجة تجعلها عاجزة تماماً عن إخضاع الثوار . لذلك اشترط الثوار ألا يرسلوا ممثليهم أمام المجلس الوطنى بطهران إلا إذا أصلحت الحكومة . ومعنى هذا باللغة السوفيتية أن تكون الحكومة على وئام تام مع روسيا وملحقاتها من جمهوريات السوفييت .

والحكومات الضعيفة هى آفة هذا العصر ؛ فهى مدعاة لاضطراب الأمن وزعزعة الثقة فى نفوس الشعب، ومنها تنبت البذرة التى يتعهدها رسل السوفييت

وأعوانهم حتى تنمو وتتكاثر وتؤتى الثمرة الصالحة للثورة . فلو أن الحلفاء الذين أذلوا حكومة إيران واستباحوا حرمة أرضها بالاحتلال قد كفروا عن ذنبهم فى حق الديمقراطية الصحيحة بتشجيع الوطنيين والأخذ بيدهم والسير معهم لتحقيق الاصلاحات التى أقامها الشاه السابق ، لتماسكت الحكومة والشعب معاً ولانسدت الثغرة التى ينفذ منها الأجنبى عادة إلى قلب الدولة . ولكن السياسة الدولية — كما قال الرئيس ترومان مرة — هى مجموعة مساومات بين الدول . ونرجو ألا يكون الحلفاء قد قايضوا على إيران أو جزء منها ؛ فقد ترى روسيا أنها ما دامت تشترك مع الحلفاء وتتفاهم معهم فى المسائل الدولية الكبرى التى تهمهم جميعاً فليس هناك معنى لأن يدقق معها الحلفاء فى مسائل أقل شأناً أو يناقشوها الحساب أمام مؤتمرات دولية . قد يتحرج فيها مركز السوفييت أمام العالم . وعلى ذلك يحتمل كثيراً أن تحاول الدول الثلاث الوصول إلى حل سريع لهذه المشكلة قبل أن يحين موعد جلاء الجيوش المحتلة فى ٢ مارس المقبل ، وقبل أن تتألف جبهة معارضة لروسيا من الأتراك والإيرانيين وأنصارهم من ممثلى الدول الوسطى والصغرى . وهؤلاء إذا ما صرخوا بشكواهم فى وجه روسيا أمام هيئة الأمم المتحدة هزوا أديم الأرض التى تقف عليها روسيا وحلفاؤها وهم يتساومون بشأن مصير الأمم الصغيرة ومصالحها .

محمد رفعت

وحدة وادى النيل

ومقوماتها الجغرافية والتاريخية

كثر الحديث فى هذه الأشهر الأخيرة حول موضوع « وحدة وادى النيل » ، وتناوله الكتاب من نواحٍ مختلفة ، يقع بعضها فى متن السياسة ، وبعضها الآخر على هامشها . ولكن هناك ناحية أخرى لا تتصل بالسياسة اتصالاً مباشراً ، ومع ذلك لا يمكن إغفالها إذا نحن أردنا أن نرجع بموضوع وحدة وادى النيل إلى اسسه ومقوماته الأولى . تلك هى الناحية الجغرافية التى ترد الأشياء إلى أصولها الطبيعية ، والتى قد لا يملك أهل السياسة ورجالها أن يغفلوها إن هم أرادوا أن تأتى سياستهم مرآة صادقة لما تقتضيه الظروف الطبيعية لا سيما فى منطقة ارتبطت فيها حياة الناس وتاريخهم بالبيئة الجغرافية كوادى النيل . ولذلك قد يكون فى استعراض مسألة الوحدة التى نحن بصددها من وجهة النظر الجغرافية ، وما يتصل بها من جوانب تاريخية ، بعض ما ينفع فى إبراز ما تسند إليه من مقومات .

لعل أول ما يسترعى نظر الجغرافى فى الحدود السياسية التى رسمت بين مصر والسودان بعد إعادة افتتاحه وعقد اتفاقية ١٨٩٩ ، أن تلك الحدود التى تسير فى جملتها مع خط عرض ٢٢° شمالاً ، فيما عدا منطقة وادى حلفا ، إنما هى حدود غير طبيعية ؛ لأنها تسير مع خط وهمى ، وليس لها مايسوغها من الناحيتين الطبيعية والبشرية . ولا أدل على ذلك من أن بعض القبائل التى تعيش حول ذلك الخط تشطرها الحدود السياسية ، فيعيش بعض عشائرها ويرعى إبله وأنعامه فى جنوبها ، ويعيش البعض الآخر ويرعى إبله وأنعامه فى شمالها . ولذلك لم يكن بدٌّ من إنشاء ما عرف بخط الحدود « الإدارية » ؛ وهو خط متكسر يتجه قليلاً فى جنوب الحدود السياسية ، ثم ينحرف كثيراً فى شمالها حتى يصل إلى البحر الأحمر ؛ والغرض منه ضمان توحيد

الإدارة فى أرض القبيلة الواحدة ، إما تحت إشراف حكومة السودان ، وإما ضمن الإدارة المصرية فى الصحراء الشرقية . وقد ترتب على ذلك أن انفردت مصر وانفرد السودان من بين أقطار العالم ، ففصل بينهما فى هذه المنطقة نوعان من الحـدود أحدهما « سياسى » والآخر « إدارى » . . . وهذه « الثنائية » فى حد ذاتها إن دلت على شىء فعلى أن الحـدود القائمة غير طبيعية ؛ بل على أن الطبيعة فى هذا الإقليم لا تيسر الاصطلاح على حدود فاصلة من النوع المعروف ، الذى تتمشى فيه مقتضيات « السيادة » القومية مع ضرورات « الإدارة » المحلية[1] .

ومع ذلك كله فإن هذه الحدود سياسية كانت أو إدارية لا تتمشى مع ما يصح أن نسميه الحدود « الحيوية » . ولعل هذا مصدر الضعف الأول والأخير فى كيان مصر والسودان وشعبهما الذى يريد أن تتحقق له سيادته القومية الموحدة أو المتحدة داخل نطاق من الحدود الجغرافية الأمينة .

ولـكن أمر الحدود بين مصر والسودان أكثر تعقيداً من ذلك . ولا بد عند النظر فيه من أن نجمع بين المقومات الجغرافية والتاريخيـة ، وأن نقرنها جميعاً بالظروف البشرية التى تكيف حيـاة أهل الشمال وأهل الجنوب فى الوقت الحاضر . وليس هذا مجال التفصيل فى كل ذلك ؛ ولـكن أقل ما ينبغى أن يذكره الناس فى مصر وفى السودان ، بل فى بريطانيا ، تلك الحقيقة الجغرافية الأولية التى تقول إن أحواض الأنهار إنما مهدتها الطبيعة لتكون وحدات جغرافية ، لا سيما تلك الأجزاء منها التى ترتبط حياة السكان فيها بمياه النهر ارتباطاً مباشراً فى الزراعة وغيرها ، كما هى الحال فى مصر والسودان . والحق

---

(١) لعل من الطريف أن نلحظ أن مساحة المنطقة التى سلخت من الادارة المصرية وأضيفت الى ادارة حكومة السـودان تبلغ أكثر من تسعة أمثال مساحة ما أضيف الى الادارة المصرية من أراضى السودان . ومع أن هذا الأمر قد لا يكون ذا خطر كبير أو صغير من وجهة النظر المصرية السودانية ، فان المصورات والخرائط الجغرافية التى تطبع حديثاً فى بريطانيا ، بل التى تقوم على طبعها حكومة السودان ذاتها ، كثيراً ماتغفل أمر الحدود السياسية ولا تثبت إلا الحدود الادارية !! ومع ذلك فان المنطقة التى سلخت من مصر غنية بنباتاتها وهناك احتمال أن تكون غنية أيضاً ببعض المعادن ، فهى تقع قرب البحر الأحمر ويوجد بها جبل علبة وغيره من المرتفعات . فاذا ! كتشف بها بعض المعادن كانت مواقعها ومناجمها تابعة « للسيادة » المصرية من جهة وخاضعة للادارة الثنائية من جهة أخرى ! ! وفى ذلك ما فيه .

أن الإنسان قد استجاب لهذه الوحدة الطبيعية فى حوض النيل منذ أقدم العصور، رغم اختلاف مراحل التقدم فى الحضارة البشرية بين الشمال والجنوب؛ فانتشرت العناصر وسارت الهجرات على طول الوادى متجهة من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب؛ وبذلك اختلط الجنس وامتزجت الدماء، حتى قبل ظهور الأسرات الفرعونية فى مصر؛ بل إن الحضارة المصرية ارتبطت بالحضارة الإفريقية السودانية قبل بداءة التاريخ. والرأى الأرجح الآن بين علماء الآثار أن الحضارة المصرية الأولى كانت إفريقية النشأة، وأن مصر العليا على الأقل قد تأثرت إذ ذاك بما يليها إلى الجنوب فى وادى النيل: وبعد أن استقرت المدنية فى مصر عادت بعض عناصرها إلى الارتداد على شكل موجات وهجرات متلاحقة أثرت فى السودان الشمالى ثم الجنوبى، حتى بلغت هضبة إفريقية الشرقية.

ولا تزال بعض تلك المؤثرات التى انتشرت من مصر فى فجر التاريخ باقية ماثلة فى نُظم المجتمع بين سكان أعالى النيل؛ أولئك الذين يقال عنهم الآن إنهم أهل السودان الجنوبى، وإنهم يجب أن يبقوا فى عزلة سياسية عمن فى شمالهم من بقية أهل السودان وأهل مصر؛ مع أن أولئك السودانيين الجنوبيين لم يتصلوا قبل العهد الحديث بأحد من الشعوب الخارجية غير سكان وادى النيل فى شمالهم؛ ولم يتأثروا بأية مدنية خارجية غير مدنية مصر، التى لا يبعد أن تكون قد أخذت عنهم، أو عن جوارهم، فى بعض عهود ما قبل التاريخ، ثم ردّت دينها واتصلت بينها وبينهم التجارة والثقافة فى موجات متقطعة خلال أعصر التاريخ.

فالفصل بين هذا السودان الجنوبى وبين الشمال يعتبر فى نظر من يدرسون انتشار الثقافة والمدنية قطعاً له عن العالم الخارجى، وقضاء عليه بالجمود؛ رغم كل ما يقال عن جهود بعض المبشرين فى إيفاد قشور من مدنية الغرب، لا يستطيع أهل تلك البلاد النائية استساغتها، فضلا عن استيعابها. وليس هناك شك فى أن خير من يستطيعون أن يكونوا رسل الثقافة والتمدن بين هؤلاء الأقوام من زنوج وغيرهم إنما هم سكان وادى النيل القاطنين إلى شمالهم، والذين تشيع بينهم ألوان من الثقافة والمدنية بعضها قديم يستطيع أهل السودان الجنوبى أن يتعرفوا على شىء من معالمه، والبعض الآخر حديث نسبيا، ولكنه على كل حال أدنى إلى ثقافتهم، وأيسر تناولاً بالنسبة إليهم من ثقافة الغرب، التى تفصلها عنهم شقة بعيدة الطول فى الزمان وفى المكان.

كل هذا عما يربط السودان الجنوبى بما يليه شمالا من روابط الثقافة والتاريخ . ولكن لهذه الروابط ناحية أخرى برزت قيمتها فى العهد الحديث ؛ فظهرت بوادرها مع النهضة المصرية فى عهد محمد على ومن بعده ، عند ما استشعرت مصر حاجتها الحيوية إلى أن تعرف منابع هـذا النهر العظيم الذى تعيش منه وعليه ؛ فأرسلت البعوث تلو البعوث لترتاد أعالى النيل ومديرية خط الاستواء لا سيما فى عهد إسماعيل . وبذلك كانت مصر الكاشفة الأولى عن كثير من تلك الأصقاع ، وكان جنودها وعملاؤها أول من دخلها وكشف عنها للعالم الخارجى . وقد ترتب لمصر على ذلك كله فضل وحق سجلهما التاريخ واعترف بهما العلماء ، وإن لم يعترف بهما أصحاب السياسة فى جميع الأحايين . ولعل آخر ما أنفقت مصر وما زالت تنفق من جهد وبذل فى سبيل الكشف عن أعالى النيل ما قامت عليه فى السنوات الأخيرة من تصوير جميع منطقة حوض الغزال ، وأطراف الكونغو بالطائرات من الجو ، تمهيداً لإعداد خرائط جغرافية مفصلة لهذه الأقاليم .

والحق أن سعى مصر للتعرف على أعالى النيل والكشف عن مجاهلها ما كان إلا استجابة لما فرضته الطبيعة عليها ، ولما استشعرته من أن هذه الطبيعة التى جعلت من مصر هبة النيـل ، قد ربطت حياتها وتقدمها الزراعى فى المستقبل بأطراف النهر الجنوبية ، حيث ينتظر أن تنفذ بعض المشروعات لتدبير المياه اللازمة للرى . وكان بعض تلك المشروعات خارج حـدود السودان السياسية الحالية فى أوغنده من جهة ، وفى الحبشة من جهة أخرى ؛ وبذلك لم يكن لمصر إشراف مباشر عليها . ولكن بعض تلك المشروعات يقع فى أراضى السودان ذاتها ، ومنها مشروع قناة بور فى أرض حوض بحر الجبل والزراف ؛ وكذلك مشروعات بعض الخزانات فى السودان الأوسط والشمالى كما سنرى بعد قليل . ولكن من المهم هنا أن نجلو نقطة خاصة فى الموازنة بين منابع النيل الاستوائية ومنابعه الحبشية ، من حيث قيمتها للمشروعات المصرية . فالحبشة يأتينا منها معظم الماء ، وما يحمل من غرين ومواد عالقة هى أصل التربة المصرية المعروفة وسر خصبها وثروتها ؛ ولكن بلاد الحبشة لا يقع فيها غير مشروع خزان بحيرة تانا ، التى لا تمد النيل الأزرق فى الوقت الحاضر إلا بعشر مياهه ، أما بقية مياه ذلك النهر ، وأما مياه العطبرة والسوباط فلا علاقة لها جميعاً بتلك البحيرة ، ولا يجدى فى الاستفادة منها غير خزانات وسدود تقام فى أرض السودان

أو مصر . وفضلا عن ذلك فينبغى ألا يغيب عنا أن مياه المنابع الحبشية تفيض كلها دفعة واحدة وفى فصل قصير ، فتصعب الاستفادة منها ، ويذهب معظمها إلى البحر . أما مياه منابع النيل الاستوائية فقليلة من حيث الكمية ، ولكنها مستمرة طوال العام ؛ ولولاها لجف مجرى النيل أو كاد ، خلال ما يقارب نصف العام . والواقع أن الزراعة الصيفية فى مصر ، وزراعة القطن بنوع خاص ، تعتمد إلى حد ظاهر على هذه المياه الاستوائية التى لايمكن أن تغنينا عنها موارد المياه الحبشية ، بل التى مكّن انتظام جريانها من التوسع الزراعى الصيفى فى مصر ، وكذلك من زراعة بعض المحاصيل الصيفية على ضفاف النيل فى أجزاء مختلفة على طول النهر بالسودان .

من ذلك كله تتبين أهمية السودان الجنوبى بالنسبة لما يقع فى شماله من أراضى وادى النيل ؛ تلك الأهمية الحيوية التى انعكست من قبل فيما بين تلك الأقاليم جميعاً من صلات قديمة ، والتى لم يزدها العصر الحديث ، وما تبعه من نهضة فى أسفل وادى النيل إلا توثقاً ووضوحاً .

فإذا ما نحن انتقلنا إلى السودان الأوسط والشمالى وجدنا أنه كان يمثل على الدوام حلقة الاتصال بين أعالى النيل وأدانيه . فكان طريقَ الاتصال والتوسع الثقافى والسياسى من الشمال إلى الجنوب ؛ بل كان طريق التجارة بين أهل وادى النيل الأسفل وداخلية إفريقية . وقد أسبغ عليه موقعه هذا أهمية خاصة ، فتوسع فيه سكان الشمال ، ووثقوا صلتهم به ؛ واستطاعوا فى كثير من العهود أن يصبغوه بصبغة بشرية خاصة ، جعلته أقرب ما يكون إلى أرض وادى النيل الأدنى فى الشمال . وقد جاء وقت استطاع فيه المصريون القدماء أن يستقروا فى بعض ربوعه الشمالية ، لاسيما إقليم دنقلا ، حيث عنى فراعنة الدولة الوسطى بقياس فيضان النيل ، وسجلوا ذلك جنوب صخور الشلال الثانى ، وحيث ظهرت مدنية متأثرة إلى أبعد الحدود بالمدنية المصرية فى منطقة نباتا القديمة فى جنوب دنقلا . بل إنه جاء وقت استطاع فيه أمراء دنقلا هؤلاء أن يجمعوا من القوة ما مكّن لهم من التوسع بدورهم نحو الشمال ، وفتح وادى النيل الأدنى ، وأرض مصر على يد بعنخى فى القرن الثامن قبل الميلاد ؛ ثم انتهى بهم الأمر إلى تكوين الأسرة الخامسة والعشرين ، التى حكمت أوجه النيل البحرى والقبلى والغربى جميعاً خلال خمسين عاماً . ولعل فى هذا التاريخ القديم ما يذكرنا بحن

أبناء وادى النيل الأدنى بأن الصلة السياسية والعسكرية بيننا وبين السودان لم تقم دواماً وبالضرورة على أساس الغلبة من جانب مصر ! وهى ذكرى ينبغى أن نتمثلها واضحة جلية إذا نحن أردنا أن تقوم العلاقة بيننا وبين الجنوب على أساس من المساواة التامة بين شطرى وادى النيل .

وفى أواخر العهد الفرعونى انتقل مركز القوة والحضارة فى السودان نحو الجنوب إلى منطقة مروى القديمة بين الشلالين الخامس والسادس ، حيث استمرت الحضارة المحلية حتى جاءت المسيحية ، فانتشرت من مصر أيضاً إلى هذا الإقليم ؛ واستمرت مزدهرة أو قائمة هناك حتى القرن الخامس عشر ، فلم يحل الإسلام محلها إلا بالتدريج . كذلك انتشرت المسيحية من مصر إلى إقليم آخر من أقاليم حوض النيل ، هو هضبة الحبشة . ومع أن انتشارها هناك جاء من طريق البحر الأحمر ، فقد احتفظت المسيحية الحبشية بصلاتها الوثيقة بالكنيسة القبطية عن طريق السودان البرى وطريق البحر الأحمر على السواء .

وفى العهد العربى بدأت القبائل تنتشر من شبه جزيرة العرب إلى صحارى مصر وجوار وادى النيل ، ثم تسربت مع هذا الوادى بالتدريج نحو السودان ؛ لا سيما فى القرن الثانى عشر وما تلاه من قرون ؛ حتى استقر كثير من العرب واختلطوا بالسكان الأصليين فى السودان الشمالى والأوسط ؛ ووصلوا إلى بلاد الفونج فى جنوب الجزيرة ، وإلى بلاد كردفان ودارفور وبحر العرب فى الجنوب الغربى . ومن الطريف حقاً أن نلحظ هنا أن العرب عند ماانتشروا من جزيرتهم ونقلوا الإسلام إلى ربوع السودان لم يعبروا البحر الأحمر مباشرة إلى شواطئه الغربية إلا بأعداد ضئيلة جداً ؛ وإنما هم قد داروا مع اليابس حول ذلك البحر ، فدخلوا شبه جزيرة سينا ، ثم أطراف الدلتا ، ثم اتجهوا مع النيل صوب الجنوب . وبذلك كانت مصر حلقة الاتصال ، وطريق انتشار العرب وتوغلهم الجنسى والثقافى فى السودان . وهذا فى حد ذاته مما يبرز من قيمة الوحدة الطبيعية فى وادى النيل ، ويضفى على هذه الوحدة الطبيعية بعض ما يزكيها فى نظر الجغرافى والمؤرخ على السواء .

والواقع أن البشرية العامة ، والوحدة الثقافية بنوع خاص ، ظاهرتان قد جرى بهما التاريخ بين مصر والسودان الشمالى والأوسط خلال أعصره المختلفة فرعونية ومسيحية وإسلامية ، ولا يزال يجرى بهما حتى اليوم . بل إن سكان

هذا السودان يعتبرون من الناحية البشرية عامة والناحية الثقافية خاصة أقرب إلى الطابع المصرى العربى من سكان بعض المناطق الداخله ضمن حدود مصر السياسية ، وأظهرها منطقة النوبة الشمالية بين أسوان ووادى حلفا . فكثير من أهل هذه المنطقة « المصرية » لايتكلمون العربية ؛ وإنما يتكلمون « النوبية » أو « البربرية » وهى لغة حامية قديمة تختلف تمام الاختلاف فى أصلها ونطقها عن اللغة العربية التى يتكلم بها سائر أهل مصر والسودان الشمالى والأوسط ... وقليل منا معشر المصريين من يدرك هذه الحقيقة إدراكا واضحاً ، وهى أن مواطن دنقلا الجنوبية أو الخرطوم أو كسلا أو أرض الجزيرة هو أقرب إلى مواطن مصر العليا بله مصر الشمالية من مواطن كلابشة أو كرسكو أو كثير غيرهما من مواقع النوبة الداخلة فى حدود مصر السياسية ... ومع ذلك فإذا كان أهل النوبة المصرية قد استطاعوا أن يكونوا مواطنين مصريين صالحين ، وأن يشاركوا فى الوطنية المصرية كغيرهم من سكان وادى النيل الأدنى رغم اختلاف اللغة ، فما أحرى مواطنى النيل الأوسط فى السودان أن يشاركوا فى هذه القومية مشاركة كاملة موفورة ، بل مشاركة يضيفون بها إلى وحدة الوادى وشعبه من القوة والتزكية ما قد لا يستطيعه بعض سكان مصر فى الشمال .

ومع ذلك فإن الوحدة بين المواطنين فى شطرى النيل الأدنى والأوسط ليست تاريخية ولا بشرية ثقافية فحسب ، وإنما هى تتعدى ذلك ، أو تسبق ذلك ، إلى مصالح الحياة وأسبابها المادية ؛ وتتمثل بصورة جلية واضحة فى الوقت الحاضر وفيما نحن بسبيله من مستقبل . وهذه المصالح المادية بعضها خاص بأهل مصر ، وبعضها خاص بأهل السودان ؛ ولكنها فى الغالب مشتركة ومتبادلة بين الاثنين . فمصر لا تستطيع أن تجد سبيلها إلى الحياة الآمنة المطمئنة بدون السودان . وآية ذلك أو من آياته تلك المياه التى تأتى بالحياة من أقصى الجنوب ولا تستطيع إلا أن تفيض وأن تجرى على أرض السودان ؛ وتلك المشروعات الكثيرة لخزن المياه وتنظيم فيضانها وجريانها حتى تصل مصر فى مقادير معلومة وفى مواعيد منتظمة يرتبط بها التوسع الزراعى فى مصر أشد الارتباط ، كخزان جبل الأولياء ومشروع خزان النوبة العليا ، وغيرهما من مشروعات هذا النهر العظيم التى نفذت أو التى لماتنفذ بعد ، وهى كلها بمثابة الصمامات من قلب مصر . ثم من آيات ذلك أيضاً تلك المصالح والمرافق المادية الكثيرة التى أنفقت من

أجلها مصر ما أنفقت من جهد كبير ومال كثير ، ساهمت بهما مساهمة فعالة فى تعمير السودان وإنهاضه نهضته الحديثة على نحو ما هو معروف .

وكذلك السودان فإن حاجته إلى مصر وارتباط حياته المادية بحياتها مما تتعدد آياته ومما يغنى فيه التمثيل عن التفصيل . فهذه أرضه بكر تحتاج إلى المال وإلى الأيدى العاملة وغيرهما من أسباب النهوض بالحياة المادية . وليس المقصود بالمال ذلك الذى يأتى به المستعمر ، إذ يؤلف الشركات الاستغلالية كمشروع الجزيرة ، فيشترى الأرض من الأهلين بثمن بخس ، ويحرمهم من الملكية الزراعية ، ويستخدمهم مأجورين فى الإنتاج ، ويزرع ما يوافق حاجاته ويغذى صناعاته من محاصيل تجارية كالقطن وغيره بدلا من زيادة إنتاج المحاصيل الغذائية التى تيسر الاستهلاك الشعبى وترفع مستواه ... بل ينشىء هذه الشركات الكبيرة التى لا يستطيع الأهالى محاكاتها وتقليد نظمها وأساليبها فى أعمالهم الانتاجية العادية ؛ فهى نظم وأساليب معقدة ليس لديهم من الدراية ولا التجربة الكافية ، بل ولا المال أو التعليم ، ما يمكن لهم من الإفادة منها ، أو مما هم مدفعون فيه من نهضة ظاهرية ، لا تمس حياة الشعب ونهضته فى الصميم لأنها لا تتناول منهما الأسس ولا المقومات ... ليس ذلك ما يقصد برأس المال ، وإنما المقصود به والمطلوب منه ذلك الذى ينفق مرتخصاً ، ويبذل غير مقتّر فيه على مرافق الحياة القومية العامة من إنشاء طرق المواصلات ، وإنفاذ المشروعات العامة ، وإنعاش أسواق التجارة المحلية إلى جانب التبادل الخارجى ، وغير ذلك مما ساهمت به مصر وأبناء مصر فى السودان فى غير مَنّ وبغير حساب .

وأما الأيدى العاملة فقصتها غريبة ومؤلمة فى الوقت ذاته . فالسودان على اتساع أرجائه فقير جدًّا بسكانه . ومع أن مساحته تعادل مساحة مصر مرتين ونصف مرة على وجه التقريب فإن سكانه لا يزيدون كثيراً على ثلث سكانها ؛ وهو فوق ذلك لا يقل غنى عن مصر فى موارده الزراعية والنباتية العامة بل يزيد إذا أُحسن استغلاله ... وقد قاسى السودان كثيراً فى نهضته الحديثة من جراء قلة الأيدى العاملة فيه ؛ لاسيما الأيدى المدربة فى الزراعة . وهو لا يزال يلجأ حتى الآن إلى استخدام بعض سكان السودان الغربى الذين يفدون عليه فى طريقهم إلى البلاد المقدسة للحج ؛ فيقيمون فى ربوع السودان المصرى عاماً أو أعواماً ، مأجورين فى الزراعة ، مرتزقين بما يسد أودهم ، ويمكن لهم من الحج والسفر فى الذهاب والإياب .

وهؤلاء المرتزقة يؤدون خدمة طيبة للسودان وشركات الزراعة من غير شك ؛ ولكنهم فى الوقت نفسه خطر على النهضة القومية هناك ؛ فهم لايمثلون عنصراً ثابتاً فى السكان ، ولا يمثل نشاطهم وجهدهم جزءاً من نشاط الأمة وجهدها ؛ وإنما هو نشاط مستعار قد لا تخشى عواقبه فى بعض الأمم ذات الحياة المتقدمة والمستقرة ، ولكن له خطره الكبير فى حياة شعب يسعى إلى النهوض بنفسه كشعب السودان . وحقيقة مايحدث الآن فى كثير من البقاع أن أرض السودان تستغل لحساب شركة أو شركات أجنبية ، وتفلح بأيد أجنبية مرتزقة . وذلك كله لا يمكن أن ينتهى إلى خير ، كثير أو قليل ، بالنسبة للسودان وأبنائه ، مع أن هذه الحالة قد تتغير لو سمح للعناصر المصرية بالهجرة والاستقرار فى السودان ، حيث تعمل وتعيش وتختلط وتتزاوج وتندمج فى النهاية بأبناء وادى النيل هناك . وليس صحيحاً ما يقال من أن المصريين لا يرغبون فى المخاطرة والمهاجرة ؛ فكل من يعرف السودان يعلم جيداً أن أبناء مديرتى أسوان وقنا يعيشون ويعملون ويتجرون ويتبادلون فى ربوعه . وهم عنصر جم النشاط يشتغل بالتجارة وبعض الزراعة ، ويشارك فى مرافق الحياة الأخرى مشاركة هى مثال لما يمكن أن يكون لو أن الهجرة كانت حرة لا تقف فى طريقها الحوائل والعقبات .

أما بعد ، فهذا قليل من حديث يمكن أن يطول . وإنْ هذه التى ذكرناها إلا مسائل ونقط مختارة تبرز لنا وحدة وادى النيل كما يراها دارس الشئون الطبيعية والبشرية فى هذا الإقليم .... وإذا كان للسياسة منطقها فى الحديث من الوحدة التى نحن بصددها ، وعما يلابسها من مشكلات ، فإن للطبيعة والتاريخ منطقهما الذى يقوم على درس الحقائق والوقائع مجردة ، وعلى نحو ربما كان أيسر وأنجع فى إقناع من بيدهم تصريف شئون السياسة ، وفى إنارة الطريق أمامهم كى يروا أن من الخير أن تتسق سياستهم مع ما تقتضيه طبيعة الأشياء ، وأن مثل هذا الاتساق ضرورى للوصول بأية مشكلة إلى حلها الموفق المعقول .

إن وحدة وادى النيل أمر طبيعى ، وظاهرة بشرية لها مقوماتها الجغرافية والتاريخية . وقد برزت تلك الوحدة وتمكنت أسبابها خلال أعصر التاريخ ،

وإن لم تتخذ صفة الوحدة السياسية المعروفة فى كل العصور . وقد شاءت الظروف أن تتعقد شئون هذه الوحـدة فى العهد الحديث ، وأن تلابسها وتطغى عليها مشكلات كثيرة ، يرجع بعضها إلى تعثر النهضة القومية فى مصر ، وإلى عدم التكافؤ فى التقدم والنهوض القومى فى مختلف أجزاء الوادى ، ثم إلى تداخل قوة ثالثة شاءت المقادير أن تكون لها يد أى يد فى تصريف شئون هذا الوطن بشطريه فى الشمال والجنوب . ولـكن رغم ذلك كلـه فإن الزمن لم يتوقف عن المسير .... وكلما سار هذا الزمن ودار معه الفلك ازدادت الحقائق الأساسية وضوحاً ، وانجلت عن قوتها الصحيحة الفعالة . وهكذا برزت وحدة وادى النيل من جديد ، وتبين أن كل ما أقامـه البشر فى سبيلها لم يكن إلا عَرَضاً مصيره إلى الزوال مهما طال الزمن ، ومهما قصّر سكان هذا الوادى فى الاستجابة لمقتضيـات بيئتهم الموحَّدة ، بل مهما تأخر الزمن بحليفتنا العظيمة عن أن تدرك أن خير ما تستطيع أكثر أمم التاريخ الحديث حظًّا من القوة واتساعاً فى الجاه أن تساهم به فى تاريخ الإنسانية ، وأن تتوج به أعمالها التى ترجو لها الخلود على الزمن ، هو أن تمد يدهـا مخلصة إلى أعرق أمة فى التاريخ ؛ وتخلى بين هذه الأمة وبين أن تستكمل وحدتها وتتبوأ مكانتها بين أمم العالم من جديد .... وبذلك وحده تصحح أخطاء الماضى القريب ، ويقوم ما بين بريطانيا العظمى وأمة وادى النيل على أساس من الإخلاص المتبادل والتعاون الصادق والإدراك الصحيح ..... ومن يدرى ! فقـد لا تطول بنا السنون أو الأيام قبل أن يتم الله نوره ، فتتهيأ الأسباب جميعاً لأن يتصل ما قضت الطبيعة ـ وما أمر الله ـ به أن يوصل بين مصر والسودان ، ويستعيد أقدم شعب بعض ما كان له من مجد فى أقدم وطن !

سليمان حزين

المشيب

يا لارتياع ابنتي لما رأت شَعَرى … في الرأس يُومض مثل البَرْق في المطر

قالت: مشيب؟ وكم في الشيب من عبر … إن لاح في كِبَر أو جاء في صِغَر

أشابَ فَوْدَيّ والعلياء خوضهما … في واضح من أذى الدنيا ومستتر

رَيْبُ الزمان يشيب المرء وهو فتى … ولا يجير له جاراً على الكِبَر

وكم رفيق أتى بعدى فعاجله … فَرْطُ الأذى فمضى يَسْتَنُّ في أثرى

شيباً وكرباً أَمضَّا كل مُصطبر … على بعَارِعهِما أو غير مصطبر

وأيُّ أمرٍ مِنَ الدُّنيا نحاوله؟ … وقد أُزيلت دَواعي الهمِّ والوَطر

كم تستمرّ على شيء مَريرتُنا … هيناً فنأنس بعض الصفو من كدر

حتى إذا امتدَّت الأيدي تَقاذفُها … مسٌّ من الداء أو حَزْبٌ من الغِيَر

ورب أمنيَّة في نفس صاحبها … عذراء تنفض عِطف الحسن والخفر

ماتت كمَوْءُودة في كفّ قاتلها … يَتُلُّها لجبيني ناعم نَفِر

ما نأكل الزاد أعلاثاً لِمَسْغَبَةٍ … لكن تركناه ترك الصائف الحذر

لا تحسبي أنني جانبت ذا خطر … وأي شيء من الأشياء ذو خطر؟

قد استوى [الكل] مهما كان مختلفاً … إذا تناولته بالذهن والنظر

فلا تلومى! فحظي حظ مرتحل … نزر المقام، وقد أعجلتُ في سفرى

[مكة]

حسين سرحان

المستعين بالله ... الكابتن هاردى

حين اشتدت وطأة الغارات على العاصمة ، إبان الحرب ، وأحسسنا سحائب الهم والفزع تنعقد فى سماء حياتنا ، وتوترت الأعصاب أيما توتر ، فكر فريق منا أن يهجر القاهرة إلى بعض الأماكن النائية يطلب فيها الطمأنينة والأمن ، فكنت أحد السباقين إلى الهجرة .

وقضيت فى الضيعة بضعة أشهر ، أتتبع أخبار الغارات فى الصحف ، وأتلقط أحاديثها من الأفواه ... وكلما علمت أن غارة روعت سكان القاهرة أو الإسكندرية وكان لها آثار وخيمة ، حمدت الله الذى وفقنى إلى المبادرة بسكنى الضيعة لأباعد بينى وبين منطقة الخطر ، فأكون منه بمنجاة .

ولكنى على الرغم من هذه الطمأنينة السابغة وجدت فى قلبى دبيب السأم يتزايد ، وجعلت أشعر بضيق من تلك الوحدة القاسية ومما يحيط بى من بيئة جديدة علىّ فقدت فيها كثيراً من ألوان الرفاهية ، ونأيت فيها عن كثير من مظاهر حياتى الاجتماعية التى ألفتها .

وبينما كنت فى رونق الضحى أجلس فى شرفة الدار الريفية التى نزلت بها ، أغالب الوحدة وأنفى عن نفسى الملل بتصفح مجموعة من الأقاصيص ، إذ أقبل علىّ الخادم برزمة البريد ، فتلقفتها منه فى شغف ، وانكببت على الصحف ألتهم أنباء الغارات ، فإذا الحالة تزداد سوءاً على سوء ، فانقبضت نفسى ، ونحيت الصحف عنى ، وانصرفت إلى الرسائل فجعلت أقلبها بين يدى ، فاسترعى انتباهى منها رسالة راعتنى بغرابة خطها ، كأن كاتبها تلميذ مجتهد يحاول أن يظهر براعته فى حسن الخط . ولبثت أتأمل العنوان هنيهة ، ثم التمعت عينى ، وهمهمت : أممكن هذا ؟

وفضضت الغلاف متعجلا ، ثم بسطت الرسالة ، وما إن وقع بصرى على

الإمضاء حتى ابتسمت ، وبان لى أن ظنى لم يخب ، ورحت أقرأ :

« أيهذا الصديق العزيز

سلامى إليك طيب عطر ، ثم أحمد إليك الله جلت قدرته ، وأنهى إليك أنى نزيل مصر منذ أشهر . وقد شهقت إلى رؤيتك نفسى ، فطلبتك فى الهاتف مرات ، وما حظيت مرة إلا بهذا الجواب المتكرر : أنت فى معزلك ، أو بالحرى فى مهربك . وإذ طال تنظرى لك على غير طائل استخرت الله فى أن يطالعك منى كتاب ، وإنى مخبرك بمقامى فى الحسين ، وامتداد إقامتى فترة . فإذا فككت عن نفسك إسارها ، ورأيت عودا إلى قاهرة المعز ، فزرنى بدارى « مغنى الرشيد » نتناول أقداحاً من الشاى الذكى ، ونتذاكر أحاديث الماضى الحبيب . ولتكن على ثقة بأننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان . فلا تهولنك الأخطار ، وأقبل شجاعاً غير هائب ، والله راعيك .

أخوك المستعين بالله ، هاردى — كابتن بالجيش »

وطافت برأسى شتى الذكريات . . . المستعين بالله . . . المستر هاردى . . . بل الكابتن هاردى . . . صديقى المستشرق الإنجليزى المسلم ، الذى عرفته متحمساً للشرق وللإسلام أكثر منا نحن الشرقيين المسلمين . . .

وتوضحت لى على الفور صورة ذلك الصديق الكريم : قامة مبسوطة ، ووجه مستطيل مشرق ، وبشرة وردية ناضرة ، وعينان زرقاوان يروعان بصفائهما الشفاف ، وصوت هادئ خافت يلقى بكلماته فى تباطؤ وتنسيق ، يصمت بين الكلمة والكلمة كأنه يتخيرها من معجم فى رأسه ، ولهجة عربية تبين فيها فصاحة اللفظ ولكنها لا تخلو من عجمة محببة .

وتوالت الذكريات والصور . . . حىّ الحسين . . . جولاتنا فى أسواقه نبتاع الطُّرف والتحف ، وجلساتنا فى نواديه نحتسى الشاى الأخضر . . . وكان من عادة صديقى أن يتسمع فى هذه النوادى إلى الجلاس من مختلف الطوائف ، ويتصيد الألفاظ الغريبة فيقيدها فى دفتره الذى بليت أوراقه من طول الطىّ والنشر ، وتشابكت سطوره من تكرار الزيادة والتعليق . . . وداره ، ذلك المبنى الصغير الذى أطلق عليه اسم « الرشيد » تبهرك منه السذاجة والطابع

الشرق الجميل . . . وكان الصديق يتخذ هذه الدار مثابة كلما قدم مصر فى العام بعد الأعوام . وأقرب عهدى به كان منذ أربع سنين ، ثم انقطعت عنى أخباره حتى خلت أنه ليس إلى عودته من سبيل .

وقمت أذرع الشرفة جيئة وذهاباً والرسالة فى يمينى . وقد هاجت فى نفسى عاطفة الذكرى لأيام رقاق قضيتها ناعم البال خلىّ الفؤاد . ورنوت إلى الرسالة ، فوقعت عينى على قول الصديق : « إننا مقبلون على أيام طمأنينة وأمان » . وما كدت أخطو خطوتين إلى مقعدى ، حتى أخذت عينى عنوانات على جبين الصحف تلفت النظر ، فيها بيان لما أحدثته الغارات من خسارة فى الأموال والأرواح . فقذفت بهذه الصحف مغيظاً وهممت : شد ما يغلون فى رواية الأخبار !

وصحت منادياً الخادم فقلت له على الفور : احزم حقائبى . . . سنرحل مبكرين إلى القاهرة .

فقال لى مأخوذاً : والغارات يا سيدى ؟

— أتحسب أننا هنا ناجون من الأخطار ؟ الأعمار بيد الله .

وفى أصيل غدى ، كنت أغادر دارى فى القاهرة آخذاً طريقى إلى حىّ الحسين ... ووقفت عن كثب من دار الصديق أتطلع إليها ، فألفيتها كما عهدت : الباب ذو المطرقة النحاسية ، وذلك اللوح المكتوب عليه بالخط الكوفىّ : « مَغْنَى الرشيد » . فأخذت بالمطرقة أدق الباب كما يفعل الطارق فى العصور الوسطى . . . وانفتحت من أعلى الباب طاقة أطل منها رأس « مسرور » خادم الكابتن الخاص ، فما لمحنى حتى انفرجت شفتاه عن ابتسامته الأنيسة ، وحيانى متلطفاً ، ثم شدّ حبل الباب ، فانفتحت مغاليقه ، فدفعت بخطاى داخلا ، فإذا الفناء الصغير كما عهدته رطباً مظلماً يظلله عريش كوم عتيق . وجزت بتلك النافورة الساذجة وماؤها يقرقر كأنه يحيي القادم تحية الاستقبال .

ودلفنا إلى الدهليز الضيق تتدلى منه بعض قناديل ملونة ترسل أضواء محتشمة هادئة . . . وقبل أن أصل إلى بهو الضيافة ظهر شبح صديقى المستشرق ، وقد بسط لى ذراعيه فتعانقنا عناق الود والمصافاة . وأخذ صديقى بيدى فسايرته إلى البهو ، وهو يخب فى عباءته الحريرية الهفهافة وقبائه الزاهى ، وذلك الخف الأحمر يخفق به على الأرض خفقات هينة كأنها همس أطياف . . . واسترعى انتباهى فى

نظرا أنى إلى الصديق هزاله وامتقاعه ، ومشيه متوكئاً على عصا يظلع بعض الظلع . . . ودخلنا البهو ، فجلسنا على الحشايا متقاربَيْن ، وصاح صديقى قائلا وقد ضرب كتفى بيده : ما قولك فى أنى عثرت فى مجريط على مخطوطة ديوان ابن زريق وقد استنقذتها من بين خرائب الحرب الأهلية ؟

فقلت دهشاً : ما أندرها تحفة ! ألا تمتعنى بالنظر إليها ؟

فزوى ما بين عينيه ، وسرح بفكره ، ثم همهم : تركتها فى دارى بلندن . . . ولا أدرى ما هو حظها من كوارث الغارات هنالك ؟

فهززت رأسى أسفاً ، ثم قلت له : أما تاح لك أن تنقل بعض النقوش الأثرية الباقية فى أسبانيا من عهود الحضارة الإسلامية فى الأندلس ؟

وكنت أعلم أن لصديقى باعاً واسعاً فى الرسم والتصوير ، فقال لى وهو على حاله منشرح الخاطر : لدىّ طرائف ولطائف استطعت أن أنقلها رسماً وتصويراً ، وهى الآن رهينة أقدار الغارات فى خزانة كتبى بلندن .

ثم صمت لُحَيْظَةً ، وقال : حينما جُنِّدت لخدمة الجيش ، ونقلت إلى القاهرة ، لم أستطع أن أحمل معى شيئاً من كتب أو مذكرات أو صور . . . جئت هذه المرة أحمل الحديد والنار !

وسمعته يصيح بخادمه « مسرور » : علينا بالشاى .

فقلت له : إنى لأعجب لك كيف تتكلم عن الحرب والضرب وما أراك إلا كسابق عهدك فى مَغْنَى الرشيد تتقلب فى أحلام الشرق الهائمة . . . وها هو ذا « مسرور » ما زال قائماً بخدمتك !

فابتسم ابتسامة سانحة وقال : أنا فى إجازة مرضية ، أقضى فترة النقه بعد علاجى من جراح أصابتنى .

ثم أشار إلى موضع فى ساقه ، وواصل حديثه يقول : لقد أرادونى على أن أنزل الجيزة أو حلوان ، فقلت لهم دعونى أستجم فى حىّ الحسين أنشق عبير الراحة فى مغنى الرشيد ، وأملأ سمعى كل انبلاج فجر بسماع الأذان يهز نفسى هزًّا ويرنح أعطافى طربا .

ثم ابتسم ابتسامة وضيئة رحيبة ، وقال : ما أجمل أن يقضى الإنسان عمره فى ذلك الجو الساحر ، جو ألف ليلة وليلة . . . إنى لأشعر بأنى أعيش حقًّا !

وعلا بصدره يملأ رئتيه بالهواء ، فتناولت مسبحة كانت منا عن كثب ،

وطفقت أعبث بحباتها وأنا أحدق فيها ، ثم قلت خافت النبرات : ولكنى أرى أن شيئاً ينقصك . . .

— أى شىء ؟

فتباطأت هنيهة ، ثم قلت وأنا بالمسبحة أعبث : ينقصك شهر زاد !

ورفعت عينى إليه ، فألفيته يصعد نظره فى عرض الحجرة صامتاً ، وهو يتكلف ابتسامة شاحبة ثم جمجم : شهر زاد ؟ ويحك من مهذار ! . . . أنّى لى بشهر زاد هذه ؟

وغشينا الصمت برهة ، ثم استأنف يقول وقد تزايلت ابتسامته فى صوت متخافت كأنه آت من مكان سحيق : شهر زاد ؟ . . . إنها بعيدة . . . بعيدة كل البعد !

وأردت أن أتبين ما يعنيه وما يحاول أن يخفيه ، فابتدرنا « مسرور » قادماً بصينية الشاى يتخطر بجسمه المتكتل الضخم وعمامته الطويلة التى تكاد تلامس السقف ، فوضع الشاى بين أيدينا وانصرف يزلزل الحجرة بخطواته الثقال . . . وصبّ صديقى الكابتن الشاى فى الأقداح ، وأخذنا نحتسى على مهل ، ونحن فى صمت كأننا فى شغل بالشراب ! . . . وجعلت أنقل بصرى فى الحجرة أتفحص ما حوت ، فوقعت عينى على صورة لم أكن قد لاحظت وجودها ، صورة وجه نسوىّ . . . ليس بالوجه المكتمل ، وإنما هو عينان دعجاوان ينبسط تحتهما خمار أسود رقيق النسج يكاد يكشف عن ملامح وسمات . فنهضت إلى الرسم أتوسمه مليًّا ، وقد خلبتنى هاتان العينان بحورهما الساحر وأهدابهما الوطاف ... ورجعت إلى مجلسى ، فاحتسيت جرعة من قدح الشاى وأنا أقول : صورة رائعة ، لقد تجلت براعتك فى التصوير ياصديقى . . . !

— أترى ذلك ؟

— أمن وحى الخيال هى أم من عالم الواقع ؟

فصمت متشاغلا بصب الشاى ، ثم قال مهمهما : من وحى الخيال .

— ألم تستلهم بعض السمات من نموذج حىّ ؟

— قلت لك من وحى الخيال .

وشرد ذهنه كأنه يتحرز من متابعة الحديث ، فأقبلت على قدحى أشرب منه ، وقد خيم علينا الصمت بعض الوقت . فقلت أصل ما انقطع من الكلام .

ظننت أن شهر زاد تعوزك فى « مغنى الرشيد » فإذا هى تحتل منه أعز مكان !

فأطلق ضحكةً غامضة ، وقال وهو يتلاعب بملعقة فى يده : لا وقت عندى لشهر زاد يا صديقى المهذار !

— كيف تنفق يومك ؟

فجمع إليه ما انتشر من قبائه ، ثم نزع قلنسوته ، وأخذ يسوّى شعره الأملس ويقول : إنى أستجم ، لا أبرح الدار إلا فى الندرة .

— ألا تملّ هذا النمط من الحياة ؟

— إذا شعرت بحاجة إلى التسلية فعندى « مسرور » يفكهنى بنوادره اللطاف . وقد أخرج ليلاً فى ضوء القمر أطوف بالمساجد ، ثم أعود إلى الدار مقبلاً على المطالعة .

— وماذا تقرأ ؟

— أراجع نصوص شعر العباس بن الأحنف ... إنه زادى كله فى هذه الأيام .

— مالك ولهذا الشاعر ؟ إن ديوانه ينفح وجداً وصبابة !

فسرح صديقى بصره لحظة أمامه ، وقال : إنى لأقرؤه لسهولته وعذوبة شاعريته ، لا لوجده وصبابته ، فما لى بالحب شأن .

— ومعجمك الأحمر ، كيف حاله ؟

فسنحت على ثغره ابتسامة وهمهم : تقصد الشيخ جاد الرب أستاذى ... إنه بخير .

— عجيب أن أسألك أنت ضيف مصر عن رجل تجمع بينى وبينه مدينة واحدة . . . أتصدق أنى لم أره منذ زرته معك آخر مرة كنت أنت فيها بمصر ! أعلى حاله هو ، لم يجدّ فى شأنه جديد ؟

فأخذ صديقى يعيد القلنسوة إلى رأسه ، ويحكم وضعها على فوديه ، متمهلاً فى عمله ، مطيلاً لوقته ، ثم قال منحرف البصر عنى : إنه كما تعهد ، لم يحدث له شئ ذو بال ، إلا ما كان من أمر تافه . . .

— ماذا ؟

— زواجه . . .

— عجباً . . . أيتزوج وهو شيخ فإنه نصف بصير نصف سميع نصف حىّ ؟

— هذا ما وقع .

— من تكون تلك التى رماها به القدر ؟

— نور العين . . . ربيبته !

— الطفلة الغريرة التى كنا نضيق ذرعاً بعابثاتها ؟ . . .

— أحسبتها تظل طفلة أبد الدهر ؟ لقد غدت فتاة يافعة ، إنها تستقبل عامها السابع عشر . . .

— ألم يذرِّف الشيخ على السبعين ؟

— لا بأس . . . لقد كفلها طفلة ، وألف أن تتعهده بالخدمة ، ولم يكن يقيم فى البيت سواها ، فلما قاربت طور الشباب لم يجد الشيخ بدًّا من أن يبنى بهـا ، فهو كما تعلم حريص على أن يصحح دينه ويبرئ عرضه . . .

واسترخى صديقى فى مجلسه ، وأشعل غليونه ، وراح ينفث الدخان وئيداً مسبل الجفنين .

وعادت الذكريات تطوف برأسى ، ولاحت لى مشاهد من زياراتى قديماً لبيت الشيخ فى صحبة الصديق المستشرق ، إذ كان يقرأ عليه بعض الـكتب ، ويدرس معه بعض النصوص .

كنا ندلف إلى حجرة الشيخ الغبراء المعتمة ، فنجده غريقاً بين كتبه ، تشرف عليها عمـامته الحمراء الضخمة ، رمزه العتيد الذى لا يتزايل عنه مهما جد من أحداث ومهما تعاقب من أجواء . . . ولا نكاد نطمئن فى مجلسنا إليه حتى يصفق بيدين هزيلتين ، صائحاً بصوته المختنق : القهوة يا نور . . .

وما هى إلا أن تحضر « نور العين » حاملة صينية عليها إبريق تحف به أقداح بلدية وموقد يتوهج فيه الجمر وتتعالى منه سحائب البخور ، ثم تتربع عن كثب من الشيخ وتبدأ فى صب القهوة ، وتقديم الأقداح مرة بعـد مرة . . . وهى صبية سمراء فوارة العينين مراحا وحيوية ، كثيراً ما كانت تختلس إلينا النظر ونحن عاكفون على الدرس بين قارئ ومستمع . فإذا آنست من أحدنا غرة رمته بحبات اللب أو الفول السودانى وهى تخفى بين طيات خمارها الأسود ما يغلبها من الضحك ، وتتشاغل بإذكاء الجمر أو ملء الأقداح !

وبينا أنا فى فيض من هـذه الذكريات إذ تقابلت نظراتى ونظرات صديقى المستشرق وهو يتابع تدخينه ، فسمعته يقول همساً كمن يحـلم : ما كان أكثر معاكستها لنا !

وأمسكت عن الـكلام فترة أحدق فيه ، وقد راعنى أننا كنا أثناء صمتنا فى

رحلة على جناح الذكريات نسبح فى آفاق ماض حبيب ... ثم قلت : والآن، كيف هى ؟
— تكاد تكون فتاة أخرى غير التى نعرف .
وشغل صديقى بوضع الطبّاق فى غليونه وإشعاله . وفى هذه اللحظة قدم « مسرور » يرفع من بين أيدينـا صينية الشاى وهو يقول لسيده : أذكرك بالموعد . . . لقد أزف . . .
فقلت لصديقى على التو : أعلى موعد أنت ؟
— لا عليك . . . إن هى إلا زيارة غير محتومة لصديقنا المعجم الأحمر لبعض مطالعات يمكن إرجاؤها . . .
فنهضت قائلا له : بل تذهب لطيتك ، فإذا أذنت رافقتـك على مألوف العادة . . . إنها فرصة أغتنمها لتحية الشيخ ، فإنى لم ألقه منذ زمن مديد . . .
فقال وقد لمّ شعثه ناهضاً : يسعدنى أن تكون معى !
وتهيأنا لمبارحة القاعة . وفيما نحن منصرفان لاحظت أن صديقى يسترق النظر إلى الصورة المعلقة . . . ومضينا إلى الباب يخب صديقى فى قبائه ، ويكوّر على قلنسوته عمامة بيضاء أنيقة . . . وخرجنا نجتاز الدروب الملتوية نخوض فيها الظلام الذى كان طابع الحياة الليلية فى ذلك العهد ، ونحن صامتان نستبين الطريق فى محاذرة واحتراس . . . وبعد لأى بلغنا مأوى الشيخ ، فأخـذ صديقى يقرع الباب هنيهة ، فانفرج مصراعه كأنما تحركه يد ساحر ، ودلفنا إلى دهليز تطـارد ظلامه فلول من الضوء يبعثها قنديل منكمش خزيان . وفيما نحن نعانى وحشة المكان إذ فاجأتنا سعلة هزيلة متصلة الحلقات صاحبت خطانا تؤنسنا حتى باب الحجرة وقد انفتح منه جانب يتسلل خلفه ضوء شحيح وتهب منه رائحة التبغ . وصفق صديقى السكابتن تصفيقة خاصة ، فسمعنا صوتا متداعى النبرات يقول : أهلاً وسهلاً . . .
فدخلنا القاعة ، فإذا هى هى فى غبرتها وضيقها وحلوكتها . . . كومات من الكتب تتراءى وسطها عمامة ضخمة حمراء تبتلع وجهاً معروقاً ضئيلاً أكثره لحية شعثاء . . . ودنوت من الشيخ أذكره بنفسى ، فتناول يدى وأبقاها بين يديه وهو يحملق فىّ بعين كليلة محمرة تجردت من الأهداب ، وقال فى صوت لم يصفُ بعد من بقايا تلك السعلة الكريهة : أهلا بصديقنا الهارب . . . أكذلك تنسانا دهرا ؟

فقلت وأنا أشد على يده : حقاً غبت عنك طويلا ، ولكن عذرى فى ذلك ما أحاط بى من مشاغل ومهام . . .

— ألم تستكمل بعد دراستك لشاعر المعرة أبى العلاء المعرى ؟

— ماذا يستطيع أن يفعل ذلك الفيلسوف الحكيم فى وقت رُوِّعت فيه النفوس واضطربت الحياة ؟

فهمهم صديقى الكابتن وقد اقتعد حشيته القديمة فى مكانه المألوف : إن أبا العلاء ينتظر زوال الحرب ليخرج من مخبئه ، وينفض التراب عن لحيته !

فقال الشيخ متضاحكاً : أخشى أن يستبد النوم بأبى العلاء فى محابسه ، فلا نستطيع إيقاظه بعد . . . طالما رغبت إلى صديقنا أن يذكى همته لإنجاز تلك الدراسة ، ولكنه يتمادى فى تكاسله .

فقلت وقد اقتعدت حشيتى المعهودة بجوار كومة من الكتب : سأستمع لنصحك . . . ادع الله لى أن أوفق !

وصفق الشيخ تصفيقته المتراخية ، وصاح ما وسعه جهده بصوت خشيت ألا يبلغ عتبة الباب : القهوة يا نور . . .

وجذب من جانب حشيته كتاباً أبلاه الطى والنشر ، ثم قال لصديقى الكابتن : لنبدأ من حيث وقفنا أمس .

وانطلق يتحدث عن شاعرية العباس بن الأحنف وغزله ، مستشهداً بمقطعات رقاق يحفظها له ، فكنا نسمع مأخوذين بطلاوة حديثه ، ودقة بحثه . وبينا نحن فى نشوة السماع ، إذ أحسست حفيف ثوب ، فأرسلت نظرة خفية نحو مصدر الحفيف ، فطالعتنى على الفور عينان دعجاوان تحتهما لثام أسود هفهاف ، فشعرت بهزة تنتظمنى ، وألفيتنى أختلس النظر إلى الكابتن ، فوجدته مطأطىء الرأس ، يعبث بأطراف عباءته . . .

وقصدت «نور العين» مجلسها عن كثب من الشيخ كما كانت تفعل ، ووضعت الصينية بإبريقها وأقداحها ومجمرتها يتطاير منها عبق البخور . ثم شرعت تصب القهوة وتوزعها علينا قدحاً بعد قدح ، والشيخ ماض فى حديث العباس ابن الأحنف ينشد من رقائق غزلياته وهو يتابع أنفاسه فى جهد يستدر الإشفاق . وعلى الرغم من روعة حديث الشيخ لم أكن أوالى الإنصات له ، إذ كنت فى الفينة بعد الفينة أرسل النظر إلى هاتين العينين الدعجاوين اللتين يخفق دونهما

الخمار الهفهاف ، فيخيل إلىّ أنهما عينان معلقتان فى الفضاء لا يتصل بهما وجه ولا جسد . . . نبعان عميقان يزخران بالأسرار الغامضة ويفيضان بالأحلام العِذاب . . . ولم أكن أغفل عن مسارقة النظر إلى صديقى الكابتن ، فما رأيته إلا متجمعاً مسترخياً فى جلسته يعتمد ذقنه بيده فى إطراق وكأنه فى غيبوبة روحية يهيم فى آفاق مترامية ! . . .

وترادفت اللحظات ، ونحن فى هذه الدنيا الغريبة : صديقى مسترسل فى حلمه السحرى يكاد لا يفيق ، وأنا فى جلستى أدير النظر حولى فى هوادة واسترخاء ، وهاتان العينان المعلقتان فى الفضاء كأنهما نجمان يحاولان بلألائهما أن يفضيا إلينا فى جنح الليل بكنه الحياة . وهذا الصوت الذى يردده الشيخ يبدو كأنه همهمة أشباح تنبعث إلينا من مكان سحيق .

وبغتة أفقت من غفوتى على ضربة أوقعها الشيخ على كتاب أمامه ، وهو يقول : أليس مما يدعو إلى إكبار هذا الشاعر الفذ أنه عاش حياته للحب ، ووقف شاعريته على الحب ، ومات وفيًّا صفيًّا للحب ؟ .

ما أروع قوله :

سلبتنى من السرور ثياباً	وكستنى من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل باباً	فتحت لى إلى المنية بابا
عذبينى بشىء سوى الصـ	ـدّ فما ذقت كالصدود عذابا

فقلت : لم يكن العباس إلا قلباً يخفق صبابة ، وروحاً تشفّ نقاء !

فسمعت صديقى الكابتن يهمهم ، وهو على حاله مطرق : ما أعظم فداء هذا الشاعر الفذ فى سبيل حبه وقلبه !

واستأنف الشيخ يروى من شعر العباس فى نغمة متساوقة ، وأحسست الثوب يتحرك ، وإذا بالعينين المعلقتين فى الفضاء تأخذان طريقهما إلى الباب ، وإذا بالكابتن يعلو بهامته يشيّع الشبح الغارب بنظرات خاطفة . . . وغابت « نور العين » عنا كما قدمت ، لم نحس لها من حركة ولم نسمع من صوت ، كأنما هى طيف هبط علينا حيناً ، ثم تزايل عائداً إلى عالمه المستور !

ولم يطل مكوثنا بعد ، فنهض صديقى يستأذن شيخه ، ويضرب له موعد اجتماعهما القادم ، وتركنا الدار لندخل تلك المتاهة من الدروب الملتوية

والحارات المستغلقة السابحة فى عباب الظلمات . وكنا نلتمس الطريق كأننا نسير مدفوعين بهدى الفطرة ، ونحن صامتان ، كلانا محلق فى أخيلته ، مشغول بعالمه . . . وتمادينا فى الصمت ، وكان الهواء حبيساً كثيفاً زاد من وطأة الوحشة ، فأحسست الحاجة إلى الاستئناس بحديث الرفيق فى الطريق ، وكأنه شعر بمثل ما شعرت به ، فأخذ يضغط يدى ويلاطفها ، كأنه يستعيض بذلك عن الكلام . . . وتبين لنا أننا خرجنا من المتاهة إلى شبه ساحة لم يتوضح لنا من معالمها إلا مآذن تشرئب بقاماتها المشوقة إلى العلاء ، كأنها تحاول أن تتخلص من عالم الظلام والصمت واحتباس الهواء !.. ووقف صديقى يحدق فى تلك المآذن السامقة وقد شغفت قلبه ، وإذا بصوت حلو النغم يشق ذلك السكون منشداً :

كيف أسلو ومقلتى كلما لا ... ح بريق تلفتت للقاكا
كل من فى حماك يهواك لكن ... أنا وحدى بكل من فى حماكا

وجعل الصوت يرجّع فى نشيده ، ونحن إليه بقلبينا نهفو مستمتعَيْن بعذوبة الإنشاد ، ثم تزايل الصوت وئيداً يطويه السكون والظلام . . .

وخيل إلىّ أن المآذن كأن هاماتها تتضاءل وتقصر ، وألفيت نفسى وصديقى نتحرك عائدين إلى المتاهة نضرب فى الحارات والدروب . . . وعاد الصمت يلقى علينا أثقاله ، وأنفاس الهواء تزداد احتباساً وكثافة ، والظلمات يتراكم بعضها فوق بعض طبقات ، ويد صديقى تلتمس يدى وتضغطها بين حين وحين .

ووصلنا إلى « مغنى الرشيد » فاجتزنا الباب ، ودخلنا البهو المعهود ، وجلس كل منا إلى حشية نواجه معاً صورة العينين ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف . ولبثنا فترة موصولة أعيننا بهاتين العينين ؛ وهمست قائلا : فى هاتين العينين تجمعت معان من الطراوة والاستكانة والفتور !

فقال لى صديقى الكابتن فى صوت هادئ النبرات : إنهما عينان لطيف بعيد . . . بعيد غاية البعد . . . ليس إلى الوصول إليه من سبيل !

وهنا أسبل جفنيه وكأنى به قد أسلم نفسه لسلطان الكرى .

وكنت أزور الصديق المستشرق فى الفينة بعد الفينة ما واتتنى الفرص ، وكان يؤسفنى أنى لست بمستطيع أن أجيبه إلى ما يطلب من تواصل الزيارات ، إذ كان يحس أنه فى حاجة إلىّ . فى حاجة إلى من يأتنس بوجوده فى دنياه التى

اختارها لنفسه ، دنيا الحيرة والوحدة ، وإلى من يفضى إليه بما يضيق به صدره من سر دفين . . . ولكنه على الرغم من ذلك كله لم يكن لينفس عن نفسه بكلمة ، ولا يفتح صدره عن مكنون ، بل كان حيران فى صمته المضطرب ، لا يزيد إذا اشتدت به الحال على أن يضغط يدى ويلاطفها فى حنو ورفق .

ولم يجدّ فى برنامج حياتنا جديد : جلساتنا الهادئة فى « مَغْنَى الرشيد » ترعانا هاتان العينان ينبسط تحتهما الخمار الأسود الهفهاف ، وزوراتنا لذلك المعجم الأحمر نستمع إلى ثرثرته الفياضة فى شعر العباس بن الأحنف ، حيث تقبل علينا « نور العين » بخفيف ثوبها حاملة صينية القهوة عليها الإبريق والأقداح والمجمرة الطيبة الشذا .

ومرة خرجت وصديقى فى نزهتنا الليلية ، فقصدنا الساحة ذات المآذن السامقة ، نرعى السماء وقد تناثرت فيها النجوم المتألقة ؛ وبينما نحن واقفان فى صمتنا وعيوننا موصولة بالأفق البعيد إذ بنجم يهوى محترقاً وقد سطع بريقه سطوعاً يخطف البصر ، ثم ما لبث أن ابتلعته غياهب الظلمات . . . فقال صديقى وهو فى وقفته منطلع النظرات : ما كان أشد توهج ذلك النجم وهو يلقى بنفسه فى أحضان الليل البهيم ! . . . إنى لأحس بذلك الليل وقد بسط للنجم ذراعيه ليضمه إلى صدره ضمة الأم الرءوم ! . . . إن علماء الفلك ومن إليهم سيقولون فى مثل هذا النجم إن انفجاراً حدث فيه أو إن اختلالا وقع فى نظام الجاذبية ، فكان أن تهاوى النجم محترقاً وأدركه الفناء . . . ولكن لم حدث الانفجار ؟ لم وقع الاختلال ؟ لا يدرى أحد ، وما كان النجم ليدرى ذلك المصير . إنه أحس دفعة واحدة بتزلزل فى كيانه أعقبه اشتعال ففناء . . . ليس فى الوجود شىء بقادر على أن يحمى ذلك النجم مما أصابه . . . ثمة يد خفية تدير الكائنات لا تسمو إلى إدراكها العقول والأفهام ... ألسنا مسيَّرين فى هذا الكون لا مخيَّرين ؟.. علينا أن نذعن لما يمليه القدر بلا مكابرة ولا عناد !

ثم أخذ بيدى ، فسرنا الهُوَيْنَى ، وتابع صديقى قوله : أليست أعمر مرحلة فى حياة هذا النجم وأعظمها هى تلك اللحظات التى احترق فيها ، فوهب كل ما اختزن فى قلبه من حرارة وضياء ؟ إن ملايين السنين التى قضاها من حياته فى مسبح الفلك لتعد تافهة زريَّة إذا قيست بهذه اللحظات التى عاشها وهو يهوى محترقاً فى الفضاء ! . . . ما أجلها متعة وما أروعها حياة ! . . . شبيه بهذا

النجم إنسان يظل عمره جامد الحس بارده ، خابى الوجدان راكده ، وما هو إلا أن تنبعث فى أعماقه شرارة الانفجار فيلتهب باهر الضـوء خاطف البريق . . . لحظات يقضيها تحفل بمتعة الدنيا الخالصة ويكمن فيها سر الحياة الحقة لا يعدلها شىء فى الوجود !

ثم غشيه الصمت ، فلم تنفرج شفتاه عن حرف ، كأنه يخشى أن يتسلل من بينهما سر كمين .

وتعاقبت الأيام ... ولاحظت على صديقى أنه لايزور الشيخ إلا لماما ، وأن شحوبه يتزايد ، وانطواءه على نفسه يتواصل ، وأن ذلك البركان الذى يحنى عليه ضلوعه يحتدم مضطرماً فلا يجد له من متنفّس ... وكان صديقى إذا اشتدت به كربته خرج إلى تطواف بعيد الشقة تكلّ منه الأقدام ، حتى لقد تتغلغل فى رحاب الصحراء ونكاد نتيه فى شعابها الموحشة . وقد يتفق لنا أن نجوز بدار المعجم الأحمر ، فأرى الصديق يخفف من خطاه ويسير كأنه يطوف بأرجاء معبد أو مزار . وقد يرفع عينيه قليلا إلى حيث نوافذ المنزل يَنْضَحُ منها ضوء هزيل . ثم يحث خطاه إلى مغناه وقـد بلغ به الجهد كل مبلغ فيلقى بجسده المتخاذل على الفراش !

ولما هالنى اشتداد الأمر به ، اقترحت عليه أن يستبدل بداره مسكناً فى حىّ آخر ينقله إلى بيئة جديدة وأسلوب من العيش جديد ، فقال لى : أتريد أن تسلبنى ما أنعم به مما بقى لى من أيام إجازتى فى هذا الفردوس ؟

فصحت به : أهذا تسميه فردوساً ؟ إنه الجحيم المستعرة ... إنك تذوب وتحترق على عجل !

فابتسم لى وهو يشد على يدى ثم قال : لـكل منا تفسيره لمعنى الجنة والنار .

وأطرق برأسه وقتاً ثم قال : إنى أذوب حقـًا وأحترق ، ولـكن الإنسان فى بوتقة الانصهار تبرأ نفسه من النفايات ، ولا يبقى منها إلا الجوهر الخالص . . .

وقصدت دار صديقى يوماً ، إذ كنت معه على موعد لقاء لزيارة شيخه المعجم الأحمر ، فقال لى : أنا اليوم مجهود ، فلتبق معى فى الدار لا نبرحها ...

واتخذ كلانا مقعده على الحشايا ، ونحن نتناول الشاى وندخن . وكان أول ما استرعى نظرى أنى وجدت مكان الصورة خالياً منها ، فالتفت إليه على الفور أقول : أين شهرزادك ؟

فابتسم ابتسامة أسى كظيم ، وغمغم : لقد اختفت ... استردها عالم الروح .. ألم أقل لك من قبل إنها طيف من الأطياف ؟ !

فلت عليه قائلا : زدنى إيضاحاً ... ما هذه الأحاجى ؟

فرنا إلىّ بعينيه الصافية الزرقة ، وظل وقتاً لا يتكلم ، ثم قال وقد ازورّ ببصره عنى : ألك فى أن تقرأ فصلا من رسائل إخوان الصفا ؟ انتهت إلىّ مخطوطة نادرة لبعض هذه الرسائل ...

فصعّدت فيه بصرى فترة ، وقلت : وأين ابن الأحنف ؟

فرمى بنظره فى عرض الحجرة ، وقال : طويته ... فرغت منه !

— وهل يُطوَى حديث الحب والغزل ؟

فأجابنى وهو على حاله مشرّد النظرات : متى كان فى مقدورك أن تطوى حديث الحب والغزل فافعل تحسن صنعا ...

وألفيته يستخرج مخطوطة الرسائل ، وأقبل يقرأ جَهْوَرِىّ الصوت ، باذلاً أكبر الجهد فى التفهّم والتمعن والاستخلاص . وألفيتنى أشاركه فى الدرس وأساجله الرأى . ومكثنا فيما نحن فيه كبير وقت ، وكان وجه صديقى يزداد احتقانا وعيناه يتوضح فيهما الجهد والكلال ؛ وإذا برأسه يترنح رويدا ، ثم يسترخى على الحائط خلفه مطبق الجفنين ...

وتوالت أيام ، وأنا أجد صديقى تنتقل به الحال من سيّئ إلى أسوأ ، فقد لبث رهين الدار لا يبارحها فى عشية أو غداة ، وعكف على رسائل إخوان الصفا يتعمقها أدق تعمق ويعنت نفسه فيها أبلغ إعنات ، وكأنه يريد ذلك لنفسه عن قصد ...

ولاحظت أنه كلما طاف بذهنى شأن الصورة ذات العينين الدعجاوين والحمار الهفهاف ، وحاولت أن أطارح صديقى الحديث فيها ، أراه — وكأنه فطن إلى ما يدور بخلدى — يأخذ علىّ السبيل ، ويشغلنى بأحاديث مختلفات تطوّح بنا بعيداً عن ذلك الحديث ...

وطالت فترات صمته وإطراقه ، وتبين فى جسمه الضنى والنحول ، حتى لقد رأيت أصابعه تلازمها الرعشة حين تمتد لأخذ كتاب أو تناول قدح ... فأدركتنى رحمة لصديقى وإشفاق عليه مما حلّ به ، فأمسكت بيديه وقلت له فى عزم وتأكيد : لا أرضى لك هذه الحياة ... لقد صح عزمى على خطة فى شأنك ...

سأحضر بعد غد لأنقلك إلى مسكن آخر ، رضيت أو أبَيْت . . . نستطيع أن نسافر إلى الضيعة أو نقيم أياما فى إحدى الضواحى الطيبة الهواء . . .

فلم يعقب على كلامى بشىء ، ولم يزد على أن ربَّت يدى ملاطفاً ، وهو يبعث إلىّ بابتسامة مستغلقة زادتنى حيرة إلى حيرة ...

وفى اليوم الموعود ، وفدت على « مَغْنى الرشيد » وقد انتويت أن أنفذ عزمى على نقل الصديق إلى مسكن آخر . وما كدت أقارب الدهليز ، حتى أقبل علىّ «مسرور» يزحم الممرّ بجسمه المتكتّل وعمامته الطويلة التى تناطح السقف ، وقال لى مبادراً : لك عندى رسالة من سيدى الكابتن ...

وأخرج الرسالة من نطاقه ، ودفع بها إلىّ ، ففضضتها على الأثر ، وقرأت :

« صديقى الكريم

كان من مُقْتَرَحِك علىّ أن أستبدل بمثابتى مثابة أخرى ، فلم ينفتح لى من الرأى إلا أن أختار حومة القتال ؛ فربما أقدرنى الله على أن أقوم هنالك بعمل ذى جدوى . سأذكر لك كرم صحبتك ، وأشكر لك صفو مودتك ... هل يسمح الدهر بأن نلتقى يوماً ؟

محبك المخلص المستعين بالله »

وبارحت الدار والرسالة فى يدى وأنا فى موجة من الذهول والأسى ، دون أن أبادل «مسرورا» أى لفظ . .

ومضى شهر لم أعلم من نبأ صديقى شيئاً كثر أو قلّ ...

وبينما أنا يوماً فى مكتبى منصرف إلى بعض عملى إذ دق التليفون ، فإذا المتكلم على ما بدا لى جندىّ هندىّ يبلغنى رسالة مقتضبة يدعونى فيها إلى زيارة مستشفى الجيش البريطانى بالجيزة ... وما كدت أضع السماعة حتى خفق قلبى خفقة وَلَهٍ وجزع ، ونهضت من فورى عجلا إلى ذلك المستشفى ، فلما بلغته ، واتخذت إجراءات الإذن بالدخول ، ذهب بى الحارس إلى حجرة الانتظار ، وكانت صغيرة بيضاء الأثاث بيضاء الطلاء ، تطل نوافذها على مروج وحقول . وكنت قلقا لا يستقر بى المقام ، أذرع الحجرة تارة وأقف أمام النافذة تارة أخرى ... وبعد وقت دخل علىّ ممرض طلق المحيا أبيض الحلة يلتمع نظافة

وأناقة ، وقال : صديقك ينتظرك ... أرجو ألا تطيل زيارتك ... لقد اجريت له حديثاً عملية جراحية ذات خطر .

وخطونا إلى حجرة المريض ، فإذا هى حجرة مسدلة الأستار يشيع فيها الدفء ، وفى ركن منها سرير تبينت بين أغطيته ومفارشه وجهاً بالغ الشحوب شديد الامتقاع ... وجها لم يكن بالغريب علىّ ... وتقدمت مضطرب الخَطْو ، فقابلتنى العينان الزرقاوان وقد زيدتا صفاء حتى ليكاد الناظر يستشف خلفهما طيف تلك الروح الوادعة الحنون ... وتخايلت على ثغر الصديق ابتسامة رفيقة ، واضطربت شفتاه بصوت مهزول راعش :

— لقد سمح الدهر أن نلتقى !

ولا أدرى على وجه التحقيق بأى كلام أجبت ، ولكنى أذكر أنه استل يده من بين الملاحف ، وأخذ بيدى يشد عليها ، فشعرت بكفه مقرورة غير متماسكة .

ووقفت صامتاً أحاول أن أكسب وجهى مظاهر الرضا والاطمئنان ، حتى أخفى عن صديقى ما راعنى من حاله .

وبعد قليل ترك يدى ، وراح يتحسس بأنامله طيات وسادته ، فإذا به قد أخرج صورة صغيرة يحتويها إطار أنيق ، ثم راح يتوسمها لحظات ... ورأيته يسبل جفنيه ، وتتراخى يده ، فانحدرت الصورة منها حتى استقرت على موضع قلبه ... فاختلست النظر إليها فإذا هى عينان دعجاوان ينبسط تحتهما خمار أسود هفهاف ... !

وخيل إلىّ أن هاتين العينين الحالمتين ، ، وهما ترنوان إلىّ ، كانتا نديتين تتحير فيهما قطرات من دموع !

محمود محمود

محنتان متشابهتان

خلق القرآن عند المسلمين ، تجسد المسيح عند المسيحيين

وحدة التطور التاريخى نظرية خلابة أخذ بها بعض المفكرين المحدثين وأنكرها البعض الآخر[1] وأشهر من تعمق فى بحثها إلى أبعد حد ، المفكر الألمانى سبنجلر ، وأسرف فى إثبات نواحيها المتشعبة فى كتابه الضخم « اضمحلال الغرب » . وهو كتاب خطير على مافيه من غموض وتعسف وإسراف . ولا يستطيع الإنسان أن يتجاهل نظريات مفكر يرى قبل الحرب العالمية الأولى أن الدين الجديد الذى يقوم فى العصور الحديثة ، يقوم فى روسيا ، ويتحقق ذلك بعد بضع سنين عند قيام الشيوعية ، ويرى أن عظمة باريس ولندن ستزول وتحل محلهما موسكو ونيويورك ، وكل ذلك عنده نتيجة حتمية لتطور المدنيات المختلفة ، وأن هناك تطوراً واحداً كان لا بد أن تخضع له الحوادث فى الماضى ولابد أن تخضع له الحوادث فى المستقبل .

وليس لمثلى وقد نشأ على دراسة الظواهر البيولوجية إلا أن يؤمن بصدق هذه النظرية . فالجنس البشرى وأجزاؤه التى تتكون منها المدنيات المختلفة والأمم المتباينة ، كل هؤلاء كائنات حية تتبع قوانين التطور العامة . والناس كلهم شاهدوا من قديم أوجه الشبه بين الكائنات الحية ولكنهم لم يدركوا كنه هذا التشابه قبل أن تتبين للعلماء نظريات التطور . وكذلك أدرك الناس قديماً أن التاريخ يعيد نفسه ، ولكنهم لم يفهموا أن التشابه بين الحوادث التاريخية ليس تكراراً ولا عفواً ، ولكنه تحقيق لقوانين التطور الحيوى .

---

(١) أنكر فيشر فى مقدمة كتابه « تاريخ أوربا » أن يكون للتاريخ سير معين أو قوانين ثابتة فهو يرى أنه هو شخصياً لم توهب له القدرة على رؤية نظام معين يسير عليه تطور التاريخ وأنه لا يرى فى التاريخ إلا مناسبات تقوم عليها ظروف تؤدى إلى وقوع الحوادث التى نشهدها .

وقد لا يتسع المقام الآن لشرح ما يدعونى إلى الإيمان بهذه النظرية ولا إلى إظهار الانقلاب الكبير فى التفكير الإنسانى لو أخذ بها جمهور المفكرين ، وتبينوا أن الاتجاه العام للتاريخ لا سبيل إلى تغييره ، وأن الحوادث الفردية لا تؤثر فيه إلا أثراً محليًّا مؤقتاً ، وأنه مثلا لم يكن بد من هزيمة ألمانيا فى هذه الحرب ، ولو قدر لها أن تنتصر بقنبلة ذرية لكان ذلك خطأ فى التاريخ كما تخطىء الطبيعة ، فتكون الكائنات المشوهة كما ادعى سبنجلر أن النصر فى موقعة اكتيوم كان خطأ فى تطور التاريخ ، وكان يجب أن تنتصر كلوباترا .

ومما يدعو إلى إثبات هذا الرأى أن توجد حوادث متباينة كل التباين وهى مع ذلك متشابهة جدًّا فى تطورها . ولم أجد حادثتين تثبتان وحدة التطور مثل محنة خلق القرآن عند المسلمين ، ومحنة التجسد عند المسيحيين ، فرأيت أن أعرضهما على القراء ليروا مظهراً من مظاهر هذه الوحدة .

ودفعنى إلى ذلك أيضاً أن مؤرخى العرب مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من المؤرخين القدماء كانوا يظنون أنهم مركز الكون كله وأنهم وحدهم المسرح الأول للتاريخ ، ولم يحاولوا أن يربطوا تاريخهم بتاريخ غيرهم . بل إنا لنجد المحدثين من المؤرخين المصريين لم يحاولوا بعد أن يقربوا بين تاريخنا وتاريخ الأمم الأخرى الحديثة والقديمة . ولو آمن الناس بوحدة التطور التاريخى عن علم واطمئنان لزالت الوحشة بين المدنيات المتباينة وبين الشرق والغرب مثلا ، ولسهل على الناس أن يلتقوا فى صعيد واحد حين يعلمون أنهم كانوا يسيرون فى طريق واحد .

قليل من المسلمين من سمع بالجدل حول تجسد المسيح ، وقليل من المسيحيين من سمع بالخلاف حول خلق القرآن . على أن كلا الفريقين حين يدرسون هاتين المحنتين سيدهشون حقًّا للتشابه التام بينهما ، وسيرون أن الطبيعة البشرية واحدة فى تطور عقائدها ومظاهر إيمانها . وكلا المحنتين أبعد عن التفكير الحديث من أن يثير البحث فيهما عند المؤمنين من المسلمين أو المسيحيين أى أثر يزعج إيمانهم أو يمس شعورهم بحال ما .

وإليكم أوجه الشبه من الناحيتين الفكرية والسياسية .

فمن الناحية الفكرية نرى أن عقيدة المؤمنين الأولين من المسلمين والمسيحيين كانت تتمثل فى الإيمان الطاهر النقى البسيط الذى لا يشوبه التفكير الدقيق فى مظاهر هذا الإيمان ، ثم لم يلبث الناس أن بحثوا فى هذا الإيمان وحكموا المنطق

والعقل وتفلسفوا ، ولكن إيمانهم كان لا يزال قويًّا فلم يؤد بهم البحث إلى الكفر ، وإنما التمسوا الهداية عن طريق التأويل . وتبين بعد قليل أن بعض هذا الإيمان يجب أن يضحى حفظاً لقدسية البعض الآخر ، وهنا بدأت تنشأ الطوائف المختلفة .

١ — رأى كبار الأتقياء والعلماء المخلصون ومعهم الجمهور أن مما يمس قداسة القرآن أن يقال إنه مخلوق ، ورأوا أنه لم يرد على ذلك نص فلم يستطيعوا القول به ، وكان موقفاً سلبيًّا غاظ أعداءهم أهل المنطق والكلام . وأنكر هؤلاء المؤمنون أن يكون لعلم الكلام دخل فى مثل هذا البحث . . . وخشوا على أنفسهم أن يؤدى بهم الجدل إلى الانزلاق فى المروق عن إيمانهم الذى يعتزون به ، وأنه ما دام النص الصريح لم يرد عن النبى ولا عن الصحابة بأن القرآن مخلوق فالقول به جرأة على العقيدة الصحيحة .

وكذلك كان بين المسيحيين من يؤمن إيماناً صادقاً بأن الاتحاد بين ثانى الثالوث وبين نفس إنسانية وجسم بشرى كان اتحاداً حقيقيًّا دائما ، وكان ذلك هو الرأى الشائع بين المسيحيين حتى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وكان تقديس مريم من أهم ظواهر الإيمان الصحيح .

٢ — الفريق الثانى هم الذين حكموا العقل مع الإيمان ، وهم المعتزلة عند المسلمين هالهم أن يشركوا مع الله شيئاً فى قدمه ، وكانوا يرون أن القول بقدم القرآن يتنافى مع التنزيه الواجب لله على كل مسلم ، وأن الآيات التى يخالف ظاهرها التوحيد المطلق يجب أن تؤول وأن القول بغير ذلك شرك بالله .

كذلك كان عند المسيحيين من رأى أنه لا يليق بالإله أن يكون قد أقام تسعة أشهر فى جسم مريم وأن يكون خرج من أحشائها كما يخرج الناس ، وأبى الأتقياء أن يتصوروا الطهارة الإلهية قابعة فى جسم آدمى غير طاهر ، ولم يؤمنوا بأن الله الذى يشمل العالم يمكن أن يحد من نفسه فى جسم مريم ، وهالهم أن يكون الله قد عذب وصلب أو أن علمه كان يشوبه الجهل ، وأزعجهم أن يكون مبعث الروح والأبدية لقى حتفه فوق جبل كالفارى .

رأى هؤلاء أن يفرقوا بين طبيعتى المسيح ، واختلفوا فى ذلك شيعاً ، فمنهم من آمن بأن المسيح رجل عادى وإن كان خير بنى آدم فاختاره الله ليهدى الناس لعبادته ، فلما عمده يحيى فى نهر الأردن حلت فيه روح ابن الله على هيئة روح

القدس فى صورة حمامة ، فلما سلمه الحاكم الرومانى إلى اليهود تركته هذه الروح العالية يتألم ويعذَّب ويصلب .

ومنهم من قال بأن جسم المسيح ليس كالأجسام ، وأنه كان يأكل مع الحواريين دون أن يجوع أو يعطش ، فهو فوق العيوب الجسدية ؛ فالشكل والمادة كلاهما إلهى ، أما الرهبان المصريون فتمسكوا بأن الهيئة إلهية إنسانية ، لما ورد فى التوراة من أن الله خلق الانسان على هيئته .

٣ — فريق رأوا واجباً عليهم أن يبتعدوا كل البعد عن هذه الآراء المارقة فأسرفوا فى تقديس القرآن حتى قالوا إن نطقنا به قديم وأن حروفه قديمة ، وهو شطط لا يسوّغه إلا شدة الرغبة فى مقاومة الآراء المارقة .

ومن المسيحيين من أنكر أن المسيح ولد وكبر ، ومنهم من لم يؤمن بما جاء فى الانجيل عن تاريخه قبل رسالته ، ويقولون إن ما رآه الحواريون لم يكن إلا شبحاً جعله الله القادر على كل شىء فى صورة إنسان ليلقى إلى الناس تعاليمه ، وإن تاريخ رسالة المسيح كان تمثيلا على مسرح بيت المقدس لمصلحة الناس . واعترض عليهم أن مثل هذا الخداع لا يليق بالواحد القهار ، ولكنهم كانوا يرون كما رأى كثيرون بعدهم أن الخداع لهداية الناس مباح .

٤ — فريق رأى أن كلام الله يجب أن يطلق على شيئين مختلفين كما هو الشأن فى كلام الناس : الكلام النفسى وهو القائم بذاته وهو الأزلى القديم ، أما القرآن المكتوب المقروء فهو حادث بلا شك .

ويقابل هؤلاء عند المسيحيين من كانوا يؤمنون بفصل السيد المسيح الانسان عن ربهم عيسى ، وكانوا يحترمون مريم على أنها أم المسيح ، وكان يؤذيهم أن تسمى أم الله ، وحذّر أحد البطارقة الناس أن يسموها كذلك وقالوا تلك كلمة لم يعرفها الحواريون ولا التابعون ولم توافق عليها الكنيسة ، وإنها قد تضل البسطاء وتسر غير المؤمنين ، وهى بالضبط نفس الأسباب التى حرم من أجلها المحدثون النطق بخلق القرآن .

واشتد الجدل بين هذه الفرق ، وكان كل فريق يبالغ فى جدله إلى حد معين ثم يزعجه أن يجد نفسه مسوقا إلى القول بما يخشى معه الكفر ، فأصبح الجدل بين المسلمين منحصراً فى القول بأن القرآن مخلوق أو مجعول ، وقتل الناس للفرق بين هذين اللفظين .

وعند المسيحيين انتهى الجـدل إلى هل المسيح من طبيعتين أو فى طبيعتين ، وقتل الناس للفرق بين حرفى الجر اللذين لا يستطيع الانسان فى هذا العصر أن يجد من الفرق بينهما ما يسوّغ هذا العداء الحاد . ثم قرر المجمع الرابع أن المسيح واحد وفى طبيعتين ، وبذلك وضع رجال الـكنيسة الحد الفاصل بين الحق والباطل وبين الـكفر والإيمان وإن كان هذا الفرق أحد من السيف [1] .

أما من الناحية السياسية فأوجه الشبه واضحة :

١ — حاجة الداعين إلى عقيدة معينة إلى استعمال القوة السياسية بحمل الناس على الإيمان بها . فالمأمون أخذ على نفسه وهو صاحب الأمر أن يدعو الناس إلى القول بأن القرآن مخلوق حادث ، وحمل ولاته على أن يجمعوا الناس ويمتحنوهم فمن قال بخلق القرآن فقد ثبت إيمانه وصحت شهادته ، ومن لم يقل بذلك فهو مارق لا تصح شهادته لزيغ عقيدته . ثم اشتد المأمون فى استعمال القوة فرأى أن من لم يقل بخلق القرآن فهو مرتد ويحل قتله ، وأمر ولاته أن يمتحنوا الناس فمن لم يقل بقوله ضربت عنقه .

أما عند المسيحيين فلم يبدأ الإمبراطور بحمل الناس على عقيدة معينة فى أول الأمر ، ولـكن البطارقة فى القسطنطينية والاسكندرية كانت لهم قوة سياسية كبيرة رأوا استغلالها فى حمل الناس على الإيمان الصحيح ، فكان القديس كيرولس بطريق الاسكندرية يحكمها فى الواقع وكان يستخدم عماله فى الضغط على الحكام المدنيين وطرد اليهود من المدينة لـكفرهم ، وذبح أتباعه فتاة كانت تعلّم الفلسفة فى الاسكندرية وسلخوا لحمها عن عظامها بقطعة من المحار داخل الـكنيسة .

أما نسطورس بطريق القسطنطينية فقد استمد قوته من الإمبراطور فقال له عند توليه الحـكم أعطنى الأرض خالية من الـكفار وأنا أعطيك مملـكة السماء ، وبعد خمسة أيام أحرق ديراً لمخالفيه فى العقيدة .

٢ — سرعان ما انقلب الخلاف الدينى البحت إلى خلاف على النفوذ الدنيوى . فمثلا غضب الواثق على أحمد بن نصر ودعا إلى قتاله لقوله بخلق القرآن ، وإن كان كثيرون يرون أن سبب ذلك أكثره يرجع إلى ثورة أحمد بن نصر وخروجه عن الطاعة .

---

(١) أكثر هذا منقول حرفيا عن كتاب ضحى الاسلام الجزء الثالث وعن كتاب جيبون اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية فى الفصل السابع والأربعين .

أما عن المسيحيين فقد صارت الغايات الدنيوية واضحة جداً فى كل أدوار الخلاف وتدخل رجال قصر الإمبراطور فى المعركة واشتركت فيها أسرة الإمبراطور ينصرون إحدى العقائد اليوم وينصرون الأخرى غداً ، ولم يأنف القديس كيرولس نفسه أن يستخدم الذهب فى ترجيح رأيه على رأى عدوه بل قبل على نفسه أن يعلن فى غموض وعلى مضض ازدواج طبيعة المسيح (وهو ما لم يكن يؤمن به) ليتمكن من حمل الإمبراطور على الانتقام من عدوه .

٣ — أصبح الجمهور المؤمن الساذج عاملا قوياً فى النزاع فى الحالتين ، فكان نفوذ عامة الشعب عند المسلمين فى جانب المحدثين والسنيين ، ووجدوا بطلهم المنشود فى أحمد بن حنبل لصلابته واتجهت أنظار رجال الدولة إليه ، ولم يستطع المعتصم أن يقتله كما قتل غيره لالتفاف الناس حوله ، ولو قتله لكانت فتنة واضطر إلى إخراجه من السجن بعد أن ضرب وعذب لأن الناس اجتمعوا حوله وضجوا حتى خاف السلطان ، ولعله أعجب هو أيضاً بشجاعته وثباته .

وكان للجمهور عند المسيحيين دور حاسم جداً فى هذا النزاع الدينى ، وكان أكثر الناس مخلصين للعذراء لا يريدون أن يعتنقوا مذهباً ينقص من مجدها . وواضح أن التعمق فى بحث طبيعة المسيح لا يوافق بساطة إيمان الجماهير ، فصاحوا فى مجمع أفيسيوس الثانى أن من قسم المسيح فليقسمه الله ولتمزق أعضاؤه وليحرق حيًّا .

ومن غرائب المصادفات أن يلجأ المأمون إلى تجريح مخالفيه أمام الجمهور فيقول عن أحدهم إنه كان يسرق الطعام بالأنبار ، وعن آخر إنه مشغول بأكل الربا عن الوقوف على حقائق التوحيد .

وأن يلجأ رجال الدين فى أحد المجامع المقدسة إلى أن ينسبوا إلى رجال الدين من مخالفيهم أموراً مخجلة ، فقالوا عن أحدهم إن له عشيقة ، وأن بيته كان مفتوحاً للعاهرات وتوسلوا بذلك إلى عزله ونفيه .

٤ — سياسة المجامع وعقدها لحسم النزاع بالمناقشة ، وحدث فى كلتا الحالتين أن أصبحت قرارات هذه المجامع خاضعة للقوة : قوة السلطان تارة ، وقوة الجماهير والأتباع تارة أخرى .

فالمأمون دعا وجوه المحدثين مخالفيه فى الرأى وأمرهم أن يقولوا بقوله ، وقد وافقوه على ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا السلطان وخاصة أن العقل

والحجة كانت فى جانبه . وهذه الحادثة فتّت فى عضد المحدثين والعامة وأحزنتهم ونعى أحمد بن حنبل على من وافقوا المأمون على رأيه هذا الخضوع للسلطان ، وكان يقول إنهم لو خالفوه حينذاك لنامت الفتنة قبل أن تستفحل .

أما إمبراطور القسطنطينية فقد دعا إلى مجامع كثيرة وتاريخ هذه المجامع طويل . والذى يهمنا منه الآن هو أن أقوى أسلحة المناقشة فى هذه المجامع لم تكن للحجة والاقتناع ، وإنما كانت للقوة والمال وعدد الأتباع . ووقعت حوادث عنيفة جداً فى هذه المجامع التى وصفت بعد بأنها مقدسة ، فحدث فى مجمع أفيسيوس الثانى أن بطريق الاسكندرية شتم زميله بطريق القسطنطينية ورفسه وضربه ضرباً أدى إلى موته بعد أيام ، وأحاط الجنود بالقسس الحاضرين فهرب هؤلاء تحت الكراسى ووراء المنبر ووضعوا إمضاءاتهم على أوراق بيضاء ملئت بعد ذلك بالطعن على بطريق الاسكندرية .

٥ — كان لموت الأمراء أثر ظاهر فى تاريخ الحركتين . فلما مات الواثق وبويع للمتوكل لم يتحمس للقول بخلق القرآن ولم يحمل الناس عليه ونامت الفتنة ، وقيل للفريقين إن كان قد وسع النبى والصحابة أن يسكتوا عن ذلك فهلا وسعكما وسعهم .

وحدث أن وقع الإمبراطور من فوق فرسه ومات ، فتغيرت الحال وانقلب المهزومون إلى منصورين وغالى هؤلاء فى الانتقام من أعدائهم وساموهم سوء العذاب على ما ارتكبوا حين كان السلطان معهم . وقال الإمبراطور الله يشهد أنه غير مسئول عن هذه الفوضى ، وحمل بذلك المتخاصمين كيرولس ويوحنا صاحب أنطاكية على التصافح فتصالحا خشية وحذراً لا عن التسامح القلبى الذى تدعو إليه المسيحية .

وكذلك حدث عند المسلمين عند ما انتصر الحنابلة أن انتقموا لأنفسهم من المعتزلة وكالوا لهم بكيلهم وتمكنوا من الحكومة فأسرفوا فى حمل الناس على اتباع مبادئهم بالعنف .

هذا مجمل تاريخ محنتين متشابهتين فى أهم مظاهرهما ، وهو توافق فى الواقع غريب جداً حين نذكر أنه لا تكاد توجد بينهما علاقة تاريخية أصلا .

دكتور محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب

ذكريات

الآفاق الأوربية تتفتح لى

لما فوجئ العالم فى أوائل أغسطس من هذا العام (١٩٤٥) بالقنبلة الذرية وجد كثير من شبابنا « المتعلمين » أنهم محتاجون إلى أن يراجعوا حياتهم وأن يفتشوا أذهانهم كى يعرفوا موقفهم على هذا الكوكب. وقد اضطر كثير منهم إلى أن يغيروا الأوزان والقيم الثقافية التى كانوا يرتضونها من قبل وأن يستبدلوا بها قيما وأوزاناً أخرى. وقد أحدثت هذه القنبلة صدمة فى أذهان هؤلاء المتعلمين أؤكد أنها لا تقل فى قيمتها الروحية عن الصدمة المادية التى أحدثتها فى هيروشيما وناجازاكى فى اليابان.

أعرف من هؤلاء الشبان اثنين كلاهما يستمتع بمركز مالى حسن، كما أنه على اطلاع حسن بالتيارات الثقافية العصرية. وقد كان إلى أغسطس الماضى قانعاً بمعارفه وتطوراته الذهنية. ولكن هذه القنبلة كشفت له نفسه فجاءة. فقال لى واحد منهما: « أشتهى أن أعيش طويلا كى أتعلم وأعرف كثيراً عن تطورات العالم بعد ظهور هذه القنبلة ».

وقال الثانى: « إنى أحس كأنى أحتاج إلى تربية جديدة كاملة أولد بها من جديد أتعلم معارف جديدة وأقف على كنه هذه القنبلة وعواقبها الحربية والمدنية ».

وقد ذكرت مثل هذين الشابين كى أقول إنى فى ١٩٠٨ أحسست مثل هذا الوجدان، وضاقت نفسى إلى حد الانفجار. فقد وجدت من الأدب الذى نقله إلى العربية فرح أنطون ومن نظرية التطور التى دأب فى شرحها يعقوب صروف سنوات فى « المقتطف » إنى إزاء رؤيا أنا أعمى إلاّ عن بصيص منها، وإن هناك آفاقاً مغلقة يجب أن يكون همى واهتمامى فى حياتى أن أفتحها. وذلك بعد أن استقر عندى أن جهلى عميق، وأنى فى مصر أعيش فى حياة ذهنية صحراوية تقفر من التفكير الخصب. لذلك قررت وأنا فى التاسعة

عشرة أن أترك مصر وأرحل إلى أوربا كى أبحث عن الحياة وأربى نفسى وأولد من جديد . وكنت فى ذلك الموقف الذى وجدته فى أغسطس من ١٩٤٥ من ذينك الشابين الذين ذكرتهما ، وأحسست كأنى أريد أن أنسى ، عن ظهر قلب ، كل ما سبق أن تعلمت ، وأن أمسح لوحة ذهنى كى أنقش فيها المعـارف التى اختارها بنفسى .

وكان من حظى الحسن أن الناحية المالية بفضل ما ورثت من عقار صغير مغل ، لم تحوجنى قط إلى الاهتمام . ولم يكن الإسراف أو الاستهتار فى مزاجى . ولذلك لم أبال فى دراستى أن أعين هدفا بنية الارتزاق والكسب ، بل كان كل قصدى ونشاطى أن أستنير وأن أقشع هـذا الظلام المخيم على عقلى . وشرعت آخذ تربيتى فى يدىَّ وأن أعين برنامجى أو براجمى لا للدرس بل للحياة . بل الحق أن الدرس كان عندى هو الحياة ؛ لأنى شعرت أنى أعيش لأدرس وأنى أدرس لأعيش . ويبدو لى أنى أحسنت الاختيار فى هذا البرنامج ؛ لأنى أجد فى ١٩٤٥ أن همومى الثقافية لا تزال هى نفسها تلك الهموم التى كانت تشغل قلبى وذهنى فى ١٩٠٨ و١٩٠٩ . وإذا كان هناك تغيير فهو فى التوسع والتفرع فقط .

فى ١٩٠٨ سافرت إلى فرنسا وهبطت باريس :

شباب وفراغ وباريس . وأنا فى التاسعة عشرة . ولكن لا ! فان باريس عندى لم تكن مدينة الأنوار التى كان يحج إليها المصطافون ويجدون فيها ما يشتهون . لأن هذا الذى يشتهون قد وضع لهم وحدهم . إذ أن سواد الباريسيين يجهله . وباريس من حيث الانغماس الجنسى تعد من أنسك العواصم الأوربية . ثم كانت شهواتى الملتهبة فى تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية . وكانت الدهشة عندى على أعظم ما تكون حين وجدتنى فى مجتمع يخالف المجتمع الذى نشأت فيه فى مصر . ولم تكن دهشة منبهة بل كانت صدمة موقظة .

كنت فى مصر قبل ١٩٠٨ أعرف الحجاب وأرتضى شعائره ولا أجد غرابة أو عيباً فى التلميـذات الصغيرات يدخلن المدرسة السنية الابتدائية وعلى وجوههن براقع بيض . وكنت أجد الفصل بين الجنسين شيئاً مألوفا . والبيت فى مصر خدر كامل ونساؤنا مخدرات كاملات . ولا أكاد أذكر أن طيلة عمرى فى مصر قبل سفرى إلى فرنسا قد تحدثت إلى آنسة أو قعدت إلى سيدة أو فتحت عينى فى وجه امرأة مصرية . فلما وجدت المجتمع الباريسى واختلطت به

ورأيت فيــه المرأة الفرنسية على حريتها وصراحتها وطلاقتها شعرت أن أفقا جديداً يتفتح أمامى لم يستطع يعقوب صروف أو فرح أنطون أن يفتحه لى من قبل . فانهما لم يمسا هذا الموضوع ، أى حرية المرأة ، لسبب واضح وهو أنهما مسيحيان . وكانا بالطبع يخشيان أن يعاب عليهما النقد للعقائد أو التقاليد . ولم أكن قد عرفت قاسم أمين . ولا أدرى العلة لغيابه عن وجدانى فى ذلك الوقت . لذلك كنت حين أضطر إلى محادثة إحدى الباريسيات أحس ارتباكا يغمر كيانى فلا أجد اللعثمة فى لسانى فقط بل أيضاً فى سائر أعضائى . وقد احتجت إلى سنوات كثيرة حتى أتغلب على هذا الشعور المتعس الذى غرسته فى نفسى تسع عشرة سنة من الفصل بين الجنسين فى مصر .

وواضح أن هذا الشلل النفسى منع عاطفة الحب أو كظمها فى الوقت الذى كان يجب أن تنفرج فيه أو تتسامى . ذلك أن للحب فنـًا كنا نجهله نحن فى مصر فى تلك السنين . وكانت أية محاولة منى نحو التعارف الحميم بآنسة تنتهى بخيبة تكوى القلب والعقل معاً . وفى مصر فى وقتنا هذا من ينظر إلى الاختلاط بين الجنسين بعين المقت أو النفور . ولـكننى حين أقارن حالى سنة ١٩٠٩ وما كنت عليه من تعس حسى ووكس عاطفى بحال شبابنا الآن فى سرورهم ولهوهم أرانى مضطرًا إلى الاعتراف بأنهم سعداء يغبطون فى ظروف كنت أنا فيها شقيـًا يرثى لى .

وحبست نفسى فى مدرسة ابتدائية فى قرية قريبة من باريس تدعى موليرى من قرى القرون الوسطى . واندغمت فى عائلة ناظر المدرسة ، وشرعت أتعلم اللغة الفرنسية فى نشاط ومثابرة حتى نبزت بين المعلمين بعبارة « كيه فو دير سا » أى « ما المَـعْـنَى » وذلك لألحاحى على السؤال . ولم تمض أشهر حتى وجدتنى أقرأ الجريدة اليومية بل الـكتاب فى فهم وتعقل بمساعـدة المعلم . وكان انتفاعى بجرائد فرنسا اليومية عظيما لأنها وجهتنى فى السياسة وجهة عالمية كانت جرائدنا فى مصر فى ذلك الوقت تعجز عنها . وانقطعت صلتى بمصر باستثناء « الجريدة » التى كان يصدرها لطفى السيد وكان يلقن تعاليمه الجديدة : مصر للمصريين لا للأتراك ولا للانجليز . حرية المرأة . الحـكومة الدستورية بإيجاد برلمان . وكان يكتب فى هذه الشؤون وغيرها بأسلوب اقتصادى بعيد عن الزخارف التى كنا نتعلمها فى المدارس الثانوية ونحسب أنها قمة البلاغة وتاج الفصاحة . وقد عرفت أن مجلة المقتطف قد جمعت هذا العام (١٩٤٥) عـدداً كبيراً من مقالاته التى كتبها

بالجريدة فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٤ . والقارىء يستطيع أن يجد فى هذه المقالات ذلك التوجيه الوطنى الذى وجدته أنا فى تلك السنين منها.

وكانت المرأة الفرنسية ، كما قد عرف القارىء مما ذكرت ، أعظم ما حرك وجدانى الاجتماعى . بل كذلك كانت حرية المرأة فى أوربا الغربية . فان هذه الحرية كانت لهباً يلسع ويجرحنى فى كرامتى الوطنية كلما ذكرت حال المرأة المصرية. وإلى هذه السنوات وإلى هذا الوجدان تعود ثورتى بعد ذلك على التقاليد المصرية التى لم أعد أطيق صبراً عليها . وكثيراً ما فقدت صداقات كنت أحرص عليها لموقفى من هذه التقاليد . بل هناك من أصدقائى من يقول إنى فقدت مكاسب .

وبعد ذلك قرأت هنريك إبسن ودعوته إلى شخصية مستقلة للمرأة . ثم عرفت المنظمات والجمعيات النسوية التى كانت تطالب بحقوق الانتخاب والنيابة فى لندن . وامتلأ قلبى وذهنى نوراً وتفاؤلاً بمستقبل البشر .

وقد نشأت فى مصر فى وسط ريفى . ولذلك التفت إلى الريف فى فرنسا وتعلمت منه . فاننا فى مصر لا نرحل إلى الريف إلا مضطرين كارهين لأننا نتوقع الغبار فى السكك والإهمال الصحى فى المساكن . وريفنا فضلا عن هذا صحراء الروح لما يخيم عليه من جهل وفاقة وقذر كأنه الدنس . ولكن ريف فرنسا جنة العين . وكنت أجد السعادة العظمى فى فسحة أقضيها ماشيا على الطرق الزراعية التى يكسوها البلاط (وقتئذ) بين حقول تموج بحركة الحياة النامية فى البقول أو تزدان بالكروم وأشجار الفاكهة الزاكية . وما زلت أذكر أنى رأيت ذات مرة فى جولاتى هرماً أحمر أثار استطلاعى فقصدت إليه . فلما بلغته وجدته شجرة قد كساها التفاح الأحمر حتى كاد يخفى أوراقها . . .

والقرية الفرنسية ، مهما صغرت ، تحتوى كثيراً من المرافق الاجتماعية حتى لكأنها مدينة صغيرة . فإن فيها المطعم والحانة والفندق والسوق الأسبوعية . ولذلك كثيراً ما يقضى الباريسى أسبوعاً أو شهراً فى الريف كما يقضى أحدنا مثل هذه المدة فى الاسكندرية أو رأس البر .

وفى الحرب الكبرى الثانية أشار الماريشال بيتان شبهات وشكوكا بشأن المجتمع الفرنسى أوهمت كثيراً من القراء المصريين أن هذا المجتمع مريض قد تفككت فيه العائلة وتزعزع الإيمان . والواقع أن كل هذا وهم ؛ فإنه ليس فى

أوربا عائلة متماسكة كالعائلة الفرنسية . ولا يزال نظام هذه العائلة بطريركيا لا تخرج فيه السلطة عن الأب . وليس فى كل أوربا الغربية أمة تحترم الكنيسة كما يحترمها الفرنسيون . وحسب القارئ أن يعرف أن جميع الكنائس فى فرنسا ، وبعضها ينفرد فى ريف ناء ، تترك مفتوحة ليلا ونهاراً . ومع ذلك لا يسرق ما فيها من الأثاث الغالى الذى يقدر أحياناً بمئات أو ألوف الجنيهات . وهذا على الرغم من حرية الفكر المستفيضة . لا بل على الرغم من الدعايات النشيطة ضد الدين والكنيسة . وما زلت أذكر منظراً كان له أثر الصدمة الموجعة لأول شهر كنت فيه فى باريس فى ١٩٠٨ . فقد رأيت جنازة تسير فى أحد الشوارع تتقدمها راية قد كتب عليها « لا رب ولا سيد » .

ومثل هذا المنظر يوهم أن الأمة الفرنسية قد استفاض فيها الكفر والإلحاد . ولكن وقفة واحدة خارج الكنيسة أو داخلها يوم الأحد كانت تكذب هذا الوهم . فإن كاهن القرية هو الرئيس الروحى الذى يخاطب السكان بلهجة الآمر تحيط به هيبة التقاليد . والواقع أنه ليس فى أوربا كلها كنيسة حية كالكنيسة الفرنسية .

والحانة ، على الرغم من اسمها وشهرتها ، هى فى باريس والمدن والقرى مؤسسة اجتماعية للسمر بين الرجال أو بين الرجال والنساء . وكثيراً ما يجد فيها الزائر الطعام إلى جنب الشراب . ومع أن فى فرنسا آلاف الحانات ، ومع أن الأطفال يشربون الخمور ، فإنى لا أذكر أنى رأيت طيلة إقامتى فى فرنسا فى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ رجلا سكران . ولعل مرجع ذلك أن الفرنسى يأكل ويشرب ويسكن ويلبس ويعمل وله فى كل ذلك مأرب فنى يحمله على أن يتأنق فى معيشته . فهو يتجنب السكر عن تأنق وفن كما يجد فى التمالك كرامة ولياقة . والمائدة الفرنسية بأوانيها وزهورها ، هى متعة فنية كما هى لذة الذوق بمهارة طهاتها .

وبدهى أن لتماسك العائلة الفرنسية نتيجة هى أن فرنسا أقل أقطار العالم كله طلاقاً . وأن البيت الفرنسى يشبه فى كثير من الأحيان متحفاً يحوى كثيراً من التحف القديمة والطرف الغالية . والجيل الجديد يرث عن الجيل السابق تقاليد فى البيت هى الشعائر الاجتماعية التى يتعارف بها الأفراد كما يرث الأبناء تراث الآباء من أثاث مادى أو ذكريات روحية .

وتعلمت اللغة الفرنسية فى سرعة عجيبة . وقد هبطت وحدى بلا معونة على

طريقة، وجدت بعد ذلك أن المربين قد التفتوا إليها، هى أن الجملة، دون الكلمة، هى التى تحفظ وتستذكر. وحين كنت أزور باريس كنت على الدوام أعنى بحضور إحدى الدرامات. وقد أتيح لى أن أستمتع برؤية سارة برنار وهى تمثل «التُّسْتِير» ولكنها كانت فى كهولتها قد ذهبت عنها لمعة الشباب مع بقاء البراعة الفنية.

ودأبت فى قراءة الجرائد الفرنسية اليومية. وكانت تباع بأثمان التراب. وتعرفت إلى الأحزاب الفرنسية وشغفت بقراءة الأومانيتيه التى كانت تعبر عن الاشتراكيين. وكانت الاشتراكية رؤيا جديدة حملتنى على أن أذكر الطبقة الفقيرة فى مصر وأجعلها موضع إهتمامى. وأكسبتنى الجرائد الفرنسية العقلية السياسية الأوربية، واستطعت أن أفهم كثيراً فى ضوء المذهب الاشتراكى. وكانت جرائدنا فى مصر «محلية» قد أنهكها الكفاح للاستقلال وحال بينها وبين دراسة الشؤون العالمية. ولذلك انتفعت كثيراً بهذه النظرة الواسعة. وخاصة لأن إقامتى فى فرنسا صادفت تلك السنوات التى سبقت الحرب الكوكبية الأولى. فكانت الخمائر تختمر لمن يتشمم الأخبار ويتنسم الطوالع.

ومع أن اللغة الفرنسية هى لغة الافصاح والايماض، لغة الأدب الحر، ومع أن باريس بؤرة الآداب الأوربية بل مشعلة الثقافة التى تعشو إلى ضوئها عيون الأوربيين، ومع أن فرنسا لاتزال فى وجدانى فكرة أكثر مما هى قطر، فانى لاتجاهى العلمى وجدتنى فى مستقبل أيامى أميل إلى قراءة الكتب الانجليزيه وأوثرها على الفرنسية. لأن الانجليزية تعبر عن نزعة عملية تحقيقية كثيراً ما نجدها بعيدة أو غائبة عن المزاج الذهنى الفرنسى. ولذلك أعزو تربيتى الثقافية إلى الانجليزية أكثر مما أعزوها إلى الفرنسيه.

وإذا سألنى القارئ: هل وجدت فى الانجليزية أديباً له مرانة الفن ودقة الحس وإناقة التفكير وجمال التعبير مثل أناطول فرانس؟ فانى أجيب بلا. كما أنى أعترف أن هناك غير أناطول فرانس ممن أثمرتهم الثقافة الفرنسية ولا يوجد من يضارعهم من أدباء الانجليز أو الامريكيين. ولكن ميزة الكاتب الانجليزى، وأسمى كتاب الانجليز عندى هو برنارد شو، ميزته أنه يلصق بالحقائق، وله قدم ثابتة فى الأرض حتى حين يرتفع رأسه فوق السحاب. ومع أنى مازلت إلى الآن أوثر الجريدة الفرنسية فى القاهرة على الجريدة الانجليزية،

ولا أترك نزعة أدبية فرنسية تفوتنى ، فانى حين أحتاج إلى دراسة تطالبنى بالهرس والطحن أعمد إلى الكتب الانجليزية .

وفضل فرنسا علىّ أنها جعلتنى أوربى التفكير والنزعة . وقد تركت باريس فى نفسى إحساساً بأنها عاصمة العالم المتمدن . ولم يتركنى هذا الإحساس إلى الآن . بل إنى أرى من الحق أن نصف المصرى أو الألمانى أو الروسى أو الصينى الذى استشبع بالثقافة الفرنسية بأنه « فرنسى » كما كان يوصف سكان البحر المتوسط من الرومان والمصريين والمشارقة بأنهم « هلينيون » إذا استشبعوا بالثقافة الإغريقية ونزعوا النزعة الأثينية . لأن إغريقيا لم تكن وطناً جغرافيا للإغريق فقط بل كانت أيضاً وطنا ثقافيـًّا لغيرهم من أبناء الأمم المجاورة . وكذلك فرنسا ليست الآن وطناً جغرافيا للفرنسيين وحدهم ، وإنما هى وطن كل مثقف درس الثورة الفرنسية وأحب باسكال وروسو وعرف كلود برنار وأناطول فرانس . ولا يستطيع أحد أن يقول مثل هذا القول عن أى قطر آخر . لقد فتحت لى فرنسا الآفاق الأوربية التى لا تزال تنبسط أمامى فتكسب حياتى مغزى حتى حين أعيش فى وسط ليس له معنى فضلا عن مغزى . وأى عزاء أكبر من هذا ؟

سلامه موسى

CONTRE UNE TERREUR DES FAITS

RAYMOND GUERIN

مقاومة الذعر من الواقع

[أنشىء هذا البحث الممتع لمجلة « الكاتب المصرى » خاصة ونحن ننشره بالعربية قبل أن ينشر فى نصه الفرنسى ، ونرجو أن يعنى به الأدباء عامة والذين يشتغلون منهم بالقصص خاصة فقد يحملهم تدبره على أن يراجعوا بعض المذاهب فى إنشاء القصة وتصوير أشخاصها وعرض ما يجرى فيها من الأحداث] .

يزعم بعض المتطببين أن القصة سقيمة مريضة ؛ فهم ينحنون على فراشها ، يصطنعون فى مكر الرثاء لحالها ، ويقترحون لها علاج العجائز . وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك فيزعمون أن قُضى عليها ، ويعلنون إفلاسها ، ويتباحثون فى كيفية إنزال الضربة القاضية بها . بل يصلون أحياناً إلى دفنها حيّة دون أن يقفهم أقل استحياء . ويخيل إلينا أنهم يحاولون عبثاً . فالقصة التى يزعمون أنها تُحْتَضَرُ تنعم مع ذلك بصحة لا بأس بها . لهم أن ينقموا منها أو يسخروا ، أو يزدروا بل أن يضحكوا ، فهى على الرغم من ذلك كله تمضى قُدُماً غير حافلة ولا آبهة . تختلف عليها الصور والأشكال طوعاً للظروف ، ولكنها ، على ذلك ، فتية نشيطة ، خلابة جذابة . حتى أنه يمكن إن يقال إنها أصابت فى الأدب مكانة رفيعة ممتازة ، فصارت على مرّ السنين ، وعلى الرغم من جميع ألوان السخرية والاحتقار التى تعرضت لها ، الوسيلة الناجعة لتصوير الفكر الحديث وللتعبير عن الإحساس الحديث ، والقالب الفذّ الذى يَكْلَفُ رجل القرن العشرين كلفاً متزايداً فى أن يفرغ فيه حظه من الحياة وأهواءه وقلقه النفسى .

لذلك لايتحدث عن أزمة القصة إلا النقاد المتشائمون . أما القصاص أنفسهم فيسعون إليها كما تسعى مياه الأنهار إلى البحار . وأما القراء فلا يزورّون عنها

ولا يزهدون فيها ، إنما يلتمسون فيها مرآة تعكس حياتهم الخاصة ، وصوراً تعرض ما يعقدون من أمل وما يفقدون من رجاء ، ويجدون فيها الأحلام التي لم يحققوها أو تلك التي أشفقوا من أن يواجهوها ، ويلقون فيها أشخاصاً يدنون منهم في الشبه أو ينأون عنهم ، ويستعينون بها آخر الأمر على الاتصال بالعالم الذي يضطربون فيه والجماعة التي يحيون فيها .

إن الذين يقطعون بأن الإنسان مفطور على الشر ، وأنه لا يخلص من هذا الشر إلا بافتداء وهمي ، وكذلك الذين يقطعون مخلصين بأن الإنسان مفطور على الخير ، يوشكون أن تغمرهم جميعا الحيرة والدهشة أمام ما تصطنعه القصة لنفسها من حرية وجراءة . وسواء أكان الكاتب القصصي متبعاً أو مبتدعاً ، فهو يبتكر أشخاصاً وبيئات وأجواء ومناظر طبيعية وألواناً من النزاع والخصام . وهو إذا ألقى شباكه على العالم في مهارة وأبى أن تضلله المذاهب المقررة ، فسيشعر من غير شك أن الأشخاص الذين يبعث فيهم الحياة ليسوا أخياراً كل الخير ، ولا هم أشرار كل الشر حين يبينون عن غرائز جامحة ، ويذعنون لمقاييس خلقية تحسن أحياناً وتسوء أحياناً أخرى ، وأنه لا يمكن تحميلهم كل تبعة أعمالهم .

فلن يضيع الكاتب وقته في القضاء على هؤلاء الأفراد ، ولا في تحرير أثبات المتهمين ، ولا في الإحصاء والاستقصاء ، فضلاً عن تقريظ الذين يتراءون أخياراً أو لوم الذين يتراءون أشراراً ؛ إنما يُعنى أن يتبيّن لماذا وكيف يدفع الطموح — مهما يكن حسناً أو رديئا — أشخاص قصته إلى هذا التخالف الذي يجعلهم مقسمين بين المطلق والنسبي ، بين الحلم والعمل ، بين الخيال والواقع .

ومهما يكن الطعن الذي وجّه إلى القصة فليس هو شيئاً يذكر بالقياس إلى البُغض الذي تصبّه النفوس المريضة على « الواقع » . وعنف هذا البغض يصوّر ما لهذا الواقع من خطر . فكل فنان جادّ مقدّر لفنّه مضطر إلى أن يتخذ لنفسه موقفاً بإزاء الحقيقة الواقعة ، فهي قابلة لأن يقال فيها كل شيء إلا أن ينكر وجودها . فقد دلّت التجربة على أن الإسراف في لزوم الأصل كالإسراف في الابعاد في نقله إلى أفق آخر يقطعان الصلة الضرورية بين الفنان والعالم .

أما اصطناع الخيال ، فلا بأس به . ولكن بشرط أن يدعمه الواقع البيّن الذي لا مفرّ منه . هذا مالم يدركه إميل زولا ، ولا جان جيرودو . وأنا

أذكرهما على سبيل التمثيل للتطرف فى كل من الاتجاهين : الإذعان للواقع من ناحية ، والإبعاد فى نقله وتصويره من ناحية أخرى . فالأول انتهى الأمر به إلى أن انغمس فى المستنقعات اللفظية للمدرسة الطبيعية الكريهة الذوق . والثانى وصل إلى ابتداع عالم خيالى رائع من غير شك ، لكنه يَبْعد أشدّ البعد عن المعقول ؛ فأشخاص الظلال الرقيقة الرافهة التى يعرضها علينا لا حظ لها من ثقافة أو كيان أو حياة ، نشأت منذ مولدها هزيلة منتقصة ، تأثرت فى ذلك بتكلف المؤلف للاستقصاء وتصنّعه لعدم الاكتراث وتهاونه الأرستوقراطى . أحدهما عرض واقعاً مزيفاً ، والآخر عرض خيالاً محضاً . وكلاهما خضع لسلطان الأساطير بما تحتوى من إغراق أو تصنّع ، ومن ابتذال أو رقّة ، ومن إقذاع أو ترفع . لكن أين الحياة فى كل هذا ؟ مازلنا نسائل أنفسنا عن ذلك حتى اليوم . أين هذه الحياة التى يحتاج إليها الإنسان ليحيا ؟ أين هذه الحيوية النابضة التى هى جوهر وجوده ؟

قد تأتى على الناس جميعاً بلا شك أحيان يملؤها الأسى والتخاذل . وهم فى مثل هذه الأحيان يلتمسون فى الكتب معونة على أن يخلصوا من الشقاء والمشاغل والأتراح ، يريدون أن يحتسوا كأس النسيان ، أو أن يجترّوا خيبة آمالهم . يختلف هذا باختلاف أمزجتهم . هناك يقرءون زولا أو چيرودو .

وقصص الواقع الحديث العهد بالأدب ما عسى أن يكون موقفه من هذا النزاع ؟ لقد انغمست حياته انغماساً عنيفاً فى لجة الشدائد التى تلمّ به كل يوم ، وأذعن إذعاناً أليماً للتسلط القاسى الذى تفرضه عليه الهيئة الاجتماعية ومنشآتها ، وللأنظمة والظروف التى هُيئت للطبيعة الإنسانية . لذلك وُسم بهذه العوامل وسماً عميقاً . وعلى القارئ أن يقبله كما هو ؛ لأن الصيحة التى يبعثها والمداد المثقل الذى يخطّ به كتبه ، كل هذا يجده القارئ هو أيضا فى نفسه .

فالكاتب القصصى يرفض إذن حين يكتب أن يغلو فى الانسلال من الحياة الواقعية ، فيصل إلى العدم أو الإحالة . إنما يتخذ لنفسه منزلة وسطاً ، فلا هو بالحيوان ولا هو بالملاك ، على حد قول باسكال . ولا يفكر إلاّ فى أن يستوعب الحياة فى جميع مظاهرها ، ولو كلّفه ذلك اجتراء فى غير تردد ، أو الظهور بمظهر المتجاوز لحدود الفن . ولما كان قد اختار القصة ليُعرب بها عما يريد ، لأن القصة تمتاز ، على الرغم من كل شئ ، مما عداها من الوان الأدب بأنها اللون

الذى تتاح فيه الحرية ، واللون الذى يصبح الكاتب فيه فعلا صاحب السلطان الوحيد المسيطر على العالم الذى ينشئه وعلى أشخاصه وما يعرض لهم من أحداث ، وعلى شكله وحدوده ، وعلى كثافته واتساعه ، فإنه أزمَع أن يؤكد حقه فى أن يقول كل شىء وأن يصور كل شىء ، وأن يثبت رغبته فى أن يستعمل جميع الألفاظ وأن يواجه جميع الحوادث التى تشغل بها حياته أو تزدحم .

كتب مسيو بوالو فى أسلوب يخلو من الرشاقة : إنى أُسمى الهر هراً ، وأصف مسيو روليه بأنه خُدعة . وليغفر لى القراء هذه الصورة البيانية ، فلم يدفعنى إلى ذكرها ما لاقت من رواج كبير ، بل ذكرتها لأنها تحسن التعبير عما تعنى . مع هذا الفارق البسيط (فإن الجماعة المرائية تجيد الدفاع عن نفسها) وهو أن مسيو بوالو نفسه هو الذى كان ينبغى وصفه بالخدعة لو أن الحمق دفعه إلى الانتقال من الأقوال النظرية إلى العمل . والواقع أنه احتاط كل الاحتياط وامتنع عن ذلك ، كما نعلمه جميعاً . فقد كان رجلاً حذراً . نعم إن العصر لم يكن مهيئاً لثورة الكتاب ، إذ كان السلطان للمحافظة . ولكن ينبغى ألا نضلل أنفسنا ، فلم يتغير من الأمر شىء . وما زال قصص الواقع معرضاً حتى اليوم لأن تلحق به أشد الإهانات . ويحتمل أن نزوة من نزوات ذهن قصير تكون سبباً فى مصادرة كتبه والسخر منها والتشنيع عليها ، بل فى التشهير بالكاتب نفسه . على أنه يجب أن يكون معلوماً أن هذا الطغيان لن يقفه ، فهو مصر على أن يبلغ الغاية مهما يُقَم فى سبيله من عقاب .

إن القراء ، بوجه عام ، أشخاص طيعون . بمعنى أنهم لا يسرعون إلى الملل ولا يسرع الملل إليهم بقدر ما يسرع إلى المؤلفين ، من حيث الأساليب الممكنة للتعبير . وقد أُعرض الآن عن قصص الفروسية ، ولكن ما زال بينهم من يُقبل على أدب بلزاك ، ويعتبر بلزاك غاية الغايات . ولا يصد هؤلاء القراء عنه ما تنطوى عليه فلسفته فى الحياة من أسلوب نمطى ضيق ، أولى ، محدود الأفق بشكل شنيع .

وكل قيمة الإنسان فى رأى بلزاك (وفى رأى مقلديه) تتركز فى إرادته . أى إن بلزاك يغلو فى تقدير الأفعل . وهو بذلك يحد الممكنات الانسانية حداً

كبيراً ، وينتهى إلى أن يجعل من الإنسان، بل من كل إنسان ، سهماً غليظاً يريد أن ينطلق مباشرة نحو الهدف فى اتجاه محدد تحديداً دقيقاً ، سواء اعترض هذا السهم فى انطلاقه عائق أم لم يعترضه . والواقع أنه صوّر الإنسان على الشكل الذى سوّته عليه الهيئة الاجتماعية خلال القرون ، لا على الشكل الذى يحتمل أن يكون عليه إذا منح الفرصة لإنماء كل الملكات الكامنة فيه . وكان من تأثير بلزاك أن رأينا الإنسان فى صورة معينة محدّدة ؛ فهو هذا الرجل أو ذاك ، ولم نحاول أن نحرّره من هذه الخواص الموروثة لتهيأ له الفرصة فى أن يحيا حياة كاملة .

هذا التحديد هو الذى يحاول قصصى الواقع أن يثور عليه . ومن قبل ذلك ظهرت ثم استقرت مذاهب مختلفة فى التصوير والتعبير . منها مذهب التحليل النفسى غير الموجه (وهو مستقى من ستندال أودوستويفسكى) ، ومذهب افتقاد الزمن واسترداده (وهو مستقى من بروست) ، ومذهب التطويف الذهنى (وهو مستقى من جويس) ، ومذهب رمزية ما وراء الطبيعة (وهو مستقى من كيركيجارد ومن كافكا) . ولقد أثرى الأدب القصصى أثناء هذه السنين العشرين الأخيرة إثراء عظيما بفضل هذا الإمداد الجديد . ويستطيع أن يزيد ثراءه إذا أتيح لقصصى الواقع أن يواصل جهده الثورى . ولكن ماعسى أن نقول عن هذه الثورة ؟ فقد بقيت حتى الآن فى معامل الفكر والذهن ، ولم تشع فى جمهرة القراء إلا فى مشقة عظيمة . ولا أظننى أغضّ من هذا الجمهور إن قلت إنه لم يكتسب بعدُ سداد الرأى الذى يسمح له بإدراك مايقصد إليه قصصى الواقع . فمن أين جاءه قصوره عن متابعة هذه الحركة ؟

يخيل إلىّ أن هذا الجمهور إنما يضيق أكثر ما يضيق بما يعرض عليه من نصوص فيها جرأة وشدة ، وبما يرى من ازدراء قصص الواقع للتقاليد والمواضعات ، واستهانته بكل ما يمكن أن يناقض مبادئه الخاصة ؛ لأن هذا الجمهور مقصور على العالم الضيّق الذى هيئ له تهيئاً يكاد يكون محتوماً ، وهو لايريد أن يخرج منه . والأمر مع ذلك لايتصل بالواقعية ، أو على الاقل لايتصل بها كما كان يفهمها فلوبير أو ميرابو أو ديكنس أو تورجينييف . إنما يتصل بشئ آخر ، يتصل بتصوير الحق مع افتراض أن هذا الحق قد يتخذ كل الأشكال وقد يختلف باختلاف الأشخاص .

ومن الخطأ الذي كثيراً ما يقع فيه القارئ أن يندفع في غير تفكير إلى ما يقرأ ، إلى القصة التي تقص عليه ، إلى الدمى التي تنفخ الحياة فيها أمامه وله ، فيخيل إليه أن الكتاب حين يمعنون في وصف عالم رذل أو شخص بغيض إنما يدافعون عن هذا العالم أو عن هذا الشخص ويحاولون فرضهما وتمجيدهما . وهو مخطىء في ذلك ؛ فليس من الضروري أن يكون هذا الشخص وذلك العالم صورة لما يؤثره الكتاب في أعماق نفوسهم . فالكتاب حين يؤدون شهادة تطابق الحق مطابقة دقيقة لا يؤدونها على أنها مثال يحتذى ، إنما يكتفون بعرضها على القارئ ، وكأنما يقول له كل كاتب : انظر إلى هذه الصورة ، إنها تمثل الأشخاص والعالم والأهواء والطباع والهيئة الاجتماعية ، وليست بالشيء الجميل ! ولكني لا أعرضها عليك نماذج مثالية ، إنما أظهرك عليها لأحثك على اجتنابها ولأحث نفسي على اجتنابها ، ولأعينك وأعين نفسي على مقاومتها ، بل على تبديلها إن استطعنا .

فالفن عند قصصي الواقع ليس عكساً للصور ، ولا استيعاباً لها ولا تحويراً ، إنما هو يستغل العكس والاستيعاب والتحوير ليتعمق استقصاء الأشياء . ويبدو لأول وهلة أن هذا أصل من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إدراكه إلى ذكاء خاص . فلِمَ قلّ الذين يفقهونه ويعونه ؟ يرجع هذا أولاً إلى أن واقعية الأشياء تستند إلى وهم خطير . وهو وهم يحتفظ به في الأذهان عن قصد أو عن غير قصد .

فإذا جاز لنا أن نتحدث عن أوهام الواقع ، فإنما ذلك لأن هذا الواقع يعتمد على مجموعة من الظواهر تستمد جوهرها من الأساطير : فأساطير الشرف ، وأساطير الطهر ، وأساطير الأسرة ، وأساطير المنصب ، وأساطير المغامرة ، والأساطير العنصرية والدينية ، والأساطير السياسية والاجتماعية ، وأساطير « الرجل » . . . كل شيء أساطير منذ وجدت أذهان تفكر ، وألفاظ تعرب عن الأفكار ، وحوادث تبينها . أوَلاً تذكرنا الهيئة الاجتماعية وما يشتمل عليه نظامها من تركيب معقد بمجلس للآلهة يتسلط على الأفراد بدون علمهم ؟ كما لو كان للضمير سلطان « زوس » يسيطر على أهوائنا وغرائزنا ، على آلهة الواقع وهي الكبرياء والكذب والفجور والعنف والصداقة والبخل . فكما كان القدماء يخضعون لقوانين آلهتهم ، ينعمون برضاهم ويشقون بغضبهم ، فالإنسان الحديث يخشى في كل لحظة ضرورات الواقع ويتوسل إليها .

وقد فقدت الأهواء والغرائز الصور التى كانت تظهر بها فيما مضى . فلم يبق من الآلهـة الذين كانوا يسمون إيروس ومارس وميترف وبسيشيه وكاساندر ونمنزيس وبارك وكاستور وبولوكس وپان أو كرونوس وأورفيـه أو أوديب وأپولون أو ديونيزوس وهرمس أو تيتيس ، إلا أسماء لاتدل على شىء . ولـكنهم ، على ذلك ، مازالوا مستقرين فى نفوسنا بما كان لهم من قوة الأساطير القديمة .

وسواء عاش الإنسان لنيل السعادة ، أم كان غرضه فى الحياة إدراك مايحيط به والسعى إلى الكمال ، فإنه لايستطيع الفرار من المشكلات التى تقيمها علاقاته مع الهيئة الاجتماعية . وعبثاً يحاول حل هذه المشكلات . فهو لا يرى إلا حوادث ونتائج ، وأهواء وصراعاً وأوهاماً ، ومقدمات وعللا . وهو يغفل عن أن كل حدث من أحداث الواقع إنما هو نتيجة قانون أو بدعة أو عادة أو ثورة ، وأن هـذه العوامل كامنة فيه (كما هى كامنة فى كل واحد من أترابه) وأنها بذلك تكتسب طابع العموم . وهذه الخواص المشتركة هى التى تكوّن الأسـاطير . والأساطير نفسها يوجدها التفكير الآلى للجماعة ، فتبدأ حينئذ تعمل ، ثم تتخذ لنفسها معنى ، وسرعان ما تطبع الواقع بطابعها سواء كان هذا الواقع عملا أو شعوراً . ولعل من الجائز أن نقول إن الواقع لا يؤثر فى الإنسان إلا بمقدار ما يكتسب هذا الواقع من البداهة التى تفرضه عليه . هنالك لا يفكر الانسان ، بل يسير بغريزته فى الاتجاه الذى رسمته الجماعة له ، ويصبح السلطان للأساطير . على أن ضعف الإنسان إلى هذا المدى أمام القدر ، وعجزه عن السيطرة على القوى الـكامنة فيه ، وحرمانه إلى هذا الحد حقه فى تقرير مصيره (مهما ادعى لنفسه من تحرّر) فهذا نفسه هو الذى يجب أن يحثه على الانتصار على نفسه . ويجب لتحقيق ذلك أن يكون له علم دقيق بالأسـاطير ، كما يجب أيضاً أن ينظم لنفسه نوعاً من الدفاع يقاوم به ما للواقع من تسلط أسطورى .

فالإمعان فى معرفة أساطير الواقع هذه وتفسيرها ، وتحديد هذا النوع من أساطير الواقع الخاصة بكل فرد (ويجب أن يكون فى وسع كل إنسان أن يصنع ذلك مهما كانت الصورة التى تتخذها هذه المحاولة : قصة أو اعترافاً أو أسطورة) إنما هو محاولة وضع الانسان من جديد فى مواجهة الأقدار التى تسحقه أو ترفعه ، وإنما هو تحديد مركزه فى علاقته بالهيئة الاجتماعية ، شأن القدماء فى خضوعهم للأقدار التى كانت تفرضها آلهتهم عليهم . وكذلك يستطيع الإنسان الحديث ، بل

يجب عليه، أن يستخلص درساً نافعاً من التفسير الأسطورى لما يخضع له من حوادث ومغامرات، من لغة ومن تفكير، من معنى ومن لا معنى. وهذا الموقف يستتبع البحث عن الوسائل التى تعين على التخلص من هذا الرق، وعلى مدّ الرجل الحديث بملكات تسمح له بالانتصار على قهر الهيئة الاجتماعية. ومعرفة الوقائع بما ينطوى عليه من قسوة ومن جو أسطورى فاجع يلائم كل الملاءمة الثورة على ما فى الهيئة الاجتماعية من قوى شريرة تتعسف بالفرد وتتحكم فيه، كما يتفق مع العزم على مقاومتها والتخلص منها.

وفى ميدان الكتابة (وهو الذى يهمنا هنا دون سواه) إذا أردنا (فى جميع الأحوال) لتسمية الحرّ حرًّا، أن نشترط حرية كاملة فى التفكير والأداء، ثم أن نتخلص من مادية المذهب الواقعى (فضلا عن المذهب الطبيعى) فنعيد إنشاء الواقع على أساس أسطورى جديد، فإن ذلك يقتضينا عزيمة صادقة. فلنتصوّر هذه المجموعة الضخمة من المقررات المبتسرة الخاطئة التى يجب أن نقهرها، وهذه الدقة التى يجب أن نصطنعها، لنستخلص من الحوادث اليومية ومن الألفاظ الجارية على الألسنة ومن الآراء الذائعة بين الناس (ثم من أندر الحوادث والألفاظ والأفكار) شعوراً قويًّا ممتازاً، بل متعة ذهنية لم تكن لتخطر على بال حتى الآن. وواضح أن هذا يتطلب رياضة دقيقة يجب القيام بها.

فالألفاظ التى تنطق بها (شاعراً أو غير شاعر بالخطيئة)، والأفعال التى تأتيها، والخواطر التى تجول فى أعماق نفسك، يشق عليك أن تقبلها كما هى ألفاظاً مطبوعة فى كتاب. ترى الحياة من ناحية (وتعلم أنك لا تبلغ مستواها دائماً) وترى الفن من ناحية أخرى. أنظر إلى المصادفات كيف تلتقى، وإلى الأخلاق كيف تُحرّف عن موضوعها، وإلى الحياة الواقعة الخصبة كيف تشوّه تشويهاً منكراً حين يُراد نقلها إلى صورة أثر فنىّ!

فالإنسان شجاع مادام إنسانا يضطرب فى الحياة، ولكنه يضعف ويتردد حين يحاول الفن. يخشى الأحداث، ثم يخشى الألفاظ التى تعبّر عنها. فمن العسير أن نقبل مايراه چان بولان من أن الألفاظ عالم مستقل على هامش الحياة بعيد عن الأحداث التى يصوّرها. وليس من اليسير أن نتعوّد على اتخاذ الألفاظ مجرّدة كأنها قطع من أحجار اللعب تستعمل فقط فى ملء الخانات وفى

حلّ المشكلات . وإنما النطق بالألفاظ ولو همساً ، ولو بين الإنسان وبين نفسه ، ينفخ الحياة فى الألفاظ . أمصدر هذا أن ضمائر الناس ليست مطمئنة ؟ أتقدّر أنهم يميلون بطبعهم إلى الشر ويشفقون من ظهور هذا الميل ؟ مهما يكن من شئ فمن الخير أن يخلص الناس ما استطاعوا من سلطان الألفاظ عليهم ، وأن يُثبتوا استقلالهم بإزائها ، فلا يتأثروا بها (منطوقة كانت أو مكتوبة) أكثر من تأثرهم من خفقان نبضهم أو حركة تنفسهم .

هذه هى المشكلة التى يواجهها قصصى الواقع فى الوقت الحاضر . ولنرسل الكلمة الحاسمة : فالقانون الخلقى لا يوجد بالقياس إليه ، وأشد ما يخشاه أن يكون معلماً للأخلاق . والحياة عنده فوق كل شئ ، وبخاصة لتنوعها . ولكن ماذا يضع فى كتبه ؟ مِمّ تتألف هذه الكتب ؟ ماذا سنجد فيها ؟ لا شك أنها ستستأنف دراسة المشكلات الجوهرية الخطيرة : ما الحياة ؟ ما الإنسان ؟ ما طاقة الإنسان ؟ أى معنى يستطيع الإنسان أن يعطيه حياته ؟ وهذا الإنسان كيف نتصوّره ؟ أين الباطل ؟ أين الحق ؟

ويذهب قصصى الواقع إلى أنه ينبغى للإنسان أن يجرؤ على أن يعيش دون تقيّد بعقيدة أو مذهب أو قانون ، ودون تعليل النفس بالأوهام ، دون الخنوع لأوامر خلقية . فليواجه الحياة بما تنطوى عليه من أخطار وملمّات دون محاولة الفرار منها . فلا تكن غايات تبرّر الوسائل ، وليظهر كل واحد مظهره الحقيقى دون أن يشعر بالضرورة فى أن يستعير لنفسه مظهراً تحت تهديد أى مذهب مقرّر . ولتمتنع السيرة المشترطة ، والورع الناشئ عن الخوف من الأحزاب أو من خشية الحياة الأخرى . (وأنا إذ أذكر ذلك أفكّر فى أولئك الذين كثيراً ما يقولون : أما أنا فلو لم يوجد الله لغرقت فى الأثم إلى القاع . أو : أما أنا فلو لم يوجد نظام الحزب لأصبحت أبشع المجرمين) . إنما يجب أن يكون الإنسان رجلاً يعرف كيف يُؤْثِر الفضيلة ويكون خليقاً بمكانته عن إرادة حرّة لا عن خوف سيف مسلط عليه . أن يكون رجلا خبر الحياة ، ولكنه مع ذلك لا ينساب فى سخف إلى الملل والسأم ، بل يعرف كيف يستمتع بكل لحظة من لحظات حياته . ثم هو يعمل عن رأى لا عن شعور ويحبّ دون أن يمثل ، ويفكر تفكيراً مجرداً عن الشهوات .

ولا تجرُّه عن قصد السبيل . فما زال بين الكتّاب فى جميع العصور من أعلنوا أن من الحقائق البديهية أن الحياة لا مغزى لها (وهم مع ذلك يعجبون بجمالها) وأن الإنسان سخيف (وهم مع ذلك يعترفون بحاجته إلى المثل العليا). وآثارهم ، سواء منها الاعترافات القاتمة المظلمة ، أو الصيحات التى تملؤها الحماسة والحمية ، كانت تقتصر على تقرير ذلك ؛ وكأن هؤلاء الكتاب وجدوا أنفسهم أمام مشكلة لا حلّ لها ويجب الإذعان لحكمها على أى حال ، فهم يضربون صدورهم ، أو ينوحون ، أو يثيرون مشاعرهم . يختلف موقفهم باختلاف مزاج كل منهم ؛ ولكنهم لا يتجاوزون ذلك .

وآخرون جدّوا فى الوقت نفسه باستجلاء هذا السرّ الغامض ، ولم يسعوا إلى شئ سعيهم إلى البحث عن حلّ ، على شرط أن تتبين صحته . وأخذوا ـ وهم من أعماق الهوّة ـ يفكرّون فى الحلّ : فهل ينبغى قبول العون الذى يوحيه الدين ؟ أو ذلك الذى تبتدعه الأخلاق ؟ أم الإمعان فى القلق حتى يصبح مصدراً للذة ؟ أم الانتهاء إلى الانتحار المنقذ ؟ أو استسلام العقل فى سخرية ؟ أم قبول الفاجعة فى استهزاء ؟ أو العيش على هذه الفاجعة كما تعيش البراغيث على جلود الكلاب ؟ أم التغلب عليها من طريق التحدّى ؟ أم الإقلال من قيمتها؟ أم إنكارها فى كبرياء أثناء ثورة من ثورات حب الذات ؟ كانت كل هذه الحلول جائزة فى نظرهم إذ يرون المهم فى رأيهم ألاّ يُستَسْلَمَ ولا يُتَّخَذَ موقف سلبى ، وأن يثبتوا وجودهم لأنفسهم من طريق الإدراك لما يجدون .

والهم الأساسى الذى يشغل بال الكتّاب ، وهو سعيهم فى إدخال ما وراء الطبيعة فى الفن ، ليس حديث العهد ، مهما ادّعى المدّعون . ولكن لن ينكر أحد أنه تغلغل فى الأدب الحديث وسيطر عليه . بل لقد اتخذ فى هذه السنوات الأخيرة مظهراً أشد حدة ونفاذاً . ونراه عند فريق يستند إلى مذهب بطلان قيمة الحياة (ولا يدفعهم ذلك إلى عدم الاكتراث الذى يلجأ إليه الفارون الذين يبتغون أن ينجوا بأنفسهم ، ولا إلى العنف الذى يتخذه المتمردون الثائرون ، بل يقصدون إلى أن يحثوا الإنسان على العدول من هذا الفرار اليائس ، وعن هذه الثورة المغرية الشديدة الإغراء ، وعلى ممارسة الفضائل التى لا يمكن إنكار قيمتها حتى إذا نظرنا إلى الحياة على أنها باطلة فارغة) . ونراه عند فريق آخر يستند إلى المذهب الوجودى ، فيرغم الإنسان على أن يخرج من العدم الذى هو فيه وأن

يمتاز عن غيره وأن يحدّد نفسه ويجدّد شخصيته . وعلى أساس كل من المذهبين يجوز أن يكون لحياة الإنسان معنى ، ما دام هذا الإنسان قد صمم على أن يسمو بكل قواه إلى تمجيد شخصه وإلى تأكيد وجوده تأكيداً قويًّا جليًّا ، على الرغم من سخف البيئة المحيطة به وابتذالها وميلها إلى الشر . وواضح أن هذين مذهبان فى فلسفة البطولة الباسلة ، يندفعان فى غير تردد ، دون أن يفقدا الأمل فى رفع الحياة الإنسانية ، والاستقرار بها أخيراً فى هذا المستوى الجديد .

ولسنا نقصد من ذلك مخاصمة هـذين المذهبين ، بل على العكس من ذلك نضع نظرياتهما وآثار أصحابهما موضع تقديرنا الـكامل ، وقد أوجدنا بين أصحابهما وبيننا إخاء صادقاً . ولـكننا (إذا تركنا جانباً ما لمثل هذه المذاهب من بصيرة نافذة) نسائل أنفسنا : ألا تتعرض أحياناً لخطر التغرير والانخداع ؟ فما الذى يحدث لو أن الإنسان استطاع أن يصل إلى أبعد غاياته فى الاتجاه المنشود ؟ وما الذى يحدث أيضاً لو أنه ، على عكس ذلك ، أخفق إخفاقاً شاملا ؟ لقد أدرك ذوو البصيرة النافذة من أصحاب هذين المذهبين الفلسفيين أن حل المسألة حلاً كاملاً لايمكن أن يؤدى إلا إلى الغثيان أو إلى الانتحار ، كما أنهم لمسوا الاستحالة المطلقة لتمجيد الفرد أولتأكيد وجوده تأكيداً حقيقيًّا دقيقاً مجدياً .

أما نحن فنعتقد اعتقاداً قويًّا جازماً أن الذى يكسب الحياة قيمتها ويجعلها جديرة بأن يحياها الإنسان ، إنما هو استمرار الحيرة بين هذين الحلَّين استمراراً رهيباً مزعجاً . فالحياة ناقصة ، والأحياء ناقصون أيضاً . وهذا خير . والأشياء لا تنمو إلا بالقياس إلى نقائضها . وليست الحياة حياة إذا لم تكن مزاجاً من الخير والشر . وليس للخير قيمة إلا إذا قيس بالشر . كما أنه ليس من المحقق أن عالماً فردوسيًّا لا ينتهى إلى الملل والسأم . والذى يكسب حياتنا قيمة ، كما ذكرت بل الذى يكسب أروع لحظات حياتنا قيمة (فهذه اللحظات موجودة بلا شك ، ولايستطيع إنكار ذلك إلا من اضطرب تكوينه الفكرى) أنها تنبعث من الرجس ، وأننا نحياها بين انغماستين فى أعماق الأجزاء المنحطة من حياتنا . وليس لنا أن نرفض هذا التناوب . وفى نهاية الأمر ، إذا أمعننا التفكير تبين لنا أن كل شىء يجرى كأن الإنسان وهو يستمتع بلذة الحياة لايستطيع الاحتفاظ بهذه اللذة إلا إذا وقف نفسه دائماً فى منتصف الطريق بين الشقاء الذى يدفع إليه بطلان الحياة ، وبين الحماسة التى يبعثها تمجيد النفس وتأكيد الوجود . وإذا ما استطاع

تزيين عالمه بالألوان الزاهية البهية فذلك أنه لا يرسب من اليأس إلى القاع ، كما أنه لا يصل أبدا إلى تحقيق شخصيته تحقيقاً كاملاً . وعلة وجوده هى الأمل ، والأمل وحده ؛ فهو فى حاجة إلى الثقة من أن مصيره ليس إلى الشر المطلق ولا إلى الخير المطلق . نعم إنه يرجو ألا يهوى أبداً فى أعماق العدم ، ولـكنه يرجو أيضاً ألا يبلغ نفسه أبداً ؛ لأنه إذا انكشف له العدم كان معنى ذلك الموت ، كما أن إدراك ذاته يؤدى أيضاً إلى الهلاك ؛ فهو يتقدم إذن مستقر العزم . على أن هذه الرغبة فى التوازن لا تنقصها الشجاعة ولا الذكاء . وهى تستند على الاعتقاد بأن الـكفاح فى ذاته خير من النتيجة ، وأن السعى نفسه أكرم من الاكتفاء .

بل نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إن استمرار النزاع فى داخل نفس الإنسان بين أرقى مطامحه وأسوأ ما يبلغ من هذه المطامح ، هذا ما يعينه على أن يعيش . حتى إنه لو لم يقم هذا النزاع المستمر لوجب إيجاده . بل إن من حظ الإنسان بلا شك ألا يتمكن من تجنب هذا النزاع ، كما لا يتمكن من أن يجد له حلا . لحل النزاع ، إذا لم يكن بد من أن يحل ، ليس إلا فى التناقض بين العناصر التى تكوّنه . فالذى يخلع على الحياة مثل هذه الفتنة الجذابة هو أن يظل التعارض بين ما للحياة من معنى عميق وبين انعدام معناها قائماً بدون حلّ . فما ينبغى للإنسان أن يمضى فى حزن جدب على بطلان الحياة ، ولا عليه من ناحية أخرى أن يعرض عن الرجاء فى حياة تنطوى على بعض المعنى ، حتى كان هذا الرجاء لا يعتمد إلا على الأوهام .

فإذا انتهينا إلى هذا وجدنا أنفسنا فى ظروف مهيأة تهيئاً حسناً لوضع قواعد — هى فى الواقع فى غاية البساطة — عن فن الاعتراف أو القصة الخيالية أو حتى عن الأسطورة لا يتعرض فيها كل من الإنسان ، والحيـاة ، والأشياء ، والألفاظ ، للتشويه عن طريق تصوير يُتَعمد فيه أحياناً التفاؤل المنظم أو يتعمد فيه أحياناً أخرى التشاؤم المنظم ، بل تُسْتَقْـصَى كل هذه الصور فى أمانة ودقة سواء تناوبت عليها الأشكال أو اقترنت . ونستطيع بهذا أن نضع قواعد فى الفن تَعْتَمِدُ فى وحيها على التنوع والتفاوت والاقتران . فيكون هذا الفن فى الوقت نفسه واقعيًّا ومثاليًّا ، شعريًّا دون أن يتخذ شكل الشعر ، جذابا حتى حين يكون رذلا بشعاً ، مشغوفاً بتعرف الانفعالات الإنسانية فى تنوعها وغرابتها

من الناحيتين البسيكولوجية والفيسيولوجية . ولا يتردد فى أن يجمع فى الأثر نفسه بين أشد القطع تنوعاً واختلافاً ، وإن شق ذلك على القراء الذين اعتادوا قراءة المؤلفات ذات الوتيرة الواحدة ، والنغمة الواحدة ، والحساسية الواحدة .

وقبل الدخول فى تفاصيل هذه القواعد يحسن أن نبين كيف ولماذا ظهر لنا الأدب كأنه أخفق إلى الآن . فإن الأدب أراد أحياناً أن يلتزم حداً وسطاً مريحاً ، وأحياناً أخرى ألقى بنفسه فى غير اعتدال فى اتجاه أو فى آخر حسبما أوحى الفن إلى المؤلفين . وكتّاب آخرون نادرون اهتدوا إلى هذه القواعد وعرفوا قيمتها ، ولكنهم لم يجرؤوا على السير مع أشخاص قصصهم سيرتهم مع أنفسهم حين ترجموا عن حياتهم الخاصة ، من حيث تطبيق هذه القواعد .

ويعتبر ستندال مثالا عجيباً لهذا النوع الأخير من الإخفاق .

فإذا كان هناك كاتب لا تجهل اليوم مصادره ولا خفاياه ، ولا ميوله ولا نظرياته ، ولا عيوبه ولا مجازفاته ، وقد أنصف آخر الأمر ، فهو ستندال . فقد عرفنا الآن ، بفضل آثاره التى نشرت بعد وفاته ، وبفضل أوراقه المبعثرة المشتتة ومذكراته الخاصة ، وكذلك بفضل شراحه ومفسريه ، أنه كان رجلا جذابا فريداً على الرغم من كل ما أشاعه حوله عوامّ الكتاب من افتراء . وقد أغفل ما أذيع عنه من سخف اتهم فيه بالجفاء ، والأناقة المتكلفة ، والزهو . وقد أجمع أكثر المفكرين تشدداً فى الفن على الاعتراف له بالفطنة الفائقة فى تحليل الأهواء الإنسانية فى قصصه . كما أن الرأى استقر من ناحية أخرى على أن أكثر كتبه صراحة تعتبر مشاركة قيمة فى دراسة القلب الإنسانى .

وحسبنا أن نعاشر ستندال ، ولو وقتا قصيراً ، لكى نتبين ماأعطى من نفسه لأشخاص قصصه . فليس چوليان سوريل أو فابريس ديل لونجو أو لوسيان لووين إلا صوراً لهنرى بيل[1] الضابط فى جيش إيطاليا أو الزائر المتردد على صالونات الكونتيس پالفى أو مدام بونيو ، أو صاحب المشروعات الخيالية التى كان يهيم بها ، يحرقه الطموح وهو فى الوقت نفسه يعدو وراء السعادة . نجده كاملا فى هذه الشخصيات على الرغم مما أدخله عليها من تحوير . نلمسه خلال تلك

---

(١) الاسم الحقيقى لستندال ، إذ أن « ستندال » اسم استعاره فى الكتابة . (المترجم) .

الخطط الغرامية التى يضعها لغزو قلب لوازون أو ميتيلد ، أو فى سيرة جوليان مع مدام دى رينال الفاتنة ، أو فى غزل لوسيان المتهالك على أقدام مدام دى شاستلير . نلمسه فى ذلك الجندى الباسل الذى يعبر نهر البريزينا ، وفى فابريس الذى يشهد موقعة واترلو دون أن يراها . نلحظه كذلك وقد استولى عليه الملل والضجر فى سيفيتا فيكيا ، أو حين يجد لوسيان نفسه منفيًّا فى الأقاليم ، أو إذ يتحرق فابريس غيظاً فى البرج الذى سجنه فيه الجنرال كونتى . كما نلمسه وهو يكيد للتقرب من أسرة دارو أو يسخط على أسرة ، كذلك فى النزاع بين جوليان والأب كاستانيد البغيض ، أو إذ يشترك فى السياسة الحزبية طاعة لإلحاح والده الرأسمالى .

على أن ستندال ليس أقل بروزاً فى صفحات اعترافاته الخاصة ؛ بل نستطيع أن نعتبر أن محتويات برولار والذكريات الشخصية واليوميات لا تقل قيمة عن محتويات قصصه . فإن شخصيته تظهر هنا وهناك . وهو فى الوقت نفسه كل بطل من أبطال قصصه . فهو ذلك الطفل من أطفال جرينوبل الذى يضطرب عند وقوع نظره على ثديى أمه الرائعين ، وهو الشاب المتردد على بيوت الإثم ، وهو الرجل الذى يلازمه الإخفاق ، وهو المزدرى القاسى لحماقة معاصريه .

ما السبب إذن فى أن ستندال أبى وهو يصوّر أشخاص قصصه أن يصوّر نفسه فى مظاهرها المختلفة ؟ لقد رضى أن يمنحهم من نفسه مابه من إيمان بمضاء العزيمة ، ومن كبرياء متسرعة ، ورقة عواطف ، وبغض للكذب والمال . كما منحهم دائماً أكثر اندفاعه نحو النساء حساسية وأشده التهابا . لقد اجتهد ما استطاع فى الارتفاع بهم ، فمنحهم من نفسه خير ما كان فيها . ولكنه لم يرض أو لم يفكر فى أن يصور لنا هؤلاء الأشخاص بالصورة الخليعة التى ظهر بها هو نفسه فى مذكراته الخاصة ، أو على الشكل الصريح الذى ظهر به فى يومياته .

هل يزعم لنا أحد أن هؤلاء الأشخاص تتبدلّ شخصياتهم لو أنه جعلهم يقبلون على ممارسة بعض رذائل العزلة ، أو يخفقون فى غزواتهم الغرامية فى اللحظة الأخيرة الدقيقة ، ويسرفون فى العربدة مع رفقاء جمعتهم بهم ظروف عارضة ، أو يمتون سوق السيدات من دون المائدة أثناء العشاء ، أو يمعنون إذا ماسنحت الفرصة فى استعمال ألفاظ سوقية مبتذلة ، أو يبسطون أمامنا حساباً شحيحاً

تضطرهم إليه ميزانية ضيقة محدودة، أو يستجدون وساماً فى غير استخذاء ؟ [1] كلا ! أو ليست حقائق الأشخاص الذين ابتدعهم ستندال مستقاة كلها منه نفسه ؟ ومع ذلك فهو لم يجرؤ على نقل صورته اليهم نقلاً كاملاً . لم يخف علينا شيئا من نفسه فى نجواه الخاصة . فقد كانت لديه إذن مادة يجهّز بها أشد نواحى أبطال قصصه غموضاً واضطرابا، ولكنه أصر على الصمت إصراراً . أيرجع هذا إلى قصور فى الشعور الفنى كان لا يزال تقليدياً ؟ أم إلى الاشفاق من إضعاف القوة القصصية لأبطاله ؟ أم إلى تردد أمام عصره ؟ أم إلى حياء شخصى ؟ أم إلى دراية عميقة بالدوافع التى تجذب عواطف الجمهور الساذج ؟ أغلب الظن أنه يرجع إلى شىء من كل هذا مجتمعاً . والظاهر أن ذلك لم يذهب سدى .

وكثير من أنصار ستندال بل حتى أتباع هنرى بيل [2]، ومعظم المشغوفين العاديين بالقصة الخيالية يحمدون له عرض الأشخاص الذين ابتدعهم فى صور مثالية . وقد يسوءهم أن يبدو لهم هؤلاء الأشخاص فجأة كما يحيون فى الواقع . وقد يزداد استياؤهم لو أن ستندال طبق على نساء قصصه القواعد الإباحية التى جرى عليها فى مذكراته الخاصة، فأظهرهن عاريات كما أظهر نفسه أحياناً فى صراحة وجرأة نادرتين .

(يتبع)

ريموند جيران

نقلها عن الفرنسية الدكتور توفيق شحاته

---

(١) كل هذه كانت من خصال ستندال فى حياته الخاصة .

(٢) ستندال باعتباره الكاتب القصصى ، وهنرى بيل باعتباره صاحب المذكرات الخاصة . (المترجم)

الكاتب المصرى

نشأته ومكانته فى المجتمع

مقدمة فى ظهور الضمير واختراع الكتابة

لقد مر طور على الإنسان كانت غرائزه فيـه هى التى توحى إليه ما يعمل وما يترك ؛ فلم يكن يحس شيئاً عن السلوك ولم يكن يفقه شيئاً عن الأخلاق ، ولم يكن يحسب حساباً لما يجب أن يُفعل وما يجب أن يُترك ، بل كان يعيش هائماً على وجهه : يسعى إلى الطعام كلما وخزته غريزة الجوع ، ويكرع من الماء إن ألح عليه الظمأ ، غير مدرك سبباً لما يفعل ولا نتيجة لما يذر .

لم يقف الإنسان عند هذه الوحشية التى كان عليها فى عصر ما قبل التاريخ ، بل سار على مركب من تجاربه الشخصية نحو التقدم حتى تراءت له لُمَعٌ من عناصر الأخلاق فكان ذلك تقدما هائلا فى حياة البشر ، ثم سار الإنسان قُدُماً فى طريقه الموفق حتى وصل إلى مرتبة أدرك فيها أن من الأخلاق ما يستحب ومنها ما يستهجن ؛ فصار تقدمه بذلك أعظم خطراً وأقوى أثراً لأنه سما به درجة نحو الوعى الإنسانى .

هذا الوعى ، أو بتسمية أخرى هذا الضمير ، استمر فى نموه حتى صار قوة اجتماعيـة كبيرة لها تأثيرها فى عالمها . ولها أيضاً تأثير رجعى على تلك البيئة الاجتماعية المبكرة التى خلقت هذا الوعى وأخرجته إلى عالم الوجود : فصياد ماقبل التاريخ بدأ حياته يكافح بين ذوات الظفر والحافر ، واستمر لايعرف من الحياة غير الكفاح فى سبيل القوت والبقاء . واستمر على تلك الحال طويلا إلى أن أحس هاتفاً يبدو خافت الصوت والأثر ينبعث من نقطة بعيدة فى باطنه لا يكاد يستبينه أو يدرك كنهه ، إلا أنه فى جملته يختلف عن الهاتف إلى الطعام إن ألم به

الجوع والهاتف إلى الدفاع إن ملأه الخوف وأحيط به . ثم أخذ هذا الهاتف يظهر ويستبين ولكن فى بطء وتثاقل واطمئنان حتى استوى على ساقيه فكبر أثره وعظم خطره . ولم يقتصر تأثيره على تحريك إحساس واحد تاركاً بقية المشاعر هادئة فى نومها مطمئنة ، بل حرك لأول مرة كل العوامل النفسية فى وقت واحد معاً .

فمن أين نبت هذا الهاتف ؟ وأنى له أن يكتسب تلك القوة الآمرة المسيرة للإنسان ؟ وكيف نهض حتى أصبح قوة راسخة مسيطرة فى المجتمع الإنسانى ؟ إنه الضمير ! وإن ظهوره لتقدم عظيم ، وقلب لما تواضع عليه الناس فى حياتهم وطرق معايشهم ، ولكننا لم نستطع أن نصل إلى كنهه أو نتتبع أطواره إلا عند انبثاق فجر التاريخ حين جرى القلم بتدوين الوثائق وتسجيل الأفكار وتصوير ما تكنه نفس الإنسان عن تجارب ماضيه البعيد .



الكاتب ومعه أدوات الكتابة

على ضوء فجر التاريخ رأينا الوعى الإنسانى وعرفنا التطورات التى صار بها قوة اجتماعية أنتجت عصر الأخلاق . وقد استغرق هذا التطور كما يقول علماء الاجتماع والجيولوجيا آمادا طوالا لا تقل عن ألف ألف من السنوات ، واستطاع الإنسان فى نهايتها أن يبنى تلك الحياة الراقية التى أطل منها برأسه عصر الأخلاق .

وصلنا إذن إلى الضمير فى فجر عصر التاريخ ؛ لأننا قرأنا للقوم منذ فجر عصر التاريخ ؛ فهذا العصر يحدد لنا بداءة الكتابة . وقد ثبت من البحوث العلمية والكشوف الأثرية التى ظهرت حتى الآن فى كل بقاع العالم أن أول من خط بالقلم هو المصرى ، وأن الفضل للمصريين فى اختراع الكتابة والتصرف فيها ، وذلك منذ ٣٤٠٠ سنة قبل الميلاد .

اتخذ الكاتب المصرى أول أمره صحائفه من الأحجار يبثها أفكاره ، ويسجل عليها آراءه ، ثم لجأ إلى أوراق البردى وإن غلا ثمنها لسهولة حملها وطيها ، فخرج العالم بفضل الكاتب المصرى من جهالة عصر ما قبل التاريخ الذى غمر العالم بموجه المظلم نحو ألف ألف من السنوات إلى عصر التاريخ ذلك العصر المشرق الذى ما زلنا فى بداءته .

منزلة الكاتب المصرى القديم

إن الكاتب المصرى الذى كان أول إنسان خط بالقلم وضمن للحياة العقلية البقاء ، كانت له مكانته الرفيعة عندقومه فأحلوه المحل الأول فى صفوفهم ، وبذلك قدروا العلم وأرسوا بنيانه ، وأجلُّوا الكاتب المثقف وأعلوا مكانه ، فمن يبرع فى الكتابة فله عندهم أسمى المراكز وإن لم تسمح مواهبه الأخرى بذلك ، بل لم يكن للحاكم نفسه قيمة إلا إذا كان كاتباً . من أجل ذلك رأينا كبار الموظفين القدماء يلحون فى أن يصوروا أنفسهم كتَّاباً ؛ لأن الكتابة فى نظرهم موضع الشرف والامتياز ، والكتابة سلم يعرج فيه الكاتب إلى مركز الوزارة . والرجل الذى يستطيع الإبانة عما فى ضميره بأسلوب جميل هو ذلك الشريف المهذب الذى تتفتح أمامه الأبواب المغلقة والآفاق الواسعة ؛ فكم من وزير فى الدولة المصرية القديمة بدأ كاتباً ، وكم من منصب رفيع دلف إليه الكاتب وأغلق دون غيره . ومن هنا شملت الكتّاب موجة من الغطرسة والكبرياء وراحوا يُدِلّون على غيرهم بمركزهم الاجتماعى . والكبرياء وإن كانت فى ذاتها مكروهة فإن المثل العليا التى رسمتها طائفة الكتّاب للموظف الذى يعتد بنفسه ويحترم رأيه ومبدأه ويرتفع بكرامته ، جعلتنا نتجاوز عن ناحية الصلف ، ونعترف لهم بأنهم أول من رسموا للموظف خطة الأمانة والحق ، وأنهم جعلوا من

واجبه ان يكون كالميزان لا يحيد ، عادلا ينتصر للمظلوم ويأخذ من الظالم ، حاذقاً يعرف كيف يتغلب على الصعاب ، ويشق طريقه بين أعظم الصخور وأمنع العقاب .

وكانت آراء الـكاتب تحترم فى مجلس الشورى ، وكل قول له يجب أن يقدر؛ فقوله الفصل ، ورأيه القاطع ، وحرفته أسمى الحرف وأعلاها .

بهذه الروح كان الموظفون يعملون ، كما نشّئوا الشباب من طائفتهم على هذه المبادىء نفسها .

ومجمل القول أن الـكاتب المصرى القديم كان مثاليًا فى مبـادئه وخططه وطرائقه فى الحياة ، وأنه كان رفيع القدر بين قومه ، وأنه رسم للأحداث من الـكتّـاب خطة قويمة عمادها الحق والواجب ، وأن له الفضل فى اختراع الـكتابة من قديم ، فمكننا من متابعة الحياة العقلية منذ عصر التاريخ إلى الآن ، وأن اللفظ (سش) بمعنى كاتب وإن لم يظهر إلا فى عهد الأسرة الثالثة فإنه من غير شـك قديم العهد لاشتقاقه من مادة كتبَ القديمة . ذلك إلى أن لفظ (حرسشتا) بمعنى كاتم السر أو سكرتير ظاهر فى الألقاب الحـكومية منـذ الأسرة الأولى أى منـذ بدء استعمال الـكتابة ، فلا مراء فى أن المصريين أول الـكتّـاب فى العالم .

اعداد الكاتب المصرى القديم

لم تكشف لنا التربة المصرية عن وثائق صريحة تصف لنـا المدرسة المصرية ونظامها ومنهاجها ، وغاية ما عثرنا عليه إشارات تدل على وجودها ؛ ففى إحدى مقابر الدولة القديمة وجـدنا لقب « معلم أولاد الملك » . ويرجح أن مدارس تلك الدولة كانت ضمن مبانى المعبد أو فى عاصمة الملك . وقال لنـا « خيتى » صاحب التعاليم المشهورة صراحة : « إن مدارس الدولة الوسطى كانت فى مقر الملك » ، كما ذكر « آنى » فى تعاليمه جملة تشعر بأن المدن كانت تضم بين جدرانها مدارس . أما مدارس الدولة الحديثـة فيظهر أنها كانت على درجتين : الأولى ما نسميه نحن المدرسة ويسميه المصريون القدماء « بيت التهذيب » . ومنهاجها تعليم الـكتابة والأدب القديم على لوحات من الخزف وشظيات من الحجر الجيرى (استراكا) توفيراً للبردى الغالى الثمن . وقد أسعدنا الحظ بمعلومات عن مدرسة

من هذا النوع كانت ملحقة بالرمسيوم وهو المعهد الذى بناه رعمسيس الثانى للإله أمون فى الجهة الغربية من طيبة . وبدرس القطع الخزفية التى كان يكتبها تلاميذها ويلقونها فى هذا المكان وجدنا أنها تحتوى على موضوعات إنشائية تنتسب لعصر الدولة الحديثة ، وعلى مقتطفات من كتب أدبية ثلاثة هى : التعاليم المنسوبة إلى الملك أمنمحات الأول ، وتعاليم « خيتى بن دواوف » ، وأنشودة النيل ، وكلها من مؤلفات الدولة الوسطى . ومن الغريب أننا وجدنا هذه القطع الثلاث منسوخة على برديتين ترجعان إلى أصل منفى ، وأن مختارات منها وجدت مكررة فى أمكنة مختلفة مما يحمل على الاعتقاد بأنها كانت نصوصاً مقررة تحفظ وتكتب .

وإذا اجتاز التلميذ الدرجة الأولى من التعليم قيد كاتباً فى إدارة حكومية . وهنا تأتى الدرجة الثانية إذ يتخذ من كبار الموظفين الذين حذقوا فن الكتابة اساتذة له يتلقى عنهم ويتخرج فى دواوينهم ولا يضيرهم وإن كانوا رؤساءه المباشرين أن يتحملوا هذا العبء ؛ فإنما هى ضريبة العلم يؤدونها لمن بعدهم كما استوفوها ممن قبلهم . وكان المكان الذى يعلمون فيه يسمى « بيت الحياة » . ومن الجائز أن يحظى الإنسان بشرف تعليم ابنه بشرط أن يكون من كبار الموظفين وحملة القلم . وسادت هذه الطريقة عهد الدولة القديمة ؛ فهذا « بتاح حتب » الحكيم المصرى العظيم وصاحب الأمثال والحكم الرائعة يطلب فى تواضع من الفرعون السماح له أن يتولى بنفسه تعليم ابنه حتى يخلفه فى وظيفته . واستطاع كثير غيره من الكتاب الذين أتوا بعده فى عصره وفى العصور التى تلته أن ينالوا هذا الشرف فيتولوا بأنفسهم تعليم أبنائهم .

وكان الطالب المصرى مجداً ، ولم يقف نشاطه عند نقل بعض سطور مما فرض عليه بل قد استطاع بعض الطلاب أن يكتب ثلاث صحائف فى يوم واحد على ما فى الكتابة على البردى من صعوبة لا تقل عنها طريقة الكتابة المصرية نفسها . ويعنى الأستاذ عناية كبيرة بتصحيح أخطاء التلميذ على هامش البردية إذا كان هذا الخطأ متعلقاً برسم الحروف ، أما إذا كان الخطأ متعلقاً بالهجاء مما يفسد المعنى ويؤدى إلى خلط فى انسجام العبارة واتساقها فهذا لا يعنى به المعلم كثيراً مما جعلنا نعتقد أن درسه تجويد للخط لا تعليم للغة .

ولقد دلتنا النسخ الخطية المدرسية التى آلت إلينا من تراث المصريين

القدماء على أن الغرض الأول من التعليم عندهم هو التربية وتخليد الذكر ، ويأتى فى المرتبة الثانية الإعداد للأعمال التجارية وخدمة الحكومة وحسن الخط والإملاء وتزويق العبارات .

وليس من الغريب أن يكون حسن الخط والإملاء هدفاً من أهداف التربية والتعليم عندهم ؛ فإن من يعرف نظام الكتابة الهيرغليفية يدرك مبلغ تعقدها واستعدادها لقبول الأخطاء ، ثم يدرك شدة الحاجة إلى جعلها غرضاً يهدفون إليه. ولدينا كتاب يدلنا على عظيم عناية القوم وشدة حرصهم على كتابة الكلمات الفردية كتابة صحيحة ، وقد وضعه كاتب اشتهر « بكاتب كتاب الإله فى بيت الحياة » ، واسمه « أمنمو بى بن أمنمو بى » وهو غير « أمنمو بى » الحكيم المصرى القديم ، وقد أراد أن يجعل من نفسه كاتباً يعلِّم التلاميذ جميع المواد والعلوم المعروفة لعصره ، فجعل عنوان كتابه ضخماً يتناسب مع المدى الواسع لأفقه العلمى ، فسماه : « التعاليم التى تجعل الفرد أديباً ، وتعلم الجاهل علم الكائنات كلها ، وكل ما صنعه بتاح (إله الحرف والصناعات) ، وما سجله تحوت (إله العلم) ، والسماء ونجومها ، والأرض وما عليها ، والجبال وما تخرجه ، والبحار وما تجود به ، وما له علاقة بكل شىء تضيئه الشمس ، وكل ما ينمو على الأرض » .

وينتظر القارئ من وراء هذا العنوان الضخم معلومات ضخمة عن المواضيع التى سماها ، ولكن الأمر لا يعدو قوائم مرتبة ترتيباً منطقيًّا لابأس به لأسماء وألقاب بعضها معروف وبعضها غير مألوف ؛ فيذكر لنا أولاً السماء وما فيها والشمس والقمر والنجوم والجوزاء والدب الأكبر والقرد والمارد والخنزيرة والسحاب والعاصفة والفجر والظلام والضح والفئ إلى غير ذلك من الظواهر والكائنات التى لا عداد لها .

وللوصول إلى خلق القدرة فى التلميذ على تنميق عبارته كلِّف نقل نماذج رائعة من رسائل حقيقية وخيالية ومن نصائح الأعلام من الحكماء وتحذيراتهم.

ولم يكن التعليم مقصورا على طبقة معينة تعد لهذا الغرض ، بل كان كل كاتب مصرى يحذق فن الكتابة وله قدرة على بذل النصح وشرح قواعد الكتابة والصبر على الإفهام الحق فى أن يكون معلماً ، ولا يضيره أو يغض من منزلته أن يكون ذا حرفة أخرى . فها هو ذا كاتب خزانة فرعون ، ورئيس سجلات الخزانة ، وكاتب المصنع ، كل منهم يشتغل بالتعليم ، ولكلٍّ تلاميذ يأخذون

عليه . بل إن المطلع على المباراة الأدبية فى « ورقة أنستاسى الأولى » ليرى أن موظف الإصطبل الملـكى ، معـلم ماهر له دراية تامة بتقويم البلدان فى عالم المعروف حينئذ ، ومهارة فى الحساب والرياضة ، وقدم راسخة فى هندسة البناء .
وكان الـكتّـاب الموظفون يباشرون التدريس أثنـاء عملهم اليومى لإغرامهم بالتعليم ؛ فالمشرف على نحت مقبرة « رعمسيس » التاسع فى صحراء « وادى أبواب الملوك » لم يطق صبراً على ترك مهنة التعليم حتى فى ذلك المـكان القفر المنعزل ، فـكان يعطى تلميذه التمارين والواجبات على شظيات من الحجر الجيرى المتخلف من النحت ، وقد عثرنا منها على نماذج خطابات وقصائد قديمة فى مدح « رعمسيس » الثانى وصلوات جميلة لشخص اضطهد ظلماً ، كما رأينا يد المعلم فيها قد تناولت بعض الأخطاء بالتصويب والتـكميل .

أهداف الكاتب المصرى

إن من يمعن فى النظر إلى كتب الحـكمة المصرية يرى أن غرض الـكاتب المصرى يسمو فوق طلب الوظيفة أو الثروة ، فهو يغزو الآفاق المغلقة أمام قومه ، ويبصرهم بنواحى الحياة ، ويرشدهم إلى الطريقة السديدة فى الحوار والمنـاظرة ، وإلى السبيل الذى يسلـكونه ليتغلبوا على خصومهم بالنقـاش المنطقى والأجوبة المسكتة . ويرى الـكاتب المصرى أن من وصل إلى تلك المرتبة كان سـعيداً ظاهراً فى دنياه مقبولا فى آخرته عنـد الله . ولقد كان الـكاتب يضمن لاسمه الخلود إذا سمت تعاليمه وعلت حكمته حتى لتصير إرثاً لذوى العقول النـاضجة يتوارثونها ويتناقلونها . من أجل ذلك كان المصرى يتخذ راويته من أعز الناس عليه وأقربهم إليه ؛ لأنه كان يرى صروح الحياة جميعها فى نظره عرضاً زائلا وعارية مستردة بجوار أدبه الخالد الحى الذى يقرع الزمن فى البقاء ويسمو على البروج النحاسية فى القوة ومصارعة أهوال الزمان . جاء فى كتاب بردى من عصر الرعامسة :

« . . . ولـكن إذا فعلت هذه الأشياء (أى التى ذكرت من قبل) أصبحت كاتباً حاذقاً . وحذّاق الـكتاب المتنبئون بالمستقبل والمنتمون إلى عهد ورثة الآلهة قد خلدت أسماؤهم مع أنهم تواروا عنـا ، ومع أن كل ذريتهم قد أرخى الزمان عليها ذيل النسيان ، ومع أنهم لم يشيدوا لأنفسهم أهراماً نحاسـية ولا

صفائح قبور من حديد ، لم يتركوا من خلفهم ذرية ترث أسماءهم وتخلد ذكرهم ، بل تركوا كتباً وتعاليم كانت خلائفهم فى الأرض ، وتركوا إضمامات البردى لتكون كاهناً مرتلا ، وألواح الكتابة لتكون ابناً باراً ، وكتب الحكمة لتكون أهرامهم ، والقلم ابنهم ، وصفحة الحجر زوجهم ، وجعلوا الناس كبيرهم وصغيرهم أطفالا لهم لأنهم أساتذة الناس ورؤساؤهم . وإن كانت قبورهم قد درست ونسيت معالمها وانقرض كهنتها فما زالت أسماؤهم تردد لاقترانها بمؤلفاتهم ، وتعرج صاعدة فى مرقى البقاء والخلود بقدر ما بذل مؤلفها من عصارة ذهنية ، وما وصل إليه من عمق فى التفكير والإتقان . فكن كاتبا ، وضع ذلك فى قلبك يبق اسمك . وإن مؤلفا واحداً لأجل فائدة من لوحة قبر منحوتة ومن جدران لحد مؤسسة ؛ لأن هذا المؤلف بمثابة مقاصير وأهرام فى قلب من يقرءونه » .

« إن من الخير أن يبقى اسم الإنسان على أفواه الناس فى الجبانة ؛ فالرجل يموت وجثته تصير جيفة قذرة ، وذريته كلها تصبح تراباً ، ولكن الكتب التى يؤلفها تجعله مذكوراً فى فم من يراها . وإن كتاباً واحداً لأكثر نفعاً من بيت مؤسس ، ومن مقبرة فى الغرب ، وأجمل منظراً من قصر منيف ، ومن نصب تذكارى أقيم لصاحبه فى المعبد ، فهل هناك مثل « حردادف » أو « أمحتب » ؟ كما أنه ليس فى عصرنا أحد مثل « نفرى » و « خيتى » ، ولا تنس « بتاح - إم - تحوتى » ، ولا « خعخبر - رع - سنب » . وهل هناك من يماثل « بتاح حتب » او « كارس » ؟ هؤلاء كلهم حكماء تنبئوا بالمستقبل ، وقد وقع فعلا ما توقعوه ، وقد وجد كلامهم مدوناً فى كتبهم ، وقد رُزقوا أولاد غيرهم ورثة لهم كأنهم أولادهم من أصلابهم ، وقد اختفوا ولكن سحر كتابتهم ما زال نافذ الأثر فى كل من قرأ تعاليمهم ، ولقد ذهبوا ولكن الكتبُ التى تركوها جعلت المرء يذكرهم » .

فهذه الفقرة الفذة تشير إلى الأثر البعيد الذى يتركه الأديب فى نفوس الناس ، وإلى منزلته بين قومه . ولا يكون للأديب هذه المنزلة بين المصريين إلا إذا كان للأدب خطره فيهم وقيمته عندهم ، حتى إن الأديب ليعتز بأدبه ويحرص عليه أكثر من حرصه على الأهرام المشيدة والصروح الشاهقة . ولقد جاء فى تضاعيف هذه الفقرة أسماء أعلام من رجال الأدب المصرى القديم : « خردادف » كان حامل لواء الأدب فى عهد الملك « خوفو » . وقد عثر حديثاً على جزء من

تعاليمه و « أمحتب » الحكيم عاصر الملك « زوسر » . ولا نعرف عن الكاتب « نفرى » شيئاً . ولقد برهن الأستاذ جاردنر على أن الأديب « خيتى » هو مؤلف التعاليم التى نسبت إلى الحكيم « دواوف » والتعاليم التى نسبت للملك « أمنمحات الأول » . أما الشاعر الحكيم « خعخبر — رع — سنب » الذى جاء ذكره فى هذه الفقرة فهو من رجال الثورة التى اشتعلت عقب سقوط الدولة القديمة حوالى ٢٠٠٠ ق . م . فأسهَمَ فى وصف الكوارث التى حاقت بالبلاد وشجع الخطة التى تصل بالبلاد إلى مأمنها . بقى من هؤلاء الأعلام « بتاح حتب » وهو ذلك الحكيم الذى تعد حكمه وأمثاله أقدم ما عرف حتى الآن فى تاريخ البشر ، وهو من رجال الدولة القديمة . وأما « كارس » آخر من أشارت إليه الفقرة فيؤسفنا ألا نعرف عنه شيئاً .

منزلة الأدب فى المجتمع المصرى القديم

نستطيع أن نقول مطمئنين إن الأدب المصرى القديم كان له أثره العميق فى نفوس المصريين القدماء لا يقل عن أثر ميرابو وزملائه الأدباء فى إشعال الثورة الفرنسية ، ولا عن أثر مصطفى كامل وعبدالله النديم وسعد زغلول فى إيقاظ الشعور المصرى فى العصر الحديث ؛ فإن كتّابنا القدامى أمثال « إبور » و « خيتى » و « خعخبر ـ رع ـ سنب » كانوا حين تتفزع البلاد يسكبون من أدبهم فيضاً من الأمن والاطمئنان يهبط على المصريين فيشعرهم برد الراحة ، ويؤملهم فى عيش ناعم ومستقبل باسم ، فيندفعون بتأثير هذا الأدب إلى الغاية التى رسمتها أقلام الكتّاب وهدف إليها المفكرون والأدباء .

وكثيراً ما كان القلم يعمل مالا يعمله السيف ؛ فهاهم أولاء الأدباء القدماء ينظمون حملة يتخذون فيها سهامهم من سحر الأدب ، ويقومون قبيل الأسرة الثانية عشرة بوصف ماحاق بالأمة من أوصاب وأوجاع ، ثم يرسمون صورة مغرية للعهد السعيد الذى ينبغى أن تتمتع به ، ويعلقون مجىء هذا العهد على اعتلاء « أمنمحات الأول » عرش البلاد ، فإذا بالمليك الجديد يستوى على أريكة الملك ، وينتزع الصولجان من سابقه بفضل الأدب وتأثير الأدباء بعد أن عجز السيف عن إقرار النظام واستئصال الفوضى .

وبعد ـ فهذه منزلة الكاتب المصرى ، وهذا أثره فى العصر القديم ، يبعث الراحة والاطمئنان ، ويهز العروش ويزلزل التيجان ، ويثير الإحن ويقضى على الفوضى ، ويغذى العقل والعاطفة . وهو بذلك يبلغ أسمى مراتبه لدى أرقى الدول وأرهفها إحساساً . ويكفينا دلالة على مكانته أن الفرعون إذا ثقلت عليه تكاليف الحياة وأحس وطأة الأعمال الثقال ، وتطلعت عينه إلى الراحة والرفه لجأ إلى الكاتب الأديب فيخاطبه فى تواضع وتقدير ويقول : « يا أخى . لقد لقيت من عملى هذا نَصَباً ، وإن قلب جلالتى ليتوق إلى من يرفه عنه ، فهل لك أن تسوق إلىّ من رائع القصص وجميل الحكم ما يرتاح إليه قلب جلالتى ؟ » فيقول الكاتب فى أدب جم : « لبيك يا مليكى » . ويعطيه الكاتب من نفسه وروحه وأدبه ما يرتاح إليه مولاه ، وينال به عطفه ورضاه .

سليم حسن

عامان فى الحبشة

٢[1]

العادات والأخلاق

وجدت الحبشة كغيرها من الأمم الشرقية متمسكة بعاداتها القديمة محافظة على تراثها وتقاليدها إلى درجة أكثر مما نحن عليه . ولم أكن أتوقع أن أرى هذه التقاليد قد تغلغلت فى جميع نواحى الحياة الحبشية حتى أصبحت بمثابة قوانين يصعب التخلص منها . فتجد أهل الميت يشيعون النعش رجالا ونساء وقد كشفت النساء عن صدورهن وأخذن فى الولولة والعويل وضرب الصدور حتى يواروه التراب ، وهم يقيمون لذكراه الولائم ويقدمون الخمر بكثرة فى الأيام الثلاثة الأول ثم السابع والرابع عشر وكل أسبوع إلى الأربعين ثم السنة ثم فى تمام السنة السابعة . وكذلك يولمون ويقدمون الخمر فى أفراحهم وفى المناسبات المختلفة كالولادة والتعميد . ونظام « النقوط » موجود عندهم . ولهم مراسم فى الضياقة طويلة ، فهم يقدمون الخمر والخبز ثم يقدمون القهوة بالملح ثلاث مرات مرة بعد كل غلوة .

أما العلاقات بين الطبقات المختلفة مثل علاقة الخادم بسيده أو الرجل بامرأته أو الابن بأبيه ، فتراعى فيها تقاليد مختلفة معقدة فى التحية والمجاملة ولغة الحديث والملبس وما يصح عمله وما لا يصح . وهم يحيون عادة بالانحناء ثلاث مرات مع تبادل السلامات والتحيات . ويرفع الرجل قبعته عند التحية ، وقد يتبع التحية تقبيل الوجنات وهم يقبلون بطريقة سريعة عجيبة .

---

(١) الكاتب المصرى عدد ٢ (نوفمبر ١٩٤٥) .

وهم يركبون البغال لأن البُغل هو الحيوان الوحيد الذى يمكنه أن يتحمل مشاق الطرق الجبلية ووعورتها ولا يجفل ولا يتعب بسرعة ، وله حاسة غريبة فى جس الأرض بحافره حتى يقدر لرجله موضعها . ولركوب البغال آداب ، منها أن يسير خدم الراكب وأهله فى ركابه حتى يمكن معرفة قدر الراكب من عدد الذين يتبعونه . فإذا تقابل راكب البغل مع راكب آخر أعلى من طبقته وجب أن يترجل حتى يسلم عليه .

وهكذا تجد التمسك بالعادات والآداب متغلغلا فى نواح كثيرة من حياتهم .

والشعب الحبشى شعب مرح جداً كثير الغنـاء ، وقلما تجد رجلا أو امرأة لا توقع على القيثارة . وهم أكثر الشعوب حبًّا لشرب الخمر يشربونها عوضاً عن الماء ويقولون فى أمثالهم : « الماء للضفدع » أو « الماء للطفل والقرد » . وهم يصنعون الخمر من الشهد ويسمى التدج . ونوع آخر رخيص يصنع من الشعير ويسمى الطلاً ، ولـكنهم يحبون العرق أيضاً ولا يكرهون الـكونياك .

ويظهر أنهم لجأوا إلى شرب الخمر عند ما وجدوا أن الماء لا يصلح للشراب طوال مدة الجفاف (من أكتوبر إلى فبراير) .

والحبشى قوى الأعصاب هادىء المزاج ، يتكلم بصوت خافت لا يحرك يديه عند الـكلام . والشعب فى جملته جم الأدب كثير الوقار والاعتزاز بالنفس .

وهو أكثر الشعوب تحفظاً فى الـكلام ، لا تجد فى لغتهم لفظة « لا » فهم يسوفون كل شىء بقولهم نعم غداً « إيشى ناجا » وغد لا يأتى . وبلغ بهم التحفظ أنك لا تسأل أحدهم عن شىء إلا وجدت جوابه خالصاً : لا أدرى « إينچا » وهى لفظة تسلمك من العواقب . ويقولون فى أمثالهم « ليس أثقل من حبّ الأدچا ، ولا أضر من عشب المندچا ، إلا قولك إينچا » . وإن التحفظ فى الـكلام فيما بينهم أمر معروف فما بالك بالتحفظ من الأجنبى الذى تأصل فى أخلاقهم وجرى فى عروقهم حتى ظهر أثره فى عصورهم التاريخية . ولعل هذا التحفظ من الأجانب أحد الأسباب التى حافظت على استقلالهم وحمتهم من مطامع الاستعمار .

أما الحالة الاجتماعية عند المسيحيين هناك فهى تسترعى الالتفات ؛ إذ أن عدم الطلاق فى المسيحية الأرثوذكسية جعلهم — على ما يظهر لى — يهابون الزواج . فزواج الـكنيسة قليـل ولـكنهم استعاضوا عنه بالزواج العرفى والتزامات بسيطة مما حملهم على التزاوج الـكثير . ونتج عن هذا تحلل وعدم

استقرار الحياة العائلية ؛ فإنك تجد فى المنزل الواحد عدة أطفال لآباء وأمهات مختلفين ، ومع ذلك لم ألاحظ اختلافاً فى أمر النفقة عليهم مما يدل على أنهم اعتادوا هذا الوضع وهيأوا نفوسهم لقبوله وملافاة مشاكله . وإننا إذ نلاحظ فى حياتهم الاجتماعية أثر حضارة قديمة وتقاليد متوارثة منذ أجيال ، نلاحظ أيضاً أن هذه الحضارة قد اقتصرت على نواح دون أخرى . فإذا أخذنا مآكلهم مثلا لذلك وجدناه — على خلاف ما فى بعض البلاد الشرقية الأخرى — بسيطاً لا تعقيد فيه بل أقول لا حضارة فيه . ويذكرنى هذا بوليمة كنت قد دعوت إليها فى برلين أستاذ التاريخ القديم بجامعتها ، وشاعراً من شعراء الألمان المعروفين ، وكانت قائمة الطعام تحتوى على أرز بالكبد والصنوبر وباذرجان مسقعة وغير ذلك . وبعد الأكل التفت الشاعر إلى أستاذ التاريخ وقال له : « إن ما تريد أن تثبته عن حضارة مصر القديمة من آثارها وأدبها لا يساوى شيئاً إلى جانب ما يمكنك إثباته من ألوان الطعام الموجودة فى مصر اليوم والتى تدل على ما خلفته الحضارة على الأجيال من أثر فى الإتقان والتى تطور معها الطعام حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن » . ومع أن فى هذا بعض المبالغة فإن مما لا شك فيه أن التفنن فى طهى الطعام ما هو إلا نتيجة من نتائج الحضارة .

لا يمكننا أن نحكم على جميع عناصر الشعب الحبشى حكما شاملا ، فإننا نقصد هنا خاصة الأجناس السامية التى هى أكثر الأجناس هناك تحضراً . وقد يظهر لنا أحياناً حكم القبائل بعضها على بعض من الأمثال السائرة ، فيقول الأمهرا عن قبيلة الأجو « لشبان الأجو تسعة قلوب يخفون ثمانية ويظهرون واحداً » ويقولون عن الجالا « صداقة الجالا كاللحم المعلق لابد أن يجف » أو « أمانة الكلب والجالا لا تدوم » والجالا قبيلة كبيرة ، ومن أظهر عاداتها الزار وقد أخذتها عنهم القبائل السامية ثم نقلت إلينا . وكلمة الزار معناها الروح النجس إلا أن الزار هناك لا يقتصر على النساء بل إن الرجال كثيراً ما يؤلفون حلقات الزار . واشتهرت نساؤهم بتصفيف شعورهن وضفرها جدائل صغيرة على حين اشتهرت نساء الأمهرا بترك شعورهن تنمو إلى أعلى ثم يدهن شعورهن بالسمن حتى تقيهن حرارة الشمس . وقد سمعت قصة طريفة تدل على أظهر ما فى أخلاق أهالى المقاطعات الثمان القديمة من خصائص فى أثيوبيا : « أتى من أورشليم إلى أثيوبيا ثمانية أشخاص : الحماقة وصلابة الرأى والأنفة والحضارة

والشجاعة والأمانة والبساطة والسياسة . فلما وصلوا إلى بلاد التجرى قالت الحماقة وجدت بلدى وسأستقر به . ولما وصلوا بلاد سمين قالت صلابة الرأى قد وجدت مكانى وسأمكث به . ولما وصلوا بلاد وجارا قالت الأنفة قد وصلت إلى أملاكى وسأعيش فيها . ولما وصلت الحضارة إلى بلاد جوندار قالت يا إخوتى وجدت معسكرى وسأمكث فيه . وسار الأربعة الباقون فلما وصلوا إلى بلاد بيجامدر قالت الشجاعة سأستقر هنا فقد أعجبنى المكان . ولما بلغوا دير تابور وقفت الأمانة على قمة الجبل ونظرت إلى بلاد جوجام وقالت أستأذن منكن لأبحر إلى وطنى وتابعت الأخيرتان السير إلى بلاد أمهرا فقالت البساطة لأختها سأقيم هنا ثم تركتها ، فسارت السياسة إلى أن استقرت بمقاطعة شوا وحكمت هناك » .

الدين

مشكلة من مشكلات الشرق إلا أنه فى الحبشة لا يعد من المشكلات ؛ فقد أسلفت القول بأن سياسة الحبشة قائمة منذ القدم على الجنس ، لذلك تركت للأديان حريتها إلا فيما ندر ، فهى من البلاد القلائل التى ترتع فيها الوثنية إلى جانب المسيحية والإسلام . والوثنيون هناك يعبدون السماء ويذبحون الذبائح على قمم الجبال ويعتقدون أن الشمس هى عين الإله ، ثم يؤمنون بأن هناك عدداً من الأرواح تسكن الأشجار أو الأنهار وهم يقدسونها ويقدمون لها النذور . وكل تعارض قد نشأ فى يوم من الأيام بين أهل الأديان المختلفة إنما كان مصدره الجنس لا الدين فى الحقيقة . وليس معنى هذا أنهم لا يهتمون بدينهم ، بل إننا نجد المسلم يتمسك بدينه كما نجد المسيحى متمسكا بدينه أيضاً ، ولكننا لا نجد تعصباً من دين نحو دين . وأظهر ما فى التمسك من جانب المسلمين أو المسيحيين هو التمسك بالطقوس إلى حد يدعو إلى التعجب . والواقع أن الأزهر كان يمكنه أن يؤدى رسالته على وجه أكمل فى تلك البلاد لتفقيه أهلها فى الدين إذا وجهت العناية الكافية لذلك . وإن العدد القليل الذى يدرس فى رواق الجبرتى والذى لا يتم معظمه دراساته لا يكفى لسد حاجة البلاد مع أنهم يتلقفونهم لشغل وظائف القضاء والشرع . كما أن الكنيسة المصرية قد قصرت فى أداء واجبها من ناحية التعليم

الدينى من العصور القديمة . فانّ فهم الدين على حقيقته يساعد كثيراً بل هو أساس لفهم الحضارة وقبولها فى مثل هذه البلاد .

ولعل تحفظ الأحباش نحو الأجانب جعلهم يشكّون فى كل إرسالية تبشيرية . وقد حدث مراراً فى تاريخ الحبشة منذ القرن السادس عشر أن طرد الأحباش رجال الإرساليات الكاثوليكية أو البروتستانتية كلما أحسوا منهم بتدخل سياسى ، ولذلك فقد تعودوا مراقبة المبشرين . وقد أصدرت الحكومة أخيراً قانوناً يحدد مناطق نشاط المبشرين حتى تتمكن من مراقبة حركة التبشير فى الحبشة . والواقع أن المصريين هم الوحيدون القادرون على مساعدة الأحباش لتفقيههم فى دينهم المسيحى أو الإسلامى ؛ لأن الأحباش يأمنون جانبهم بعد ما خبروهم وعرفوا أنهم أبعد الناس عن المطامع السياسية أو التعرض للشؤون الداخلية

الكنيسة

والكلام على الدين يسوقنا إلى الكلام على الكنيسة ، وخاصة أننا نقرأ فى الصحف هذه الأيام عن مشكلة الكنيسة . والواقع أنه ليست هناك مشكلة بل هى مسألة أثارها الأحباش بعد استرداد أثيوبيا من يد الطليان . يتمتع المطران القبطى فى الحبشة بمركز ممتاز حافظ عليه فى جميع العصور التاريخية . وهو بمجرد وصوله يأخذ الجنسية الأثيوبية ، لذلك لم نسمع فى التاريخ بأحد من المطارنة تدخل فى سياسة البلد الداخلية أو كان له مطمع مالى أو سياسى ، وإن حدث أحياناً كان رائده فى ذلك صالح الأحباش . مثال ذلك ما حدث عند ما خلع المطران السابق الإمبراطور يسيج ياسو عام ١٩١٧ وولى مكانه الإمبراطورة زوديتو . أما المطران الحالى فله مركز خاص فى نفوس الإمبراطور والأحباش معاً لأنه أنقذ كنيستهم عندما رفض انفصالها عن الكنيسة المصرية تحت وعود الطليان ثم تهديدهم . وقد اضطر الطليان أمام هذا الموقف المشرف أن يتحملوا تبعة فصل الكنيسة الحبشية عن المصرية فصلا تاما ، فأصدروا قانوناً بفصلها ونصبوا عليها بطريركا من أهلها ولما عاد الإمبراطور أعاد للكنيسة وضعها السابق .

إذن ما الذى يريده الأحباش الآن ولماذا ؟

رأى الأحباش فى القرن الحالى ما تقوم به الإرساليات الأجنبية من جهود

فى الحبشة من إنشاء المدارس إلى فتح المستشفيات إلى غير ذلك ، ثم إذا هم قارنوا ذلك بما تقوم به كنيستهم للمساهمة فى التعليم والنهوض بمستوى الشعب أو ماتتخذه من وسائل للحد من انتشار التبشير ، وجدوا أنه جهد لا يذكر . وكذلك أحيا فيهم الضغط الإيطالى النزعة الاستقلالية ، أو بتعبير أصح النزعة القومية . فبدءوا ينظرون بعين النقد إلى كنيستهم . وقد دافع رجال الدين عن أنفسهم بأن ركزوا كل لومهم فى المطران القبطى الذى يمثل الكنيسة المصرية هناك ، وظنوا أنهم إن هم طالبوا الكنيسة المصرية بأن تسمح لهم بتعيين مطران منهم وأساقفة من بينهم أمكنهم بذلك أن يستقلوا بكنيستهم استقلالا ذاتيًّا تحت إشراف الكنيسة المصرية ، ويؤهلهم هذا أن يرتقوا بكنيستهم إلى مصاف الكنائس الأخرى حتى يمكنهم أن يدرءوا عنها الخطر . ومن الخطأ أن نفهم أنهم أرادوا أن يستقلوا بكنيستهم استقلالا تامًّا ، بل كان من الممكن أن يبقى الإمبراطور الكنيسة عند عودته على حالتها الاستقلالية كما كانت أيام الاحتلال ولكنه لم يفعل . زد على ذلك أنهم خطوا خطوة تدل على مقدار تمسكهم بالكنيسة المصرية حينما أنشأوا السنة الماضية كلية لاهوتية كبيرة لتخريج القساوسة وتفقيه رجال الدين فاختاروا لها المدرسين من الأقباط والأحباش . وقد سمعت بعض أبيات من الشعر يتداولها الناس لشاعرهم كيدانا ولد كفلى تدل على ما يشعر به الأحباش نحو هذه المسألة :

« الأقباط مغتبطون ، متى يجتمعون ليقرروا ؟
لا يصنعون شيئاً ، ففخرهم بالاسم فقط .
فى بلادنا ألقاب عظيمة لرجال الدين
هى ألقاب مطارنة ، ليست لصعاليك
لا حرية لهم فى بلادهم كغيرهم من رجال الدين
لا يمكن أن نقول بكمال وقارنا وتمام حريتنا
فالسوريون والأرمن يختارون ويرسمون لهم
بطريركا ومطراناً دون أن يكون لهم ملك
لا يوجد فى العالم جنس آخر غير الأثيوبيين
لا يختار ولا يرسم من جنسه مطراناً »

هذا يدل على أن كل امانيهم هو أن تسمح لهم الكنيسة المصرية برسامة مطران من جنسهم . ولكن مما يحد من توجيههم اللوم إلى الكنيسة القبطية ، أن تسارع إلى المساهمة فى رفع مستوى الشعب الثقافى والاجتماعى حتى تؤدى ما عليها من واجب وتعوض بعض ما فاتها فتخفف من توتر أعصابهم وتقلل من قلقهم لتتلاشى أسباب الشكوى ، وتخمد ما أثاره أنصار النزعة الاستقلالية من مسائل .

تكوين الدولة

الدولة يحكمها الإمبراطور ولقبه التقليدى « الأسد القاهر من سبط يهوذا المختار من الله ملك ملوك أثيوبيا » . ومع أنه لا يوجد الآن ملوك فى أثيوبيا إلا أنه لا يزال يحتفظ بلقب ملك الملوك أو الإمبراطور . أما الأسد القاهر من سبط يهوذا فنصه مقتبس من آية من الإنجيل ، (رؤيا يوحنا ٥ : ٥) والاشارة هنا إلى أن الملك الجالس على عرش أثيوبيا من سلالة سليمان الحكيم بن داود من سبط يهوذا وملكة سبأ كما جاء فى نص الدستور (مادة ٣) .

وقد منح الإمبراطور هيلا سلاسى الأول بلاده دستوراً فى يوليه سنة ١٩٣١ بمحض إرادته نزل فيه للشعب عن بعض حقوق السيادة التى كانت له . ويتبين من نصوص الدستور أن الحكومة الأثيوبية ملكية وراثية وشكلها نيابى ولكنها ليست برلمانية . ويتمثل شكل الحكومة النيابى فى وجود مجلسين تشريعيين مجلس شيوخ ومجلس نواب . وأعضاء الشيوخ يعينهم الإمبراطور ويختارهم من بين الأعيان الذين خدموا الإمبراطورية مدة طويلة مثل الأمراء والوزراء والقضاة وقواد الجيش .

أما أعضاء النواب فالمفروض مبدئيا انتخابهم ، لكن نظراً إلى أن الشعب لم يصبح حتى الآن أهلا لانتخابهم بنفسه فإن أمر اختيارهم يبقى مؤقتاً من اختصاص الإمبراطور الذى يختارهم من بين الأعيان والرؤساء المحليين .

وقرارات كل من المجلسين تكون بأغلبية أصوات أعضائه على أنها لا تكون نافذة إلا بعد تصديق الإمبراطور عليها .

فالنظام الأثيوبى ليس برلمانيا بل يشبه من بعض الوجوه النظام النيابى

القائم فى الولايات المتحدة . ويلاحظ أن الدستور الأثيوبى استمد نصوصه من المبادئ الدستورية الحديثة المعمول بها فى الدول المتمدنة مع مراعاة عدم تعارضها مع عادات البلاد وتقاليدها ومع ملاحظة المرحلة التى وصل إليها الشعب الأثيوبى فيما يتعلق بما يجوز منحه من حقوق وما يجوز تكليفه من واجبات . ومما تصح الإشارة إليه أن الحكومة الأثيوبية أنشأت فندقا فى أديس أبابا تسهيلا لإقامة أعضاء البرلمان فى العاصمة لا ينزل به غيرهم .

والحكومة تنقسم إلى وزارات : وزارة القلم — الداخلية — الخارجية — المالية — التجارة والصناعة — العدل — البريد والتلغراف والتيلفون — المعارف — الحرب — الزراعة — أشغال عمومية .

ولكل من هذه الوزارات وزير أو نائب وزير وقد يجمع بين الاثنين ، ومدير عام وسكرتير عام . وأخيراً أنشئ مركز رئيس وزراء . ومجلس الوزراء يرأسه الإمبراطور أو من ينيبه عنه .

والوزراء مسئولون أمام الإمبراطور يتلقون الأوامر منه ، بل إن لكل وزير مقابلة أو أكثر أسبوعية يعرض فيها دقائق أمور وزارته على الإمبراطور . ولا يجوز للوزير أن يدخل مجلس النواب أو الشيوخ إلا إذا طلب منه الإمبراطور ذلك لإعطاء بيان أو للدخول فى مناقشة .

أما اختصاصات الوزارات فهى لا تختلف كثيراً عن اختصاصات الوزارات عندنا ماعدا وزارة القلم ، وأهم اختصاصات وزير القلم :

١ — حامل أختام الإمبراطور .

٢ — عليه قيد مواليد ووفيات وزواج الأسرة الإمبراطورية

٣ — قيد أوامر الإمبراطور .

٤ — يحفظ جميع المعاهدات وأوراق الدولة .

٥ — يقدم القوانين والمشروعات — صلة الاتصال بين الوزراء ورئيس مجلس الوزراء — يوقع على جميع القوانين والمشروعات والتعيينات التى تنشر فى الجريدة الرسمية — العمل على تنسيق اختصاصات الوزارات — يقرأ تعليمات الإمبراطور إلى مجلس النواب أو الشيوخ ، وكذلك يلقى خطاب العرش إن لم يلقه الإمبراطور — يشرف على إدارة البروباجندة والاستعلامات والمطابع .

٦ — لوزير القلم الحق أن يتعامل مباشرة مع جميع الموظفين فى

الإمبراطورية . وقد كان لكل وزارة مستشار بريطانى بحكم المعاهدة البريطانية الأثيوبية لسنة ١٩٤١ إلا أنه لم ينص على ذلك فى معاهدة ١٩٤٤ .

التعليم

كان أول تنظيم لشؤون التعليم فى الحبشة عام ١٩٠٦ حينما استدعى الإمبراطور منيليك مدرسين من المصريين للقيام بأعباء التعليم هناك. ففتحوا مدرسة منيليك فى أديس أبابا ، وقسموها قسمين : إنجليزيا ، وفرنسيا ، وظل التدريس فى هذه المدرسة على أيدى مدرسين مصريين إلى وقت دخول الطليان . وتخرج عليهم معظم رجال الدولة المعاصرين ، وقد تولوا التدريس أيضاً فى مدينة هرر . ثم توالى فتح المدارس ، ففتح الإمبراطور الحالى (وكان حينئذ وليًّا للعهد) مدرسة تحمل اسمه « تفرى مكونن » فى أديس أبابا ، ووجهت المفوضية الفرنسية اهتمامها بهذه المدرسة ، فأحضرت لها مدرسين من الفرنسيين والسوريين تولوا التدريس فيها . وكذلك فتحت مدرسة هيلاسلاسى الأول ، تولى السوريون التدريس فيها . إلا أن هذه المدارس جميعها ، وكذلك جميع المدارس الأولية فى أثيوبيا اضطرت إلى إغلاق أبوابها فى عهد الاحتلال الإيطالى الذى وجه التعليم توجيها إيطاليًّا بحتاً .

ولم يكد الإمبراطور يعود إلى بلاده حتى وجه عنايته إلى التعليم ، وأولى وزارة المعارف رعاية خاصة . وأراد أن ينحو التعليم منحى قومياً على أن تكون اللغة الإنجليزية هى اللغة الأجنبية الأولى ، وطلب مساعدة المجلس البريطانى والحكومة المصرية ثم حكومة الولايات المتحدة . وقد فتح المجلس البريطانى معاهد فى أديس أبابا ، وهرر وجمه وديسى لتدريس اللغة الإنجليزية . أما الحكومة المصرية فقد لبت طلب الحكومة الأثيوبية إلا أن عدد المدرسين فى المدارس قليل لا يفى بالحاجة . أما المدرسون الأحباش فإنهم يحتاجون إلى توجيه فنى ، وقد بدأ المجلس البريطانى وحكومة الولايات المتحدة فى إرسال بعثات من الطلبة إلى الخارج حتى يسدُّوا هذا النقص .

أما الطالب الحبشى فهو على قدر من الذكاء ، وهو مثال للمثابرة والاجتهاد وإطاعة المدرس ، مغرم باللغات والحساب ، ولا يرى فائدة ملموسة فى

دراسة المواد الاجتماعيـة ، وقدرته فى العمليات الحسابيـة لا تبارى إلا أنه لا يحسن التطبيق .

والتعليم كله بالمجان ، بل تصرف للطلبة الكتب والأدوات المدرسية دون مقابل ، وفى بعض المدارس تتكفل الوزارة بمأكلهم وملبسهم .

والاتجاه بسياسة التعليم الآن يختلف عما كان عليه من قبل . فبعد أن كان تقسيم المدارس يرجع إلى جنسيات المدرسين أصبحت المـدارس فى أديس أبابا مدارس خاصة ، فمدرسة لأولاد الملاك الكبار (الأعيان) ومدرسة لأولاد القتلى من المجاهدين ، ومدرسة لأولاد قتلى الحرب ، وهناك مدرسة واحـدة لعامة الشعب .

ومدة الدراسة فى المدارس الأولية ست سنوات ، يدرس بالأمهرية فقط فى السنوات الثلاث الأولى وبالانجليزية (بقدر مايسمح عدد المدرسين) فى الثلاث السنوات التالية .

وفى أديس أبابا مدرسة ثانوية واحـدة يدخلها الممتازون من الناجحين فى هذه المدارس ، ولـكن عدد الأماكن محدود إذ أنها داخلية بالمجان والتعليم فيها باللغة الانجليزية . والمدارس المتوسطة ثلاث : واحدة للصناعات ، وأخرى للتجارة ، وثالثة للمعلمين . وليست هناك إلى الآن برامج عامة معمول بها ، وقد قصد إلى ذلك حتى لايتقيد المـدرس الأجنبى ببرنامج وحتى تتاح له الفرصة ليبذل كل مافى وسعه لفائدة الطلبة . وكذلك يعطى مدير المدرسة حرية تامة فى التصرف فى أمور مدرسته ، وبذلك تتاح له الفرصة أيضاً لإظهار شخصيته .

وللوزارة مدارس فى عواصم المقاطعات والبلاد الكبيرة فيها . منها مدارس فى الجهات الإسلامية اعتبرت لغتها الأولى اللغة العربية ، كما عين لها المدرسون لتدريس الدين الإسلامى والعبادات . أما الإرساليات التبشيرية فلها مدارس فى الجهات التى سمحت لها الحكومة بمزاولة عملها فيها .

الصحافة

يرجع تاريخ الصحافة فى الحبشة إلى عام ١٩٠١ حين أحضر أحد الأجانب مطبعة صغيرة قوامها حروف لاتينية ، وأصدر جريدة بالفرنسية عام ١٩٠٣ فى

مدينة هرر ، ولم تكن جريدة بالمعنى المعروف بل صحيفة توزع على المشتركين ثم حولت سنة ١٩٠٥ إلى مجلة شهرية .

وفى سنة ١٩٠٩ أحضر لها حروفاً لاتينية كافية واستقرت إدارتها فى مدينة ديريداوه ، ثم اختفت هذه المجلة فى أوائل الحرب العالمية الأولى .

وفى عام ١٩٠٢ ظهرت مجلة « أئمرو » باللغة الأمهرية . ولم تكن المطابع الحبشية قد عرفت بعد فى الحبشة فصار رئيس تحريرها يكتب ٢٤ نسخة يوزعها أسبوعيا ، ثم أمكنه أن يرفع عدد النسخ إلى ٢٠٠ بالبالوظة ، وفى سنة ١٩٠٦ أشرفت عليها الحكومة وقد اختفت عام ١٩١٤ وعام ١٩١٦ . ولما كان عام ١٩٢٤ تعهدتها الحكومة الأثيوبية بعد أن أحضرت مطبعة سنة ١٩٢٣ واستمرت فى الظهور أسبوعيا . وفى هذه السنة أيضاً خرجت الجريدة الرسمية (برهان نا سلام) باللغة الأمهرية .

وفى عام ١٩١٣ ظهرت جريدة باللغة الفرنسية مرتين فى الأسبوع وكانت تطبع ٧٠٠ نسخة . وفى عام ١٩٢٨ ظهرت مجلة شهرية كانت تطبع بعدة لغات ٢٠٠٠ نسخة ، واختفت سنة ١٩٣٢ ، وظهرت مجلة تجارية باللغة الفرنسية عام ١٩٣٢ . وهناك مجلة يونانية كانت تصدر منذ ١٩٢٦ وأدخلت عليها بعض تعديلات سنة ١٩٣٣ ثم احتجبت بعد ذلك بقليل . وقد أخرج الحزب الفاشستى فى أثيوبيا مجلة باللغة الإيطالية عام ١٩٣٣ .

وفى عام ١٩٣٤ ظهرت مجلة شهرية بالأمهرية « كسانى برهان » وكذلك مجلة بالأمهرية اسمها « أطبيا كوكب » .

وكانت فى أديس أبابا حتى سنة ١٩٣٤ سبع مطابع .

هذه هى أهم المجلات والجرائد منذ ظهورها إلى عهد الاحتلال الايطالى ، وهى فى جملتها متنوعة الأغراض حرة فى تحريرها ، ماعدا إشراف الحكومة عليها من الناحية السياسية . فلما جاء الطليان وقفت جميع هذه الصحف عن الظهور . ثم غمر الطليان أثيوبيا بسيل من الجرائد والمجلات لاتتفق مع مستوى الشعب أو تعليمه . وإليك ما أخرجته الحكومة الإيطالية مدة الاحتلال : كان يطبع فى أثيوبيا ١٠ مجلات رسمية باللغة الإيطالية — ١٠ جرائد متنوعة باللغة الايطالية — ٤ جرائد باللغة الأمهرية — جريدة واحدة باللغة العربية . أضف إلى هذا ٣٥ مجلة أخرى تتعلق بشؤون أثيوبيا كانوا يطبعونها خارج

أثيوبيا . وإنى أسائل نفسى هل يمكن أن يفيد هذا السيل من الجرائد والمجلات قطراً يحتاج إلى تعلم القراءة قبل كل شىء ؟ وهل يمكن للصحافة أن تقوم بتأدية رسالتها الحقيقية على هذا الوجه ؟

عند عودة الإمبراطور إلى بلاده أخذت الصحافة شكلا غير الذى كانت عليه قبل الاحتلال . فقد أنشئت إدارة البروباجندة والاستعلامات فتولت نشر مجلات شهرية وجرائد أسبوعية . فهناك مجلة بالأمهرية ، وأخرى بالإنجليزية . وأخيراً صدرت مجلة تجارية صناعية زراعية بالإنجليزية . وتصدر الجريدة الرسمية وهى شهرية أيضاً باللغتين الأمهرية والإنجليزية . أما الجرائد الأسبوعية فتصدر واحدة بالأمهرية ، وأخرى بالإنجليزية ، وثالثة بالعربية ، وبالأمهرية ، وليست الأمهرية ترجمة للعربية . وفى أثيوبيا ثلاث مطابع اثنتان حكوميتان وثالثة خاصة . وهذه المجلات والجرائد حكومية ، محرروها موظفون فى إدارة البروباجندة والاستعلامات . وهناك جريدة أسبوعية ظهرت أخيراً هى شبه حكومية أصدرها اتحاد أرتريا — أثيوبيا ، وهو الاتحاد الذى تكون فى أثيوبيا للمطالبة بضم أرتريا إليها .

أما الجرائد المصرية فتصل إلى الحبشة متأخرة بضعة أسابيع لصعوبة المواصلات ، إذ يظهر أن إدارة البريد تنقلها عن طريق عدن — جيبوتى ومواصلات هذا الطريق غير منتظمة .

مراد كامل

العمارة فى الأندلس

تربط سلسلة التاريخ حلقات غريبة ، ومدنية الأندلس من أغرب هذه الحلقات وأقواها ، وما زالت تحيط بهذه المدنية قصص وأساطير ، يتناقلها الناس من قرون عدة ، ولم تأت البحوث التاريخية الحديثة بما يحط من شأن هذه الأساطير ، أو يخفف من زهاء تلك المدنية . ويكاد المرء يتصور خيالا ما كانت عليه هذه البلاد من العظمة والسمو ، أو يحسب مغالاة ما لا حصر لعدده ممن أظلتهم من رجال بارزين ، فى العلم والأدب والدين والفن والفلسفة والسياسة ، وفى كل نواحى الحياة والتفكير . ومع ذلك فآثارهم وفنونهم أصدق دليل على حقيقة هذا الخيال .

ازدهرت الفنون فى الأندلس بتولى عبد الرحمن بن معاوية الحكم فيها وبقيام دولة إسلامية كان لها شأن كبير فى تاريخ تلك البلاد بل فى التاريخ عامة .

وكانت قرطبة عاصمة هذه الدولة ، يحدثنا المؤرخون عنها ، أنها كانت أم المدائن وسرة الأندلس ، ومدينة العلم ومعدن العلماء ، وأنها كانت آهلة بالسكان ، واسعة المسالك ، فسيحة الأسواق ، بهيجة المظهر ، زاهية المبانى والعمارة ، كثيرة الرياض والبساتين . وأن بها جامعاً ليس فى بلاد الإسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناء وأتقن صنعة .

ولم يخطىء المؤرخون أو يغالوا ؛ فما زال مسجد قرطبة أفخم المساجد وأعظمها . أقامه عبد الرحمن بن معاوية سنة ٧٨٦ ميلادية ، على أنقاض المسجد العتيق ، وزيد فيه بعد ذلك مرة أولى ، فى عصر عبد الرحمن الأوسط سنة ٨٣٣ ، ومرة ثانية فى عصر الحكم المستنصر بالله سنة ٩٦١ ، ومرة ثالثة بعد ذلك بست وعشرين سنة على عهد المنصور ، ولى الخليفة هشام بن الحكم . وقد تضاعفت مساحة المسجد ما يقرب من ثلاث مرات فى هاتين المئتين من السنين .

وللمسجد تسعة عشر رواقاً ، عرض كل منها سبعة أمتار تقريباً ، ما عدا رواق المحراب فعرضه يقرب من ثمانية أمتار . ويحف بالأروقة من كل جانب صف من الأعمدة ، رص عليه منها اثنان وثلاثون . فالداخل إلى المسجد من صحنه ، يجتاز واحداً وثلاثين أسكوبا حتى يصل إلى المحراب . وعرض كل أسكوب يقرب من ثلاثة أمتار . وجدار القبلة فى المسجد يمتد على مائة وثلاثين متراً . أما أسواره الجانبية فطول كل منها مائة وثمانون ، أى أنه مستطيل يزيد طول مجموع أضلاعه عن ستمائة متر .

وبالمسجد تسعة عشر بابا ، ينفذ منها عشرة إلى بيت الصلاة ، والباقى إلى البهو . أما بيت الصلاة فيه ، فكان يتسع وحده لأ كثر من خمس وعشرين ألفاً من المصلين ، ويتسع بهو المسجد لما يقرب من نصف هذا العدد . وتمتد فى بيت الصلاة أ كثر من ستمائة عقد ، ترتفع فوقها السُّقُف وتُظل من تحتها مساحة أربعة أفدنة ، هى مساحة بيت الصلاة .

وإذا كانت هذه الأرقام تدل على ضخامة هذا المسجد وسعته ، مما لم يصل إليه أى مسجد آخر من مساجد الإسلام ، فإن العناية بعناصر بنيانه ، تدلنا على مبلغ فخامته ومدى أهميته الفنية .

فالداخل إلى مسجد قرطبة ، تأخذه روعة يقصر التعبير عنها ، ويهيبه انتشار الأعمدة إلى ما لا يدرك النظر مداه ، وتعددها إلى ما لا حصر لعدده ، ويدهشه العناية الفائقة بالبناء ، والوحدة الشاملة جميع أطرافه ، ويخيل إليه أنه يتجول فى غابة واسعة الفضاء ، رهيبة السكون ، غرست أشجارها بنظام محكم ، وترتيب جميل .

أما هذه الأعمدة ، فقد انتزع جزء كبير منها من آثار سابقة للاسلام ، وجلب البعض الآخر من بلاد المغرب الأقصى ومن غيرها من البلدان ، فليس معظمها من الفن الأندلسى فى شىء . ولكن إبداع هذا الفن ، يتجلى أولا فى تنسيق هذه الأعمدة بما يشعر بالرهبة والجلال ، ويتجلى ثانياً فى ابتكار موفق توصل إليه بَنَّاء المسجد الأول ، فى عصر عبد الرحمن الداخل . ذلك أن الأعمدة التى استعان بها هذا الأمير فى إقامة المسجد قصيرة ، بحيث يقرب ارتفاعها من ثلاثة أمتار ، وكان يتطلب العمل منه أن يقيم عليها عقوداً ، ويمد على هذه سقف المسجد ، وإن امتدت السقف على هذا الارتفاع القليل ، لم ينفذ الضوء

ولاالهواء إلى بيت الصلاة ؛ إذ أنه يخلو من النوافذ ولا يصل إليه الضوء إلامن البهو ، وجدار القبلة كان يبعد حينئذ عن هذا البهو أربعين متراً . وقد هدى البحث بنّاء قرطبة إلى أن يقيم على هذه الأعمدة القصيرة دعائم فيتضاعف ارتفاعها، ويقيم على هذه الدعائم عقوداً توصل بها أن يرفع السقف على ارتفاع يقرب من ثلاثة أضعاف ارتفاع الأعمدة . وأقام بين رؤوس الأعمدة صفّاً ثانياً من العقود تستند عليه الدعائم . وهكذا وصل الضــوء وفيراً إلى أرجاء بيت الصلاة حتى بعد امتداد هذا البيت وابتعاد المحراب عن البهو الذى هو منبع الضوء لهذا البيت بما يزيد عن مائة من الأمتار . والفضل فى هذا يرجع إلى ابتكار فكرة العقود المزدوجة . وهذه الفكرة التى اتبعها البناة فى مسجدقرطبة عند زيادته فى العصور التالية لم يكن لها نظير فى أى بناء سابق .

ولهذا البنّاء المبتكر شأن كبير فى العمارة الاسلامية ؛ فهو لم يكتف بهذا الابتكار بل أضاف إليه ابتكاراً آخراً . ذلك أن الحجارة لم تكن وفيرة عند شروعه فى البناء فاحتال على ذلك باستخدام الآجُرّ ، ولـكنه استعان به على وجه جعل عقود مسجد قرطبة فريدة فى التاريخ ، تتناوب فيها ثمانى قطع من الحجارة البيضاء مع ثمانية صفوف من الآجر الأحمر . وكان لهذا مظهر زخرفى جميل ، انتشر فى العمارة الإسلامية ، وأخــذه عنها البناة فى أوربا فى العصور الوسطى . وهذ المظهر الزخرفى الذى يبدو فى غير تصنع أو حلية خارجية ، هذا التناوب فى الألوان ، لم يكن له نظير فى أى بناء سابق . وبالرغم من بساطة الفكرة ففضل ابتكارها يرجع إلى بنّـاء مسجد قرطبة .

ولهذه العقود ميزات أخرى ، فالصف الأول منها عقود متجاوزة ، وهى الشبيهة بحدية الفرس ، وهى عقود ابتكرها الفن الإسلامى فى عناصر العمارة ، وعم استعمالها فى بلاد المغرب والأندلس حتى أصبحت عنصراً مميزاً للعمارة فى هذه البلاد .

ونجد من العقود فى مسجد قرطبة أشكالا أخرى ، يزداد بها بيت الصلاة رونقاً وبهاء . فقد تجزأ العقد إلى ثلاث فتحات أو ثلاث أسنة ، فكأنه ورقة من الأزهار ترتسم فى الفضاء . وهذا عنصر آخر من العمارة والزخارف يرجع الفضل إلى الفن الأندلسى فى تنسيقه ونشره . وكان هذا العنصر محبباً إلى رجال الفن ، وكأنهم أرادوا أن يؤكدوا تعلقهم به ، فوضعوه فى مكان الشرف من

مسجد قرطبة أمام اسطوانة المحراب وحول عقود قبته . وإننا قلما نلقى فى العمارة الإسلامية عنصراً أجمل شكلا منه أو أنق حدوداً . ولا شك فى أن الفكرة الأولى فى ابتكار هذا الشكل كانت فكرة حسابية هندسية ، ترتكز على قواعد التجزئة والتكرار . فنصف الدائرة هنا مقسم إلى ثلاثة أو خمسة أجزاء من أنصاف دوائر . ولكن الهندسة تركت المجال للخيال ، فكأن هذه العقود أغصان تتفرع من الأعمدة ، وتلتوى فى ارتقائها إلى القباب ، أو كأنها فى الفضاء أهلة تعكس الضوء وتضىء الظلام .

وتشابكت العقود من ناحية ، وتعددت أنواعها من ناحية اخرى ، وتجزأت وحداتها ، ولم تجتمع بأشكالها كلها ، بمثل الابداع الذى اجتمعت به ، فى المقصورة المجاورة لمحراب قرطبة ، والتى تنسب اليوم إلى القديس فرناندو . فى هذه المقصورة ارتقت العمد الواحد فوق الآخر ، كما ارتقت العقود وتشعبت ، بحيث لا يدرك النظر أين تبتدىء وأين تنتهى .

ونرى فى الصف الأعلى من هذه المقصورة عقوداً على شكل حدية الفرس وأخرى على شكل ورقة الزهرة المقصوصة إلى ثلاث وريقات ، ونشاهد على جوانب هذه المقصورة نوعا من العقود المسننة ، فص كأنه الصخر حفرته الأمواج .

كان عصر الحكم بن هشام من أزهى عصور الأندلس وأكثرها فخامة . ويتحدث المؤرخون عن هذا العصر بما لايكاد يصدقه العقل ، إلا أن هذا الخليفة ترك فى مسجد قرطبة صفحة لا يشوبها الشك وصورة واضحة لعصره .

ولست أعرف فى تاريخ العمارة قبة أبدع تكويناً وأجمل مظهراً من قبة المحراب التى أقامها هذا الخليفة . وهى على حد قول أحد المؤرخين الأقدمين «مؤللة ، مهللة كأنها تيجان ، رصع فيها ياقوت ومرجان » . وإبداع هذه القبة يعجز البيان عن وصفه . فلم يترك البنّاء ولم يترك الفنان ركناً فيها أو سطحاً إلا كسواه حلية ثمينة ، أو أضافا إليه عنصراً يزيده جمالا . إن دلت هذه القبة على شىء فهى تدل على سعة الخيال الفنى عن البنّاء المسلم . لقد استطاع أن يجعل من القباب ، وهى عنصر معمارى شاق التنفيذ ثقيل التكوين ، استطاع أن يجعل منها تاجا محكم الوضع بديع الصناعة ، واستبدل بالكتلة الثقيلة فى هذه القبة هيكلا جعل مابين ضلوعه حشواً أو غلافا رقيقاً . هذا الخيال الفنى يرى الجمال فى كل شىء ، ويرى

الجمال فى الخفة والحركة ، حتى فى أشد العناصر تطلباً للثبات ، وفى أقربها للجمود ، ينصب الخيال عليها فيجزئها ثم يربطها ويصل بين ما انفك منها ، ويجعلها شبكة من الخطوط متحركة ، أو كأنها كذلك ، ويكسوها بحلية تستمد جمالها من تنوع أشكالها ، ويفرض على هذا كله فكرته فى الطبيعة فكرة اللانهاية .

أما محراب قرطبة ، فقد قال فيه أحد المؤرخين المسلمين إنه : «قد قوس أحكم تقويس ، ووشم بمثل ريش الطواويس ؛ حتى كأنه بالمجرة مقرطق ، وبقوس قزح ممنطق ، وكأن اللازورد حول وشومه ، وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام » .

ولهذا المحراب قصة ؛ فقد قيل إن الحكم طلب من إمبراطور بيزنطة أن يرسل إليه بفسيفساء يحلى بها المسجد ، فأرسل إليه الإمبراطور ما أراد ، وأرسل مع قطع الزجاج المذهبة ، عاملا عليما بسر تنسيقها ، وأن هذا العامل استخدم معه عاملين من الأندلس ، فما لبثا أن تفوقا عليه فى صناعته . والمستشرقون يصدقون النصف الأول من هذه القصة وينكرون على رجلى الأندلس مهارتهما فى تعلم هذا الفن الجديد . أما أنا فأصدق القصة بأكملها ، وليس من المغالاة أن نصدق أن الذى أحكم إطار المحراب ، وأبدع تنسيقه ، وحلاه بالرسم ، وجمله بالكتابة ، أعجزه أن يرص الفسيفساء حولها ، أو يتعلم رصها بمهارة ، وهو هذا العامل الأندلسى الذى أعد لجدار المحراب لوحات من الرخام ، منحوتة برقة فائقة ودقة ظاهرة ، تتفرع الأغصان عليها من شجرة الحياة ، فكأنها غلالة بديعة التطريز ، تتدلى على جدار المحراب .

ولن يمل المرء التجول داخل مسجد قرطبة ، وفى كل خطوة يخطوها يستوقف نظره كل بديع ورائع ، وتحيي أمامه ذكرى الجلال والعظمة . والخارج إلى صحن المسجد ، تأخذه حسرة ما ترك ، ولكنه يجد فيه صدى للهدوء والسكينة التى أحاطت بتجواله فى الداخل ، ويرى فى رسم العقود وجمال نسبها ، ما يشغله عن أشجار البرتقال وثمارها .

وإذا خرج إلى أسوار المسجد ، دفعته إلى نزهة طويلة ، ليشبع النظر من جمال الزخارف وتنوعها ، فهى تكسو الجدران بثياب ثمينة . وكأن نقوشها توقيعات تحث السائر من جهة ، وتدفعه من جهة أخرى ، من باب إلى باب ، فيستوقفه جمال الرسم ، ودقة الحدود ، وتنوع الألوان ، وبساطة المظهر أمام

إحدى البوابات التى ترجع إلى العصر الأول لبناء المسجد ، أو يشغله امتلاء المسطحات ، على بوابة أخرى ، فلا يقع نظره إلا على لون زاه ، أو خط ملتو ، أو غصن حائر ، أو مادة ثمينة ، أو إطار بديع ، أو رسوم متشابكة ، أو كتابة جميلة ، أو أعمدة متراصة ، أو عقود منتشرة ، كل هذا اجتمع فى مكان واحد ، وانتشر على المسطحات كلها ، فى حركة دائمة ، وتنوع مستمر ، يطرد الملل ، ويثير الإعجاب .

وثمار هذا الإعجاب باق على مضى السنين . فمسجد قرطبة ، فريد بين آثار العمارة كلها ، ولن نجد أثراً مثله ، ينطق وحده بتاريخ دولة بأسرها . وقد لا نجد مصداقاً أفضل من مسجد قرطبة لقول الشاعر :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان

وقد لا نجد معبداً له روعة هذا المعبد . أما من الوجهة المعمارية ، فقد تعدى أثره فنون الشرق إلى الغرب ، وترك على كثير من آثار أوربا طابع الإسلام ، وظل صفحة ناصعة من المدنية الإسلامية ، لا يشوب وحدتها إلا ما أصابه من الهدم والإضافة ، عند سقوط قرطبة فى أيدى الأسبان ، وإقامة كنيسة فى وسط بيت الصلاة ، لما رآها الإمبراطور شارلكان ، حزن وغضب وقال للكهنة : « أقمتم هنا ما يرى الناس مثله فى كل مكان ، وهدمتم ما لا نظير له فى العالم » .

تعددت المساجد فى الأندلس وابتنيت القصور ، والكثير منها قد اندثر ، ولم يبق إلا أن نقرأ عنه فى كتب المؤرخين . ومن هذه القصور قصر فى مدينة الزهراء التى أقامها عبد الرحمن الناصر ، فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى والتى استغرق بناؤها مدة خمسة وعشرين عاما ، وقد قدرت النفقة فيها بثلثمائة ألف دينار فى كل عام ، وجلب إليها الرخام الفاخر من جميع البلاد ، « وتضمنت العجيب من إتقان الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب موضون ، وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض ، وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهدى الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها » .

أشاد المؤرخون ممن شاهدوا هذه المدينة فى وصف بدائعها ، وقد كشف عن آثارها منذ أعوام ، وكتب أحد علماء الآثار فى أسبانيا : « إن الحفائر فى مدينة الزهراء تكشف لنا جديداً كل يوم ، فتزداد ثقة بصحة مارواه المؤرخون».

وقد تجولت بين آثار هذه المدينـــة مراراً ، وشاهدت موضع دورها وقصورها ، وبساتينها وجداولها وبركها ، وكثيراً مما تحدث عنه ابن خلدون وغيره من المؤرخين . وأستطيع أن أؤكد أن العناية ببناء هذه المدينة فاقت كل حد ، وأنه لم يترك بها حائط إلا ألبس حلة المرمر المسنون ، أو ألواحا من الحجارة المنحوتة ، وأن هذه الزخارف قد تنوعت بحيث تكوّن وحـدها مجموعة شاملة للزخارف الإسلامية . وأول ما يسترعى النظر فيها تصويرها للأزهار والنباتات والثمار ، كأنما أرادوا أن تتسلق الأغصان على الجدران ، أو كأنهم لم يقنعوا بجمال الطبيعة فى بساتينهم ، فأرادوا أن تنطبع صورها فى دورهم ، فلا يفرغوا من التأمل فيها .

ويدلنا هذا على أن الروح الفنية كانت متشبعة من النفوس ؛ فلم تكن مظاهر أريد بها بهر النظر ، وإدخال الروعة فى القلوب . وأقوال المؤرخين شهيدة على ذلك ؛ فقد أثبتوا اتباع الناس خلفاءهم فى تعلقهم بالفنون ، وتنشيطهم للبناء . وكان الرحالة من المسلمين يضعون فى الصف الأول بين فضائل البـلاد التى وصفوها ، ما كانت تظهر عليه مبانيها من العظمة والفخامة ، وجمال التنسيق ، وحسن الهندسة . ولهذا فقد أشادوا ببدائع الأندلس ، وأطنبوا فى ذكر آثارها وعددوا مناقب مدنها ، ومن بينها سرقسطة . أصاب قصرها من صروف الزمن مالم يبق منه إلا طُـرَف تؤويها المتاحف . وكان أقام هذا القصر الأمير أبو جعفر المقتدر ، وعنى ببنائه عناية تتضح من آثاره . ويتجلى الجمال من رشاقة زخارفه ومن درجة الإتقان والدقة التى صنعت بها ، ومن الخفة البديعـة التى أفرغت فيها ، وقد أخذت يد الفنان تتلاعب فى الخطوط بحرية كبيرة ، وانصب الخيال عليها فجعل من الأقواس والخطوط شبكة ترتقى على الجدران كأنها أغصان وفروع ، تتناثر منها الأوراق والأزهار . ورُبط الخيال بالحقيقة ، إذ فرغ الزخارف بالتخريم ، فأنفذ إليها الهواء ، فكأنها أغصان تهتز وتتحرك ، بخفة وانسياب .

وإذا انتقلنا من سرقسطة إلى قصر الحمراء فى غرناطة ، تجلى لنا الإبداع بمظهر الثراء والفخامة . ويخيل إلى السائح أن هذا القصر صفوة ما أخرجته العمارة الإسلامية فى الأندلس ، إلا أن هذا يرجع إلى ما علق بأذهان الناس مما كان يدور فى هذا القصر من الحوادث والأحداث . وكان قصر الحمراء مدينة قائمة بذاتها ، وحصناً منيعاً للسلاطين . أقيم فى القرن الرابع عشر ، على عهد أسرة بنى الأحمر أو بنى نصر ، أمراء غرناطة ، واحتفظ بروائعه بالرغم مما لحقه من التعديل فى العصور الحديثة . وهذه الروائع تتبعنا أينما حللنا به ، فإذا مررنا بقاعة السفراء ، أو انتقلنا إلى قاعة الشقيقتين ، شعرنا بالثراء والفخامة إلى أقصى حد . تتدلى من السقف فى كل مكان حلية بهية من المقرنصات ، كأنها أوكار فى الأشجار ، تتساقط على العمد كأنها أغصان ، وترتقى العقود فى قاعة الخلافة ، فكأن الطير تسكنها ، وكأنها تغرد فى كل مكان . وقد شبهت هذه العقود « بتيجان تتحلى بها رؤوس العرائس فى الأفراح » . وما أحسب أن العمد فى العمارة ، كانت يوماما أبدع مما نراها عليه فى الأروقة المحيطة ببهو السباع ، ممشوقة البدن ، رفيعة القوام ، والناظر إليها يخيل إليه أن رؤوسها لن تقوى على حمل العقود . وأبل بهو السباع قد فاقت شهرته كل بناء . وهو من أعمال السلطان محمد بن يوسف الذى بويع صبيًّا ، ودام حكمه مايقرب من أربعين سنة ، استتب فيها السلطان لأسرة بنى نصر ، بالرغم من الدسائس والثورات والحروب ، ونلقى صدى هذا الاستقرار فى قصر الحمراء . اشتق اسم هذا البهو من النافورة التى يحيط بها اثنا عشر تمثالا لسباع من الرخام ، تفتح أفواهها فينصب الماء منها ، ويجرى من فوقها وحولها بشكل يثير الإعجاب . وهذه النافورة أنموذج لما كانت تحويه قصور الأندلس ، وهى لاشك أقل فخامة من كثير غيرها . فقد كانت فى قصر الزهراء الذى تحدثنا عنه نافورة صغيرة منقوشة ومنحوت عليها « اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى » . ويقول المؤرخون إن هذه التماثيل الذهبية « كانت صوراً لاثنى عشر حيواناً وطائراً مختلفاً وكان الماء يخرج من أفواهها » .

وجمال هذا البهو فى الأروقة المحيطة به ، والتى تطل عليه بعقود مختلفة الرسم ، تعددت أسنتها وطالت أطرافها ، وظهر منها المقوس المتجاوز ، والمدبب المنكسر ، والذى يجمع بين هذين الشكلين . وقامت فيها الأعمدة منفردة تارة ،

ومزدوجة تارة أخرى ، وتوجت رؤوسها بتيجان أندلسية ، تكسوها الزخارف النباتية ، وتلتف حولها أشرطة منسقة ، وارتفعت من فوقها الحدائر ، حملت عمداً صغيرة ، تنبث منها أوكار العقود والسقف ، كأنها لهيب يخرج من المواقد .

هذه الزخارف المتناهية رقة وإتقانا ، يزيدها جمالا تنوع ألوانها ، من أحمر قاتم ، وأزرق وأبيض ومذهب وأسود . وبقصر الحمراء صور آدمية رسمت على القباب ، تمثل إحداها مجلس السلطان ، والأخرى أسطورة من أساطير الحب . وليس للتصوير فى الإسلام نظير لهذه الصور .

وكذلك ليس لآثار العمارة فى الأندلس نظائر فى الفن الإسلامى ؛ إذ أنه كان لها طابع خاص . ولعل فيما قرأناه عن بعض هذه الآثار صورة لما كان يسجله هذا الطابع فى مدنية الأندلس ، من مجد وفخامة ، ورقة ورخاء .

أحمد فكرى

ليلة فى الصحراء

موكب النور تهادى فى جمال وجلالِ
يسكب الأفراح فى الوادى ... على تلك الرمالَ
ويغنّى فإذا الحب يغنّى فى خيالى
صور فتّانة النور ، رشيقات الظلالِ

فاهتفى يا طير باللحن ، وغنّى يا روابى
واسبحى الليلةَ فى بحر من النور المذابِ

*

الربيع البِكْرُ حيّانى بأفراح السماءِ
وتولت بكاآتى سحابات الشتاءِ
فإذا بالنشوةِ البيضاء تسرى فى دمائى
مثلما تسرى أغانى الحب فى هذا المَساءِ

وإذا بى أتغنّى بأغانىّ شبابى
والهوى مِلءُ فؤادى ، والصِّبا ملء إهابى

*

هذه الصحراء بيضاء كأحلام العذارى
نسج البدرُ لها من رائع النور إزارا
فغدت للحب والأحلام والسحر قطارا
وبدت كالكأس رفّت خمرها نورا ونارا

ونجوم الليل فيها راقصات كالحَبَابِ
فانهلى يا نفس من هذا الرحيق المستطابِ

إيه يا بدر سجى الليـــل بهاتيك البطاحِ
وتغنَّى بالهوى العُذْرِىِّ أرغول الرياحِ
أنا ظمآن ، وقلبى مثـل أزهار الأقاحى
فاسكب النور على قلبى كأنداء الصباحِ
أو فصُغْ منى ملاكا طائراً فوق السحابِ
علَّنى أنسى كآباتى ويأسى وعـذابِى .

*

أنت يا صحراء حرَّمْتِ على عينى المناما
وملأت القلب شـوقاً وحنيناً وهياما
إبعثى « ليلى » فقَيْسٌ جُنَّ بالحب وهاما
يشرب الدمع - من الأحزان واليأس - مُداما
ويناجى طيفها السارى على تلك الرحابِ
فإذا طار ليـلقاه تولىّ كالسرابِ

*

أقبِلى ليـلاى كالفجر ضياء وصـفاء
أقبلى ليلاى كالعُرْسِ نشيداً وغنـاء
أقبلى كالروض أطيـاراً وأزهاراً وماء
واسكبى الأفراح فى قلبى ؛ فقـد ذاب بكاء
وأعيدينى إلى عشى ؛ فقد طال اغترابِى
ودعينى أسكر الليـلة من خمر الرُّضابِ

*

أنا يا ليـلاى روح بالهوى السامى يغنِّى
يعرف الليل أغاريدى ، ويروى الفجر عنِّى

أنا طيف دائم الأشواق ، موصول التمنّى
لهفتى طالت إلى الحب ... وأين الحب منّى ؟
ما أحيلى فرصة اللقيا ، وأسرار العتاب
بين روحين من العشاق فى فجر الشباب

*

ها هو البدر مع النور من الأفق يغيبُ
ها هى الصحراء قد غشّى مُحيّاها الشحوبُ
طالت النجوى ، ولم يسمع لنجواى الحبيبُ
يا حياتى إننى وحدى على الأرض غريبُ
ها أنا أمضى إلى دارى ؛ فقد طال غيابى
ومع النور مَعادى ، ومع البدر إيابى

ابراهيم محمد نجا

بعيداً عن نواة الذرة

كنت أومن بطفرة الفيزياء أو علم الطبيعة كما جرى اسمه خطأً على الألسن في مصر ، وكانت رياضيات ماكسويل الإنجليزي وتجارب هرتز الألماني وعمل برانلي الفرنسي وتطبيقات ماركوني الإيطالي في الوصول إلى تحقيق اللاسلكي مما يثير العجب ، ولكن الناس تنسى ويذهب منها العجب ، وتعتاد الأشياء فلا تفكر في أصولها ولا تتأمل في عظمتها .

فأنت عند ما تتوجه للتاجر لتشترى جهازاً للراديو تنظر لجمال الصندوق ورونقه ، وتسأل عن نوع الخشب ومتانته ، وتهتم بعدد ما بداخل الصندوق من صمامات أشبه بالمصابيح ، ولكنك لا تحاول أن تعرف كيف يمكنك بهذه الصمامات أن تستمع لمذيع في أي جزء من هذه الأرض الفسيحة دون أن يكون بينك وبينه أسلاك أو طريق مادي من صنعك .

هذه الصمامات التي صنعت بيد الإنسان كما تصنع عرائس الحلوى في الموالد أو ساعات التوقيت على الحوائط أو أية صناعة انحطت أو علت ، هذه الصمامات ليس المهم صناعتها بقدر ما يهمنا طريق البحث للوصول إلى الفكرة فيها ، إلى أي حد تعثَّر أمامها الإنسان وإلى أي مدى نجح فيها الإنسان . ويتلخص الحادث في نهايته أنه بحفنة من الرمل (أي الزجاج) وقليل من المعدن أو قل إنه بقطعة صغيرة من الأرض التي نعيش عليها يصنع هذا الصمام الذي يتيح لنا سماع صوت الإنسان مهما بعد عنا ؛ وفي فترة صغيرة من الزمن ، كلنا يعلم اليوم أن الإذاعة التي نسمعها في بغداد من القاهرة تصل في واحد على مائتين من الثانية ، باعتبار أن المسافة بينهما على الخط المستقيم ألف وخمسمائة كيلومتر .

دع الراديو وتأمل معي ما هو أعظم وأعجب ، تذهب إلى التاجر من جديد لتشترى صندوقاً آخر تسمع منه هذه المرة المذيع أو المحاضر ، وتراه رأى العين ، وتستمتع برؤية من حوله في الحفل أو القاعة ، هذا ما أحدثه « التلفزيون » .

ولقد رأيته لأول مرة سنة ١٩٣٣ فى السراى الكبرى بباريس فشاهدت على لوحته العمال فى أحد المصانع التى تبعد عن باريس بضعة كيلومترات .

كذلك تذهب إلى مكتب رئيسى للأنباء ، فترى كيف تُنقل الصور باللاسلكى من نيويورك إلى لندن أو إلى القاهرة ، وذلك بواسطة البيلانوجرام Bélinogramme من اسم بيلان مكتشفه ، وقد أحدثك فى فرصة أخرى عن جهازه فى شيء من الإفاضة والإسهاب .

* * *

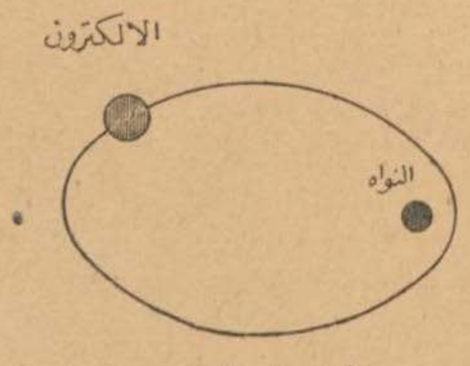
هذه مسائل أرجو أن تُجيل النظر فيها وتتأملها . وقد أردت بذكرها أن أردك إلى شيء من اليقين فأصور لك من مشاهداتك قوة العلوم الفيزيائية . فبينما تسير العلوم كلها بخطوات وئيدة متزنة تخطو الفيزياء خطوات واسعة سريعة ، تفاجئنا خلالها بوثبات عالية ، نأمل أن ترقى بالمدنية إلى حد فوق التصور ، وألا تُستَغَلّ لتدمير هذه المدنية وإهلاك الجنس البشرى .

أرانى قد أطلت مقدمتى ، ولكنى أحرص أن تكون مؤمناً بهذه العلوم ، عندئذ أستطيع اصطحابك إلى حيث المعرفة الحقة وإلى حيث الفلسفة مستقاة لا من منطق أرسطو فحسب بل من منطق المادة وما نستخلصه فيها من ظواهر وأحداث . وسأعود بك مسرعاً إلى المادة التى تتكوّن منها والتى أتكوّنُ منها ، المادة التى تُكوّن الورق الذى أكتب عليه والمجلة التى تطالعها . أريد منك إذاً إيماناً بقوة الفيزياء ؛ ففى نظامها اعتُطِيتَ هذه الصناديق الساحرة فخاطبت من خاطبت ورأيت من رأيت . وإنى لأحدثك اليوم عما فى المادة من كيان ونظام ، وسأبتعد فى الذرة بعيداً عن النواة فأحدثك عما حولها من عوالم يقف عندها العقل حائراً ويسبح فيها الخيال متأملاً .

* * *

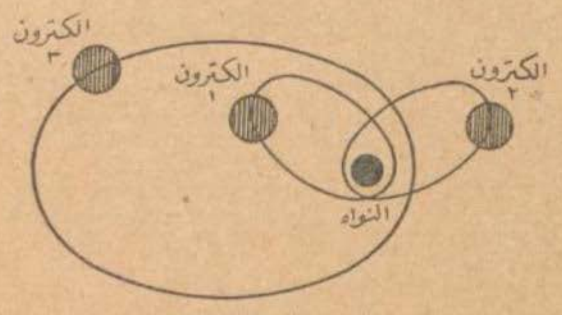
إنما نريد أن ننظر إلى المادة مكونة من عناصر مختلفة ، كل عنصر مكون من ذرات متشابهة . وقد ذكرنا فى مقال سابق أنه لم يمكن تحويل ذرة عنصر إلى ذرة عنصر آخر بغير الوسائل الفيزيائية المكتشفة حديثاً ، كذلك ذكرنا أن الذرة مكونة من مجموعتين من الجسيمات :

الجموعة الأولى — تلك الجسيمات المتجمعة فى الوسط والتى نطلق عليها
سم النواة ويتركز فيها الجزء الأكبر من كتلة الذرة .
والمجموعة الثانية — تلك الجسيمات التى تدور حول النواة فى مدارات
عيدة عنها ، جسيمات أقل فى الكتلة وتسمى كهارب أى الكترونات .
والذرة بهذا مجموعة شمسية تتوسطها شمس تدور حولها سيارات .
على أننا نرجو أن يستقر فى ذهن القارئ تلك الضآلة البالغة التى عليها الذرة
كلها والتى عليها نواتها الوسطى أو التى عليها هذه الالكترونات الحائرة
حولها. ولنفرض أننا مُنحنا عيوناً ترى هذه الذرات ، ووضعنا أمامنا ذرة واحدة
ن غاز الهيدروجين وأخرى من الليتيوم ، فإننا نرى فى الأولى شمساً وسطى
طلقون عليها برتوناً ، ونرى كوكباً كالأرض يدور حولها بسرعة كبيرة كما يدور
حول نفسه ، وبينهما فضاء كالفضاء الذى يفصلنا عن الشمس ، بحيث لا يبلغ
قطر هذه الشمس داخل الذرة إلا واحداً على مائة ألف من قطر ذلك الفضاء .
كذلك إذا نظرنا إلى ذرة الليتيوم وجدناها مجموعة شمسية أخرى لها شمسها
لوسطى ويدور حولها ثلاثة ألكترونات فى مدارات مختلفة .
على أننا نعرف أن كتلة الذرة واقعة كلها تقريباً فى هذه الشمس رغم صغرها
بالنسبة للفضاء الشاسع حولها وبالنسبة للسيارات التى تدور فى هذا الفضاء .
وتبلغ كتلة النواة فى الهيدروجين كتلة الالكترون الدائر حوالى ألفى مرة .
ولكى تُدرك مبلغ النواة من الصِّغر أذكر أنه إذا كان لا بد لنا من أن
نضع عشرة ملايين ذرة الواحدة بجوار الأخرى لكى نبلغ ملليمتراً واحداً فى
الطول ، كما ذكرنا فى مقالنا السابق ، فإنه يجب أن نضع من النواة عشرة ملايين



نموذج ذرة الهيدروجين

بعيداً عن نواة الذرة



نموذج ذرة الليثيوم

مضروبة فى مائة ألف أى عشرة ملايين المليون الواحـدة بجوار الأخرى لـكى تبلغ ملليمتراً واحداً فى الطول .

ونحن نُفرد بحثنا هـذا لدورة الألـكترون حول النواة ، ولماذا افترض العلماء هذه الدورة ؟ وهل لنا أدلة من البحث التجريبى على صحتها ؟

***

نعود إذاً إلى الألـكترون الحائر الدائر . وإنى أعيد إلى ذهن القارئ صورة لضآلته ودقة كتلته ، فهذا المنظار الذى يعلو أعيننا يحوى كلٌ واحد على ألف من المليجرام من المادة المكونة للزجاج فيه أو لأطاره ملايين الملايين من هذه الألـكترونات ، بل إن هذه النقطة التى تعلو أى كلمة فيما تقرأ الآن تحوى من حبر الطباعة على ملايين الملايين من ذرات المواد المكونة لهذا الحبر وأضعاف ذلك العدد العديد من الألكترونات ، وهى تدور الآن وأنت تطالع هذا المقال ، وستظل تدور وتدور .

ونستطيع أن نتصور من جديد ضآلة الألـكترون بأن نتصور كرة من الصلب قطرها ٨ ملليمترات أى ما يعدل إحدى حبات المسبحة وكذلك الكرة الأرضية ، ونضع فى محل المقارنة ثلاثة أجسام :

(١) الألـكترون .

(٢) هذه الكرة .

(٣) الكرة الأرضية :

فإننا نجد أن النسبة بين كتلة الألـكترون وكتلة هذه الكرة الصغيرة كالنسبة بين هذه الكرة والكرة الأرضية التى نعيش عليها ، بمعنى أنه يجب

أن نذهب حداً فى الصِّغر من حبة الخرز لكى نصل إلى الألكترون بقدر ما نذهب فى الصغر من الأرض لكى نصل إلى هذه الحبة الصغيرة .

ولا يظنَّن القارئ أن المسألة تقريبية أو أننا أخطأنا الحساب، فكل الذين يدرسون العلوم الطبيعية يعرفون جيداً كيف يزنون الأرض بل كيف يحددون كثافتها [1] .

نريد أن نقف إذاً بالفكر قليلاً نتأمل هذا الوضع الذى يتجاوز كل خيال ، ولا نجمل فيما نكتب اليوم الأعمال التجريبية الخاصة بهذا الكائن الحائر، ولكنى أكتفى بأن أشير إلى أن أحد العلماء « اندروز مليكان » الأمريكى قد تمكن من فصل جسيم كان يحوى فيما يحوى ألكترونا زائداً أى يحوى شحنة سالبة واحدة ، واستطاع مليكان بين كفتى مكثفه أن يصعد بهذا الجسيم وينخفض به ، بل استطاع أن يقفه فى الحيز الذى كان يحركه فيه وأن يرقبه بواسطة الألترامیکروسکوب [2] كما يرقب الرائى ليلا أحد الكواكب .

ولقد أضحت عملية مليكان بدعة يواجه بها الأساتذة الطلاب عند بدء تحضيرهم للرسائل العلمية ، فقد حدث لى ذلك عند ما طلب منى كوتون Cotton أن أعيد تجربة «مليكان» قبل أن أبدأ دراسة حركة الكرات الصغيرة فى السوائل ، وكان ذلك مصادفة فى ذات الغرفة التاريخية التى حدد فيها جان بيران شحنة الألكترون .

* * *

رُبَّ سائل يسأل مالنا وللألكترون ، هذا الكائن الضئيل ؟ ولماذا نخصه بهذه العناية ؟ مع أن جدول مكونات الكون يحوى جسيمات أخرى هى بدورها غاية فى الضآلة وتختلف خواصها عن خواص هذا المخلوق الحائر فالذين يدرسون الذرة أو الذين طالعوا مقالنا السابق يعرفون وجود البروتون والنيترون والنيتريتو والبوزيتون والفوتون والميزترون . إنما أردنا أن نخص الألكترون بالذكر لننبه الأذهان إلى أمرين :

الأمر الأول — إن المادة التى نعرفها واعتدناها ، المادة التى نشيد بها مدننا وكلياتنا ونطبع بها كتبنا ، المادة التى تكون أجسامنا فى الحياة بل تكون أجسادنا

---

(١) اذكر للذين يهتمون بذلك أن كثافة الأرض ٥ر٢٤ .

(٢) إنك فى الليل لا ترى النجوم والكواكب بذاتها إنما تلاحظ مواضعها .

فى الرمس بعد الممات ، هذه المادة مكونة من بعض المكونات السابقة ومن هذه الألكترونات ، أى إنها مرتبطة بعلاقة كبرى مع الكهرباء التى تُنير مصابيحنا ليلاً وتُدير مصانعنا نهاراً .

الأمر الثانى — إن الضوء ، وهو من أهم الظواهر لنا فى الكون إذ به نرى أنفسنا ونرى الأشياء ، هو بدوره أمواج كهرومغناطيسية . وسنرى أن لانبعاثه علاقة بهذا الألكترون الحائر الدوار .

ومن هنا نفهم للألكترون أهميته ، إذ بالله ماذا يبقى من هذه الدنيا لولا المادة التى هى الكهرباء ، ولولا الضوء الذى مرجعه المادة ؟ وسنرى فى الحال هل لفت الألكترون نظر العلماء ؟ ، وماذا أفادوا حين فطنوا إليه .

لقد استرعى الألكترون انتباههم ، فشغل به الألوف من العلماء وطلاب البحث العلمى . وبقدر تقدم العلم التجريبى باحثاً عنه بقدر ما كان تقدم العلم النظرى ، وكثيراً ما حدث أن غذى أحدهما الآخر ، بحيث إنه يمكننا أن نعتبر أن معارفنا عن الألكترون هى نتيجة لتعاون وثيق بين إبداع العلم التجريبى وقوة العلم النظرى .

* * *

تُرى هل وضع الفيزيائيون نماذج يستوعبون بها حركة الألكترون حول النواة فى الذرة ؟ وهل اتفقت بعض نتائج العلم التجريبى وهذه النماذج ؟ بمعنى أنه هل باتت معروفة لدينا مواضع الألكترون الحائر فى المكان وفى الزمان ؟ وما الذى ينتج من أوضاعه المختلفة من ظواهر كونية ؟ هل تحققت هذه المعرفة أم ما زال هذا كله فى باب الحدس والتخمين ؟ هذا ما نتناوله بالبحث والاستقصاء .

لعل أول خطوة فى هذا السبيل هى للعالم الإنجليزى « رذرفورد » الذى نظر إلى الذرة عالماً شمسياً وجسيمات منفصلة بين بعضها وبعض قوى للجذب تتعادل مع القوى الصادرة عن المركز الخاصة بحركة جسيماتها الدورية ، وتشبه هذه القوى تلك القوى الموجودة بين الشمس والسيارات التى تدور حولها . فهذه السيارات لا تندفع إلى الشمس ولا تهرب منها . ولا يختلف نموذج رذرفورد فى الذرة عن النموذج الشمسى إلا أن طبيعة القوى المؤثرة فى الذرة كهربائية فى

حين أن طبيعة القوى المؤثرة فى الكواكب هى الجاذبية النيوتونية المعروفة (١) .

إن الفيزيائيين النظريين اليوم مجربون حتى فى نظرياتهم ، فهم يبدءون بفروض لكنهم ينتظرون أن تحقق التجارب هذه الفروض .

ولنبحث مليًّا هل احتفظ فيزيائيو هذا العصر بنموذج رذرفورد الشمسى ؟ لنتأمل المغزى الفيزيائى للضوء المنبعث من مصباح أو من قطعة من ملح طعام وضعناها فى اللهب ، ونتأمل الحوادث الواقعة فى الذرات المكونة لهذا الملح .

لكى تستطيع الذرات المادية أن تبعث ضياءها يجب علينا أن نُهيِّجَها فنضع قطعة الملح على لهب مصباح « بنزن » مثلاً ، فتأخذ هذه القطعة من الملح لوناً أصفر تراه العين ونراه فى المطياف spectroscope ، وهو جهاز خاص بتحليل الضوء . إن هذا اللون الأصفر هو فى الواقع رسالة منبعثة من الحدود الخارجية لذرة ملح الطعام ذاتها . كذلك إذا أدخلنا أثراً لغاز الهيدروجين فى غلاف زجاجى مفرغ من الهواء وأحدثنا بين طرفى الأنبوبة تفريغاً كهربائياً تحت ضغط كهربائى عال ، فإن الغاز يتلون داخل الأنبوبة ويبعث إلى العين ألواناً مُعيَّنة كتلك الألوان التى تراها ليلاً من أنابيب النِّيون الوهاجة ذات اللون الأحمر البديع والمستخدمة ليلا فى الإعلانات وعلى دور السينما . هذه الألوان بدورها رسالة عظيمة أتت من الحدود الخارجية لهيكل الذرة .

وترانا مضطرين أن نشير بلمحة سريعة للتحليل الطيفىّ فنقول : لكى نحلل الضوء المنبعث من أى منبع نستخدم ما يُسمى بالمطياف ، ويتركب من منشور زجاجى وثلاث أنابيب رئيسية موضوعة أمام المنشور ، إحداهن تستخدم لادخال الضوء المراد تحليله وتسمى بمُجَمِّع الضوء . والثانية تستخدم فى رؤيته بعد مرور تحليله فى المنشور وتسمى المنظار « التلسكوب » . والثالثة تستخدم للقياس إذ بها مسطرة مدرجة تدريجاً دقيقاً ، وهى تضاء من الخارج ، كما توضع بطريقة تنعكس فى التلسكوب فنستطيع تقدير مواضع الألوان أو الخطوط الطيفية المختلفة ، هذه المواضع تحدد لنا ما نسميه أطوال أمواج

---

(١) للعالم الكبير البرت أينشتاين A. Einstein اعتبارات جديدة عن الجاذبية لا مجال لذكرها الآن .

هذه الألوان ، بحيث إذا ضيقنا فتحة الأنبوبة التى يدخل منها الضوء ظهر الطيف على شكل خطوط منفصلة الواحد منها عن الأخرى .

ولقد اتضح أن لكل مادة خطوطاً معينة تتميز بها ، وهذه الخطوط الطيفية [1] رسائل هامة من داخل الذرة فللهيدروجين خط واضح فى الأحمر واثنان فى الأزرق وآخران فى البنفسجى . وللبوتاسيوم خطان فى الأحمر وآخر فى البنفسجى . وللصوديوم خط واضح فى الأصفر يتبين فى التحليل الدقيق أنه خطان متجاوران .

ولقد تقدمت هذه الناحية من العلم لدرجة أصبح فيها التحليل الطَّيْفِى طريقة دقيقة للتعرف على وجود العنصر الكيميائى فى المادة الموضوعة تحت الفحص مهما صَغُر المقدار منها ، بمعنى أنه إذا أخفقت الوسائل الكيميائية فى التعرف على وجود أثر قليل جداً من عنصر معين فإن التحليل الطيفى يجزم بوجود هذا الأثر إذا ظهرت الخطوط الطيفية المميزة لعنصره ، بمعنى أن التحليل الطيفى أضحى وسيلة أدق من الوسائل الكيميائية .



طيف القوس الكهربائى للفحم
من كتاب الفيزياء لمؤلفه سبرنجر (Springer) المجلد ٢١ برلين

وفى الصورة نرى مثالا من التحليل الطيفى لقوس الفحم الكهربائى المستخدم فى الفانوس الذى يطلق عليه الفانوس السحرى ؛ فانه بتحليل الضوء الواقع من الشرارة الحادثة من اقتراب طرفى الفحم عند مرور التيار الكهربائى نحصل على هذه الخطوط الطيفية .

---

(١) إننا لا ندخل فى تفاصيل خطوط الامتصاص وغيرها من الخطوط الطيفية .

***

لقد ألمعنا بشيء عن الخطوط الطيفية . ولنبحث الآن علاقة هذه الخطوط بالذرة ذلك العالم الشمسي الصغير الذي تحدثنا عنه . ويفترض لذلك العالم الكبير « لورنتز » حركة ذهاب وإياب للألكترون داخل الذرة لاحركة دورية حول النواة . ويقرر الفيزيائيون اليوم أن مثل هذه الحركة في الذهاب والمجيء تسبب انبعاثاً لموجات كهرومغناطيسية هي الموجات الضوئية ، وذلك بمقتضى نظريات معروفة لمكسويل بحيث إن عـدد الذبذبات لهذه الموجات هو عدد ذبذبات الألكترون داخل الذرة ، ومن هذا يمكن أن نستنتج طول الموجة لخط طيفي معين .

ولقد أدى حساب لورنتز إلى نتائج مرضية . من هذه النتائج أنه أمكن تفسير تكرار بعض الخطوط الطيفية بالطريقة التي يتكرر بها الصوت . إننا نعرف أنه إذا تعرض جسم لذبذبة ميكانيكية نحصل على تردد معين ، كما نحصل على ما نسميه توافقاً يعادل ضعف أو ثلاثة أو أربعة أضعاف عدد الذبذبات الأصلية ، وهكذا أمكن للورنتز تفسير تكرار خطوط الطيف . ومع ما صادفه نموذج لورنتز من النجاح فقد لقي نموذجه صعوبة في تفسير بعض الخطوط الطيفية . وعلى أية حال فهو لا يتفق مع نموذج رذرفورد السابق الذكر حيث للألكترونات حركة دورية لاحركة بندولية . وهكذا فسر نموذج لورنتز الانبعاث الضوئي دون أن يفسر الخطوط الطيفية . فهل من سبيل لهجر نموذج لورنتز والاحتفاظ بنموذج رذرفورد على شرط أن يفسر لنا الانبعاث الضوئي ؟

أو يكون للإنبعاث الضوئي ارتباط بفقدان الطاقة للألكترون في حركته الدورية ؟ إننا نعلم أن مثل هذا الفقدان لا يمكن أن يتأتى إلا على حساب تغيير في طول الحيز الذي يقطعه الألكترون . ولو أن هذا حدث لزاد عدد دورات الألكترون حول النواة .

من منا لا يعرف اليوم أن فترة الدورة الكاملة للكواكب في مجموعتنا الشمسية قصيرة للكواكب القريبة من الشمس طويلة للكواكب البعيدة عنها ، بحيث إن عطارد وهو أقرب الكواكب إلى الشمس يتم دورته في ٨٨ يوماً ، على حين تتم الأرض دورتها في سنة . أما بليتون وهو أبعد هؤلاء الأطفال التسعة فإنه لا يتم دورته حول الأم وهي الشمس إلا في ٢٤٨ عاماً .

وعلى هـذا الأساس لو أردنا أن نحتفظ بنموذج رذرفورد من أن الألـكترون يدور حول النواة و نفسِّر فى الوقت ذاته الانبعاث الضوئى فإننا نواجه صعوبة كبيرة هى تعديل فى فترة الدورة ، وبالتالى زيادة فى تردد الضوء أى تغيير فى طول الموجة ، وذلك بحالة مستمرة ، وهو ما ليس حادثاً . من هنـا نشأت صعوبة كبيرة فى تفسير الانبعاث والإشعاع الضوئى مع التمسك بنموذج رذرفورد الذى يميل إلى التمسك به فريق كبير من العلماء المعاصرين .

وسنشرح فى مقال قادم الـكيفية التى تغلب العلمـاء فيها على هذه الصعوبات فنأتى على ذكر الأعمال الخالدة التى قام بها عالم معاصر هو نايلز بوهر . عند ذلك يعلم القـارىء أن للألكترون الحائر وثبات فى عالم الذرة ، وثبات لم تحدث على الأقل لعالمنا الأرضى .

محمد محمود غالى

عيونكِ الزرق..

ما فارقَتْني منذُ ودّعتُها عيونكِ الناعسةُ السُّوَّمُ
مُحلقاتٌ مثلما حملقَتْ آخرَ ما حيّاكِ مِنّي فم
نبّهها تقبيلها بَغْتةً فالتفتَتْ نجلاء تستفهم
مستشرِفاتٍ ما رَنَتْ مثلَها قِدّيسةٌ لله تسترحم
مِن لازَوَرْدٍ صاغ تكويرَها مَن فوقَنا تكويرُه الأعظم (1)
لوْزيّةُ الآماقِ ، مكحولةٌ أجفانُها ، مسقومةٌ تَسقم
أهدابها الوَطفَا طفا ظلها على خدودٍ خانها العَنْدم (2)
ولحظُها الذاهل مسترسلٌ أجوفُ لا يُبدي ولا يكتُمُ
شاخصةٌ ما رفّ جِماقُها ساجيةٌ كأنها تحلم
كأنّ رؤيا قد تراءتْ لها فأثْأرَت ترقُب ما يُلهَم (3)
رؤياكِ نورانيةٌ ، سِرُّها في النُّحْلِ معكوس النّنا يُرسم
نوافذي للخُلْد هذي التي حجّبها سِتْرُ الردى المظلمُ
تفتحها الذكرى ، ولكن كما يُفتح عن كُوّاته المَجْحَم (4)

عبد الرحمن صدقي

(1) اللازورد : معدن يتخذ للحلى ذو زرقة شفافة صافية .
(2) الوطفاء : الكثيرة الشعر . العندم : صبغ أحمر .
(3) أثأر نظره أحدّه .
(4) المجحم كالجحيم : مكان النار الموقدة المتأججة .

من هنا وهناك

عودة فرنسا

عاش الكاتب الانجليزى « تشارلز مورجان » زمناً فى فرنسا فأحبها حب من عاشر أهلها عن كثب ، ودرس ثقافتها عن تعمق وفهم . ولقد كتب عنها كثيراً ودافع فى عدة مقالات عن رسالتها التى أدتها وما زالت تؤديها للمدنية الانسانية . ومن أحدث ما كتب قصة شائقة سماها « الرحلة » أصدرها سنة ١٩٤٠ وقد أهداها إلى « رجل وامرأة من فرنسا » لم يسمهما ، وكل ما وصفهما به أنهما عاونا على تمكين حب فرنسا من نفسه . وهو يأسف إذ قطعت المحنة التى تجتازها فرنسا ما بينهما من صلات وحالت دون وصول هذا الكتاب إليهما . ولكن فرنسا كما يقول «فكرة لا يمكن للمدنية الانسانية أن تفرط فيها» . وفى عام ١٩٤٤ أصدر كتاباً سماه صوراً تعكسها المرآة . فيه عدة مقالات متفرقة فى موضوعات مختلفة ، منها مقال عن عودة فرنسا كتبه فى ٢٨ نوفمبر سنه ١٩٤٣ صور فيه حقيقة هذا البلد فى وقت نظر الناس إليه نظرة إقلال من شأنه بسبب أحداثه السياسية . ولطرافة هذا المقال وما فى آرائه من إخلاص ووفاء رأينا أن ننقله إلى قراء « الكاتب المصرى » .

ترى لو اجتمع إنجليزى وأمريكى وفرنسى فى مقهى من تلك المقاهى التى تواجه كنيسة « نوتردام » فى باريس وقد انقضت أعوام وأعوام على هذه الحرب ، فنظروا إلى الكنيسة تخترق صفو سماء ليلة من ليالى يونيو ، فقال أحدهم : « لقد حانت للمدنية الانسانية فرص إذ ذاك . . . » ثم أنصتنا نحن من خلل الأعوام التى طوتنا وطوت زماننا فماذا نسمع إنهاءاً لتلك الجملة ؟ أيقول : فانتهزتها أم يقولون : ولقد أفلتت منها ؟ وماذا يا ترى يكون شعور كل منهم نحو الآخر ؟ ماذا يحس الفرنسى ساعتئذ نحو رفيقيه ؟ وما يشعر الأمريكى والانجليزى نحو فرنسا ؟ أيكون شعور سائح أتى ليتطلع إلى آثار فرنسا دهشاً عجباً لا يفقه شيئاً ولا يستسيغ معنى ، أم شعور سائح أتى بلداً أحبه لأنه عرف مدنيته معرفة حقة وأشرب قلبه حباً وإجلالا لهذا الذى قد عرف ؟

لا شك أن بين الامريكى والانجليزى والفرنسى اختلافات فى المزاج والطبع من العبث أن تنكرها . بل إن الفرنسى أقل الناس انخداعاً بما يبديه الأمريكيون والانجليز من ضروب الذوق واللياقة يخفون بذلك ما يتعصبون من أجله ضد فرنسا وما ينقمونه عليها . ففى عام ١٩٤٠ سلمت فرنسا ، وكان شعبها كالأمريكيين والألمان يعتقد أن إنجلترا لا بد مسلمة هى أيضاً . وصرح أولو الأمر فى فيشى ولم يكن ذلك أثراً لارهاق أو ضغط عليهم ، أنهم يرجون بنصرة ألمانيا . بل لقد صرح بعض الكتاب الفرنسيين اللاجئين إلى أمريكا ، فى ظل ما أسبل عليهم من حرية ورعاية ، بانتصارهم لقضية ألمانيا . وما يمكن أن يغتفر للتجار والساسة لا يمكن أن يغتفر لكاتب ؛ فالكاتب رسول رسالة سماوية عليه أداؤها . إنه كرجل الدين ليس من حقه أن يقصر فى أداء رسالته . فللناس جميعاً أن يساوموا فى أمور دنياهم ، ولكن ليس لحامل رسالة الفن أن يفعل شيئاً من ذلك . لقد ارتعشت فى تلك المحنة يد الكثيرين من رسل

الفن فى فرنسا دون ريب . ولكن أيكون هذا سببا فى أن نتنقص من قدر فرنسا ؟ إننا لو بدأنا نعدد مساوىء فرنسا لنقارنها بمساوئنا أو لنزنها بمحاسنها لنرى أى الكفتين ترجح لفتحنا باب نقاش ممل سخيف لا نهاية له ، ولبعدنا عن جوهر المشكلة الحق التى تواجه فرنسا بها العالم اليوم .

فليست الامة فيما تسديه للمدنية بمجموع أفرادها ، فما هم إلا جيل من أجيال أبنائها فى الماضى والحاضر والمستقبل . وهى ليست فى ذلك بحكومتها ، فالحكومة هيأة وقتية مفتعلة متكلفة . وإنما هى بفكرتها التى تمثلها . وكما أن للانسان حقيقة ليست فى ملامح وجهه أو صفاته أو فيما يأتى به من أفعال مختلفة إن خيراً وإن شراً ، وهذه الحقيقة هى شخصيته التى تملى عليه كل هذا وتلونه ، فكذلك للأمم شخصيتها أو فكرتها التى تميزها من سائر الأمم والتى بفضلها تقدم للمدنية نصيبها من الرقى والتقدم . ولفرنسا فكرة يجب أن نتبينها وسط هذا الغمام من حوادث الحرب ، فاذا نحن أخفقنا فى أن نتبينها لم نجرم فى حق فرنسا وحدها ، وإنما نجرم فى حق أنفسنا وحق المدنية الانسانية كلها .

إن فى الرجل السياسى ميزة لا أجد لها اسما أقرب من أن أقول عنها إنها لباب الحنكة السياسية . هذه الميزة هى التى تجعل السياسى لا ينظر إلى الانسانية اليوم أو غداً وإنما هو ينظر إلى لبابها ويقدر تبعته نحوها لا بالأجيال ولكن بالقرون . إن مهمة هذا المحنك السياسى هى أن ينظر إلى نهر المدنية فيصون مجراه وينقى عنه كل ما قد يجرفه التيار إليه من سموم وأوحال ، يرفع السدود حتى لا يقف جريان النهر ، ويحول مجرى النهر إذا رأى من التربة ما يجب أن يرويه ، ويجاهد فى سبيل أن يظل النهر وحدة كاملة لا يعتوره انقسام ولا يصيبه ضعف أو هزال . إنه لا يرى الماضى والحاضر والمستقبل تعاقب أزمان وتتابعها ، وإنما هو ينظر إليها جميعا نظرة الرسام الفنان فيراها كلا فى إطار واحد يراها أجزاء من صورة واحدة . لقد يرى الممثل السياسى لأمة بصفته رجلا سياسياً ، الامم فى مصافها وما يكون بينهما من تضارب القوى إن حربا وإن سلما ، ولكنه بوصفه رجلا سياسيا محنكا مجربا يجب أن يشغل نفسه بفكرة هذه الامم أو بشخصيتها أولا وقبل كل شىء . وإن النظرتين لتختلفان اختلاف نظرتى رجل الدين والشرطى إلى أخطاء الناس وخطاياهم ، أو اختلاف نظرتى الصحفى والمؤرخ إلى حوادث الحياة ، بل اختلاف نظرتى المسجل والشاعر نحو سير الحياة وأحداثها . فبالنظرة الأولى يحاول أن يرى مظاهر الأمم وتصرفاتها ، وبالنظرة الثانية يحاول أن ينفذ إلى لب حقيقتها . فى الحال الاولى يسأل عن فرنسا ماذا عملت وماذا تعمل وماذا ستعمل . وفى الحال الثانية يسأل ما هى فرنسا ؟ ماذا كانت وماذا ستكون ؟ وما هى ألمانيا ماذا كانت وماذا ستكون ؟ وبذلك يرتفع عن ناظريه ضغط الحوادث وتخفت فى أذنيه أصوات الأحزاب ، فيرى بعقله وحسه ، فاذا حكمه أصدق وأصرح ، وإذا حبه أخلص وأثبت . فان يكن قد أحب فرنسا حقاً فانه ليراها الآن فى محنتها فيحبها كما أحبها من قبل . يرى فرنسا من خلل الأحداث فاذا فرنسا هى هى لم يتغير فيها شىء .

ما أكثر ما ينتاب الامم من تغير الأحوال بل من تغير الآراء ، ولكن شخصية الامة تظل هى هى كما تظل شخصية المرء لا تتغير ، فاذا قوته تبدو من خلل ضعفه ، وطفولته تظهر من خلل رجولته ، بل إذا الأمل يلوح من خلل يأسه . إن فكرة الامة قد تتغير ولكن شخصيتها ثابتة . والذى أخافه أن نقع نحن الانجليز فى هذا الخطأ فنظن أن فرنسا قد انحلت

فكرتها وتسممت شخصيتها لأن أبناءها قد سلموا فى يوم من الأيام . أو نظن أن فكرة ألمانيا فكرة سليمة جديرة بأن تغذى نهر المدنية الانسانية ، قبل أن تطهرها الأيام والسنون مما قد علق بها من أو حال أثراً للنظام الجديد ، لا لشىء إلا لأن ألمانيا انتصرت فى يوم من الأيام . إننا إن فعلنا ذلك فما أحرانا أن نصم آذاننا حتى لا نسمع آخر الجملة التى فاه بها أحد هؤلاء المجتمعين فى مقهى من مقاهى باريس قرب « نوتردام » : « لقد حانت للمدنية الانسانية فرصة . . . » ترى هل انتهزتها أم أنها جعلتها تمر بها فأفلتت منها .

والآن ما هى فكرة فرنسا ؟ إن أهم ما يبرز من وراء تفكير أبنائها وتصرفاتهم هى فكرة التماسك والوحدة والكل . إن الفرنسى يفكر فى الفرد ثم فى الأمة . وإنه ليتردد بطبيعته فى أن يكون عضواً فى جماعة أو نقابة أو حزب . إن نظام الأحزاب فى فرنسا بعيد كل البعد عن الثبات والاستقرار اللذين يتمتع بهما فى أمريكا وإنجلترا . والحكومات فى فرنسا متزعزعة غير ثابتة . إن الفرنسى وحده دون سائر أبناء أوربا أو أمريكا هو الذى يستطيع أن يأبى على رئيس مجلس النواب حقه فى أن يطلب الاقتراع على مسألة من المسائل أو أمر من الأمور . حتى الثورة الفرنسية أبت على الفرنسى أن يفنى شخصيته فى المجموع ؛ ففى إبان الحماسة ارتفع صوت الناقدين عاليا . والنقد الذى يسارع باخفاء رأسه فى التراب أمام أى تهديد بالقوة فى ألمانيا ، يرفع رأسه عالياً فى فرنسا ليتحدى أى سلطان . ففرنسا تريد ناقداً لكل متحمس ممسكا العنان لكل جامح — تاليران لكل نابليون ، وفولتير لكل ثورة . وهذا ما يصدم المتحمسين من الانجليز الذين يسارعون فى الاندفاع المتحمس لكل بارقة أمل تلوح فى الوصول إلى الأرض الموعودة . ولهذا الخلق عيوبه بلا شك . ولكن فلنعترف أولا وقبل كل شىء بمزيته فى ميدان السياسة . إنه ليس مجرد التسليم بالأمر الواقع وليس الغفلة عما يحدث ، بل ليس اليأس من كل إصلاح ؛ إن هو إلا حس عميق أملته التجارب بفشل الجماعات . إنه الشعور القوى بأن الحماسة المشتركة تنقص من قوة الشخصية . لذلك كثيراً ما نرى الفرنسيين يحللون الحماسة وينقدونها فى سبيل المحافظة على قوة الشخصية وتماسكها .

ويقول الانجليز منتقدين : إن الفرنسيين منطقيون أكثر مما يجب . إنهم قوم لا إيمان لهم ، إنهم لا يستطيعون أن يحلقوا فى الآفاق ولا أن يروا ما وراء الأفق البعيد . وفى اختصار : قوم قساة جامدو العواطف . فهل من الحق أن الفرنسيين قساة جامدون ؟ نعم إنهم لكذلك ، بل إنهم لكذلك فى النقد خاصة . إنهم لا يغتفرون مثلا لممثل تقصيره فى تمثيل دوره لأنه كان فى يوم ما معبود الجماهير . ولكنهم — ويجب أن نعترف بذلك — لا يمكن أن يهاجموا ممثلة لأن سنها كبرت أو لأن الدور الذى تلعبه لا يلائم سنها . إنهم لن يرحموها مسنة أو شابة جميلة أو قبيحة إذا ما قصرت فى أداء دورها ، فنى أعادته فليس لهم عليها أى اعتراض . وأما نحن فاننا على العكس من ذلك ، فمن تقاليدنا أن نترفق بشخصيات المسرح الذين جنى عليهم الدهر فذهب بجمالهم . فى مثل هذا نرى أن الفرنسيين أجمد منا عاطفة وأقسى . ولكن أليسوا فى هذا أصدق منا وأخلص للحق ؟ إنهم لا يعرفون الاحسان فى العواطف لا فى المسرح ولا فى الأدب ولا فى السياسة . فاذا العمل استحق النقد وجهوه لا للشخص الذى يقوم بالدور ولكن للدور نفسه . بذلك لا يمكن للمغنى الذى شاخ وكبر أن يجد لنفسه عيشاً فى باريس ، ولذلك انمحى التعصب لنابليون بعد سيدان . ولذلك أيضاً نجد

أن الشيء المؤكد الوحيد في خضم الشكوك التي تحيط بفرنسا هو أن الجمهورية الثالثة قد ماتت إلى غير بعث .

ولعل الاتهام الخطير حقاً هو قولنا إن فرنسا ضيقة الأفق بسبب حرصها الشديد على الوصول إلى لب الحقيقة . فانه ليقال مثلا إن تصميمها على أن تكون المعاهدات بين الأمم رسمية ، وريبتها من كل ما يقع بين الأمم من اتفاقات غير رسمية أو معلقة تلقة ، كل هذا قد أدى بفرنسا في ربع القرن الأخير ألا تقدر تفاهات السياسة وصنائرها حق قدرها . والتهمة نفسها توجه إلى لغة الفرنسيين وأدبهم . فانه ليقال عن حق إن اللغة الفرنسية وإن تكن قادرة على أن تحقق كثيراً من الجمال الفني والامتياز في الرشاقة والخفة والوضوح والدقة ، فان كلماتها عاجزة حتى في يد أمهر الكتاب عن أن تؤدي معنى غير ما قد حدده لها القاموس . وبعبارة أخرى إن الكلمة الفرنسية عاجزة عن أن تقبل في معناها ظلالا أو ألوانا جديدة . كذلك يقال ، ولعله عن حق أيضاً ، إن هذا العيب نفسه في أدب الفرنسيين . فلقد أدى أدباء فرنسا إلى العالم ثروة لا تقدر ، ولكنها تمتاز بافتقار عجيب في التصوف . حتى عند « مالارميه » Mallarmé حيث نجد العبقرية الفرنسية تكشف عن أخص مزاياها ولا نجد التصوف بمعنى الكلمة . هذه العبقرية التي ترى الحضار في الحضرة والفرد في الجماعة والوحدة التي تستطيع أن تؤلف وتجمع الكل المتنافر في واحد منسق ، هذه العبقرية التي ترى التجربة الحسية كلا تاماً متآلفاً . نعم حتى عند « مالارميه » لا نجد هذا التصوف وإن أشبه « بليك » Blake وإنهما ليسيران في سبيلين متقابلين ولكنهما لا يلتقيان . ومن يدري ! لعلهما يلتقيان هناك في اللانهائي حيث لا ندري .

مهما تكن ظاهرة الحياة الفرنسية التي نحللها فإن الخاصة التي تسيطر على كل هذه الظواهر ولا يمكن أن تخلو منها ظاهرة مهما تكن ، هي الفرار من التفكك والتحلل . هي أن ترى الأشياء على حقيقتها وأن يقارب بين بعضها وبعض حتى تؤلف كلا تاما منطقيا من متفارقات تبدو متباعدة متنافرة . وفي اختصار ، هو التوحيد والتأليف ، هو الاتمام والاكمال . إن حب فرنسا لهذا التأليف بين الأجزاء المتنافرة ، هو لباب ما قدمت للمدنية الغربية . ولهذه الخاصة وحدها قصدها الشباب من جميع أنحاء الأرض ليتعلموا بها ، لا ليتلقنوا ما تلقيه جامعاتها عليهم من دروس ولكن ليشعروا بأنهم يجدون في فرنسا المرآة التي يرون فيها أنفسهم على نحو لم يكونوا يعرفونه من قبل أو يدركونه .

إن لفرنسا عيوبها بلا جدال . ولقد برزت هذه العيوب في هذا العصر الحديث بروزاً قوياً ، فلا يمكن أحداً أن يجادل في أن فرنسا كانت خائفة وجلة ، وأن هذا الخوف قد جعلها تصرف قوتها في إعداد وسائل الدفاع إعداداً جعلته شدة الخوف مضطرباً .

وكانت فكرة فرنسا فكرة التأليف والتوحيد مهددة وفي خطر . وكان الأعداء المهددون متعصبين ، وكانت فرنسا تعبة نهكتها حرب السبعين وأثخنت جراحها حرب الألمان الثانية . وإن فرنسا لتمر بفترة من فترات خلودها ، فترة تحس فيها بالكبر وإذا العدو يهجم مرة أخرى . لقد هجم وهزم ، وكان أسلوب العدو معها منتصراً كأسلوبه في الاعداد للهجوم : أسلوب تبرز فيه فكرة المجموع يعمل على حساب الأفراد ويعمل لتفكك الشخصية الانسانية تفككا وانحلالها انحلالا تاماً . ووسيلته أن يعرض على هؤلاء المتعصبين السريعي التأثر فرصة العمل في وحدة زائفة مصطنعة طاغية .

إن الفناء فى المجموع فى حياة الأمم كالجنون أو كانحراف العقل يصيب الأفراد . إنه ليحطم كل قيمة إلا قيمة القوة ، ويمحو كل فضيلة إلا فضيلة الطاعة . إنه تسميم لكل تفكير أو تعقل ، وخنق لكل إيمان يمكن أن ينقد التعصب المتفانى . وإن ما ينتج عن هذا من إلغاء لميزان العقل وقدرته بوساطة هذا الميزان على التمييز بين الطيب والخبيث لجريمة لا يمكن أن يقاس بها شىء من فظاعات النازية . إنها جريمة إفناء الروح الانسانى . وما زال هناك من الطيبين والطيبات من يظنون أننا إنما نحارب مطامع جماعة جشعة ، أو أن فرنسا تمتحن محنتها فى سبيل مطامع عصابة يجب أن تفنى ، فيغفلون بطيبة قلوبهم عن أننا إنما نحارب وحشاً ونقاتل غولا قد طغى على روح أمة فأفسدها ، فأرادت بدورها أن تفسد العالم حولها . ولكن الحق يكتب اليوم فى فرنسا ، ألا فليقرأه كل من أراد أن يقرأ . ففى بولندا التى لم تكن مركز فكرة التوحيد والتأليف فى يوم من الأيام والتى لم تنظر إليها ألمانيا إلا على أنها عائق طبيعى فى سبيل التوسع شرقاً ، كان الأسلوب المتبع فى التغلب عليها هو الإفناء والقتل ، وكان ذلك كافياً . ولكن فى فرنسا ، فرنسا الأمينة على المدنية الأوربية كلها ، كانت السياسة المتبعة شيئاً آخر غير الافناء والقتل : كانت التفرقة والاذلال والافساد والاستعانة بالبعض على البعض الآخر . فاذا استطعنا بالقوة المادية أن نخرج الألمان من أرض فرنسا ، فان تلك السياسة ستظل على نحو ما قائمة فيها . إن ألمانيا لا تحارب من أجل النصر المادى وحده ، ولكنها تريد أن ينتصر التفكك الروحى والانحلال المعنوى .

وإن المسيحية لتأبى هذا التفكك ، وإن العدل الرحيم الذى يرفع لواءه القانون وهو لباب الديمقراطية الانجليزية ليأبى ذلك هو أيضاً ، وإن فكرة التأليف والتوحيد التى تنطوى عليها فرنسا لألد أعدائه . لذلك كانت فرنسا ضرورة لنا لا يمكن أن نفرط فيها . ولذلك كانت فرنسا إذا حطمت ضرورة لألمانيا لا تفرط فيها . إن معاملتنا لفرنسا لامتحان لفراستنا وحكمتنا . فكل أمة أمريكا كانت أو انجلترا او ألمانيا ترى إذا ما تطلعت فى وجه فرنسا خطوطاً لو استطاعت أن تقرأها لعرفت ما قد كتب لها أو عليها .

سهير القلماوى

رأى فى حدوث اللغة ونشأة الحروف

هل فكرت يوماً ما فيما للغة المنطوقة من جلال الشأن ؟ إن التمدن يصبح شيئاً تافهاً حقيراً ، لو لم تكن الكتابة التى تمكننا من نقل آراء واكتشافات الماضى السحيق إلى الأجيال المقبلة .

أما إذا عدمنا اللغة المنطوقة فقد عدمنا كل شىء ، وأصبحت الحياة وجوداً مجرداً لا خير فيه ولا غناء .

فاللغة المنطوقة هى الوسيلة التى نستطيع بها أن ننقل أفكارنا إلى الآخرين ، وان نستفسر عما نريد ، وأن نصف ما يخالجنا من إحساس وشعور .

وفيما يلى سنقص قصة اللغة المنطوقة ، وقصة اللغة المكتوبة ، وما نالها من تطور منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا .

إن اقدم اللغات المكتوبة ليس لها أبجدية من أى نوع . ولكنها تعبر عن نفسها بمجموعة من الصور التى تمثل الأشياء والأفكار .

وقبل أن تكون أية لغة مكتوبة كانت هناك لغة منطوقة . أما أصل هذه اللغة المنطوقة فعلمه عند علماء اللغات ، وعلمهم فى هذا قليل لا ينقع غلة ولا يشفى غليلا . ولهم فى هذا العلم القليل نظريات مختلفة .

ويجب ألا يغرب عن بالنا أن اللغة ليست شيئا يولد معنا ، بل هى شىء يجب أن نتعلمه كما نتعلم كيف نكتب . وبرهان ذلك قائم فى حالة الأطفال الذين يولدون صما . ذلك أن الذين يسمعون يستطيعون أن يقلدوا فى سهولة ويسر ما يسمعونه ممن هم أكبر منهم سناً . ولكن الأطفال الصم ليسوا بقادرين — بحكم فقدانهم حاسة السمع — على ان يتعلموا الكلام بغير مرانة خاصة وتدريب طويل .

لغة العيون

كنا فى الماضى نسمع الشىء الكثير عن الصم والبكم . أما الآن فاننا نعلم أن الموصوفين بهذه الصفة ليسوا بكما إنما هم صم ليس غير . ولذلك فاننا نسميهم الصم — البكم .

وهم فى أغلب الحالات أوتارهم الصوتية لا عيب فيها ولا نقص . فاذا تعلمت عيونهم أن تراقب حركات فم من يكلمهم أمكنهم أن يتعلموا الكلام ؛ وإن كان معروفاً أن تعلم الكلام بطريق الأذن هو أسهل وأيسر من تعلمه بواسطة العين .

ولكن الأطفال الصغار وكذلك الصم البكم يستطيعون أن يعبروا عن رغباتهم بغير الكلمات . وطريقة التعبير التى اختصوا بها هى طريقة الاشارة والايماء ؛ فهم يشيرون إلى الأشياء التى يشتهونها ، وهم يصدون عن الأشياء التى لا رغبة لهم فيها . وهم يبتسمون لمن يحبون ، وهم يعبسون فى وجه من لا يحبون .

والرأى عند بعض العلماء أن لغة الايماء والاشارة قد سبقت لغة الكلام .

ولغة الايماء والاشارة مازالت سائدة حتى يومنا هذا بالرغم من تقدم لغة الكلام ووصولها إلى ما يقرب من درجة الكمال .

وهذا مشاهد وواضح كل الوضوح عند الوعاظ والساسة . بل هذا واضح حتى فى الأحاديث العادية التى نستعمل فيها الاشارة لتوكيد كلماتنا وتوضيحها .

ومن الثابت أننا لا نعرف معرفة يقينية هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن يستطيع الكلام إطلاقاً . ولكن الثابت ثبوتاً لا شك فيه أن الانسان فى عصوره الأولى كان يستعمل قليلا من الكلمات .

وإننا لنجد فى عصرنا هذا أن لغة الشعوب التى هى أقرب إلى الهمجية لا تتعدى مجموعة ضئيلة جداً من الكلمات بحيث لا تجوز المقارنة بينها وبين لغة كالانجليزية مثلا ؛ فان قاموس اكسفورد الكبير يحتوى ٤٠٤٨٢٥ كلمة مختلفة وضع أمام كل منها تعريفها . ويبلغ مجموع الكلمات مضافاً إليها شرحها خمسين مليون كلمة .

وقد قيل إن مجموع كلمات اللغة الانجليزية ٧٠٠٠٠٠ كلمة . . ولا يستطيع أحد — بالطبع — أن يستعمل كل هذه الكلمات . ولا نستثنى كبار الكتاب والأدباء .

وقد استعمل شكسبير مايقرب من ١٥٠٠٠ كلمة . ولكن الفلاح أو العامل الأجير لا يعرف من اللغة غير ٨٠٠ كلمة ، ويستعمل أكثرنا بضع آلاف من الكلمات .

لغة الايماء

يقول العلامة سايس[1] : إن لغة الايماء هي أول طريق اكتشف للتفاهم بين الناس . والهنود الحمر قد برعوا في هذا النوع من اللغة ، وكذلك سكان جنوب إيطاليا هم جد مغرمين بلغة الايماء وبخاصة أهل نابلي وأهل صقلية . وكذلك التجار يستطيعون أن يتفاهموا فيما بينهم دون أن ينطقوا بكلمة من الكلمات .

ومن الاشارات البسيطة التي يعرفها كثير منا : إغماض العين وحنى الرأس مستندة على اليد دلالة على النوم . ومنها الرجفة دلالة على الخوف . ومنها إخراج اللسان دلالة على التحقير .

ولكن لغة الايماء تستطيع أن تأتي بالعجائب . وقد قص المستر جلوديت[2] — وهو من أشهر من تولى تعليم الصم — قصة عجيبة تبين لنا قدرة تلك اللغة على حسن الأداء . قال :

زارني في مدرستي أحد نوابغ الفنانين ، فأثنيت أثناء حديثي على ذكاء أحد تلاميذي من الصم وقدرته على قراءة أسرة وجه مخاطبه ، وتفسير خطوط جبهته . فطلب مني الفنان إقامة الدليل ، فطلبت إليه أن يختار أية حادثة من حوادث تاريخ اليونان أو الرومان أو الانجليز أو الأمريكان من تلك الحوادث التي يمكن شرحها بالتمثيل النظري والتي يمكن رسمها على لوحة التصوير .

فقال الفنان : قل له إن بروتس قد حكم على ولديه بالاعدام لوقوفهما في وجهه ولأنهما عصيا أوامره . وكان التلميذ على علم بأهم حوادث التاريخ الروماني ، ولكنه لم يكن يعرف أية حادثة سنتخذها موضوعا لحديثنا معه .

فبدأت الامتحان بالاشارة المعروفة عند معلمي الصم كرمز على الرجل الروماني وهي الأنف الأقنى . ثم رفعت عيني إلى أعلى ثم إلى أسفل وحركت رأسي إلى وراء مرات متعددة ، لأدل على أن الحادث من الحوادث القديمة .

ثم رسمت بوساطة ملامح وجهي صورة توحي إلى ذهن التلميذ أن صاحبها الذي أعنيه كان رجلا بأمر فيطاع ، وأن مخالفة أوامره قد تؤدي بمخالفه إلى المشنقة . ثم تتابعت الصور التي رسمتها بملامح وجهي ممثلا حنان الوالد ورجوعه في الحكم الذي أصدره باعدام ولديه ثم تغلب حب السلطة الذي جعل قلب الوالد يقسو قسوة القانون فينفذ حكم الاعدام في الولدين . فلما انتهيت من تمثيلي بادر التلميذ إلى لوحه فكتب عليه القصة كاملة لم يخرم منها حرفا . . .

لغة الاصابع

وهناك لغة الأصابع . وقوامها إشارات بالأصابع أجازها العرف لتقوم مقام الأبجدية المعروفة .

---

(١) العلامة أرشيبلد سايس ١٨٤٥ — ١٩٣٣ أحد العالمين باللغات من الانجليز . من مؤلفاته كتاب النحو الأشوري المقارن . وكتاب الديانتين المصرية والبابلية .

(٢) توماس هوبكنس جلوديت ١٧٨٧ — ١٨٥١ معلم أمريكي شهير بقدرته على تعليم الصم والبكم .

كيف تطورت لغة الكلام

للعلماء فى ذلك نظريات عدة ، منها : نظرية الاستخفاف والسخرية . وقوام هذه النظرية أن اللغــة بدأت بمجموعة من أصوات التعجب المنبعثة من شعور الألم أو شعور السرور أو شعور الدهش .

ونحن نجد فى اللغة الانجليزية الكلمات الآتية : Ah! Oh! Pooh! Ho. Hi. ويمكننا أن نستدل من ذلك أن كثيراً من الكلمات نشأت بهذه الطريقة . فمثلا كلمة Pooh تأتى من النفخ بالشفتين علامة التحقير .

ومنهــا نظرية الجؤار والخوار The Moo Moo Theory وقوام هــذه النظرية أن اللغة بدأت بتقليد الأصوات الطبيعية . وللتمثيل لتلك النظرية ذكروا كلمة Hiss للدلالة على الصفير والفحيح وكلمة Click للدلالة على دقة الساعة .

والأطفال فى بلاد كثيرة ومنها انجلترا يسمون الكلب Boow-Wow تقليداً لنباحه .

وهناك نظرية العــلامة مكس مللر (١) المعروفة بنظرية الطنين أو نظرية دق الأجراس Ding-Dong Theory وهى نظرية تقوم على فرض أن الانسان عنده ملكة الاستنباط ، فهو يستنبط تعبيراً صوتياً لكل صوت يحدث فى مخه هزة وقد اختفت تلك الملكة لما تقدم الانسان وأصبح لا حاجة له بها . وكل هذه النظريات صحيحة إلى حد كبير . ولــكن إحداها أو جميعها لا تستطيع إقناعنا إقناعا كافيا عند ما نريد أن نعرف أصل لغة الكلام .

وكل ما نعرفه هو أن الانسان حيوان ناطق منذ العصور الأولى ، وأن لغته قد ارتقت واتسعت بمرور الزمن .

كيف نشأت الكتابة

كانت الصور ترسم لتمثل الأشياء التى تصورها ، وكان هذا يسيراً سهلا فلما أراد الانسان أن يصور الخواطر والأفكار كالفضيلة والتقوى والمرض ، لجأ إلى طريقة رسم مجموعة من الصور تؤدى فى مجموعها معنى الفكرة أو الخاطر . وقد تطورت هذه الصور وظهرت فى أسمى حللها فى مصر القديمة التى خلفت لنا أجمل لغة مصورة وأوفاها . فكانت النحلة مثلا رمزاً لأبهة الملك ، وكذلك رمزاً للجد فى الصناعة . وكانت الحزمة من ورق البردى رمزاً للعلم والمعرفة .

الأبجدية

ثم تتابعت العصور وظهر رجال أذكياء عرفوا ان جميع الكلمات إنما صنعت من مجموعة

---

(١) مكس مللر ١٨٢٣ — ١٩٠٠ ولد بألمانيا ثم تجنس بالجنسية الانجليزية وأصبح من الانجليز العالمين باللغات ثم صار أستاذاً للغات الأوروبية الحديثة فى جامعة اكسفورد . ومن مؤلفاته كتاب كتب الشرق المقدسة ، وكتاب تاريخ الآداب السنسكريتية القديمة ، وكتاب علم اللغة .

قليلة — قلة نسبية — من الأصوات فرسموا علامات تدل كل علامة منها على واحد من تلك الأصوات . وكان هذا مولد الأبجدية . والعالم كله مدين بهذا لمصر القديمة .

وكانت هذه العلامات أول أمرها فيها صعوبة وفيها تعقيد ، ثم بسطها المصريون ، وجاء من بعدهم الفينقيون فزادوا الحروف تبسيطاً ، ثم نقلوها إلى الاغريق الذين علموا الرومان تلك الحروف .

نقلت عن الانجليزية — مبارك ابراهيم

من ذكريات أيام الاحتلال فى فرنسا

كيف السبيل إلى وصف سأم هذه الأيام المضنى ! كنا نحس كأن الدم يسرى فى قلوبنا سرياناً بطيئاً ، وكأن الحياة تخمد فينا شيئاً فشيئاً . كان على الذين قدر لهم ألا يجازفوا بحياتهم ويجاهدوا جهاد الأبطال ، أن يواصلوا العيش والثقة والأمل ، وأن يكون النصر النهائى رائدهم الذى به يحتملون الحياة .

ولن أذكر مما يرد على الفكر من ذكريات تفعم القلب كله سوى ما اتصل بحياة كل يوم ، هذه الحياة التى كنا نحرص عليها بكل ما فينا من قوى ضعيفة محطمة ، كنا نشعر بتحطمها إذا ما استيقظنا فى الصباح على صدى نعال الجند تدوى وهم يضربون الأرض بأقدامهم ضرباً وسمعنا أناشيدهم العسكرية التى كان ينقبض لها القلب ويتأذى ، وشاهدنا من خلف النوافذ فى يأس وأسى أعلامهم السوداء والحمراء البغيضة .

أماعن هذه الجموع المصطفة التى كانت تقف ساعات لاتنقضى أمام حوانيت مغلقة أو فارغة ، أما عن أولئك الصبيـة الشاردين الذين كانوا يبيعون فى سراديب « المترو » بطاقات الخبز المسروقة وقد ارتسمت على وجوههم المتعبة الناحلة آثار الجوع والحرمان ، فلا أتكلم كما لا أتكلم عن أولئك المساكين الذين أدركهم الهرم ، وأخنى عليهم الدهر الذين كانوا يلتقطون من القمام قشور الخبز اليابس وبقايا الطعام ليلتهموها التهاماً . لا ! لا أريد أن أتحدث عن هذه الصور الأليمة ، وإنما أريد أن أتحدث فقط عن بعض أشياء تتصل بحياتنا العقلية كنا نجد فيها ما يبعث فينا الصبر ويحيي الأمل ويساعدنا على الانتظار .

وأفكر قبل كل شىء فى المعارض المعدة التى كانت تقام لنا لتحدثنا عن ماضينا الجليل . وكنا نرى فى هذه المعارض الفن الفرنسى يتجلى فى أروع آياته ونحن ننقل آثار بعض نوابغ الفن فى القرن السادس عشر وآثار نوابغه فى القرن العشرين . وأفكر فى هذه الحفلات التمثيلية التى كان الباريسيون يحيونها فى قاعات باردة لادفء فيها ويقبلون عليها أشد الاقبال وكأنهم أشد افتتاناً بالمواضيع الجدية الرصينة . ويتبادر إلى ذهنى فى الحال إذا ما فكرت فى هذه الحفلات صور بعض الأبطال وبصفة خاصة صورة « أنتيجون » بطلة قصة الكاتب « جان أنوى » Jean Ano ثم « جان دارك » بطلة قصة الكاتب بجى « Peguy » وكيف كانتا تلتهبان حماسة وتتحدثان عن البطولة إلى شعب كانوا يبذلون الجهد فى تعليمه أن يزدرى نفسه . ثم أفكر فى صورة جان دارك للكاتب « ڤرموريل Vermorel » وهى عنـدى أدنى إلى الانسانية ، أراها وهى تلهج وتصيح من أعماق سجنها بحبها للحرية .

ثم أفكر فى هذا الحى اللاتينى الذى فارقته حياة الصخب والعنف والمرح وغدا يسود فيه الهدوء . على أننا كنا ندرك أن خلف جدران الكليات كانت حياة العلم تستمر عنيفة يقبل عليها الشباب فى حماسة بالغة ، فكنا نفكر أن حياة العلم على الأقل لم تنقطع ، وندرك أنه لا يمكن أن تنقطع أبداً .

وقد غدت حياة الطلاب من بعد يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٠ شاقة عسيرة مهددة ؛ فقد أغلقت جميع الكليات فى ذاك اليوم وانتشر بين الطلاب هذا الخبر المروع الذى لا بس قرار الاغلاق وهو القبض على كل من لا عمل له ونقله عنوة إلى ألمانيا . ولقد رأينا حينئذ هذه المعجزة تحدث وهى أن كل طالب أمسى وأصبح وله عمل منتظم . فلما رأت السلطات ذلك عمدت تنظم الترحيل إلى ألمانيا . على أن ذلك لم يجد فان الأغلبية الساحقة من الشباب رفضت الرحيل ، ونشأ عن رفضهم حوادث أليمة وأمور معقدة .

أما هذا الخط الفاصل بين المنطقة المحتلة والمنطقة غير المحتلة فلكم أثار فى وجهتها عقابا وصعوبات . كنا لا نستطيع اجتياز هذا الخط إلا مزودين بجواز مرور كانت السلطات الحاكمة تضن بمنحه وتقتر فى عطائه حتى فى الظروف الاستثنائية . وأنا أعرف صديقة لى كانت ترغب فى إتمام البحوث الخاصة برسالتها وكان عليها أن تجتاز هذا الخط المنكود حتى يتاح لها ذلك . ولما يئست من الحصول على جوازها حاولت أن تجتازه خفية فقبض عليها وقضت ثمانية أيام فى السجن وهى لا تدرى ما كتب لها ، ولم تنجح فى إنقاذ مذكراتها من الاحتراق إلا بفضل تدخل بعض الشخصيات البارزة فى المنطقة التى قبض عليها فيها . ولكن ما كان أكبر سرورها لما أتيح لها أن تقرأ فى وعاء للمربى عنوان المرشد الذى كان عليه أن يدلها على الطريق الذى تسلكه لتعبر الخط الفاصل وذلك تحت أعين حراسها أنفسهم . وقد استطاعت صديقتى أن تتم تحرير رسالتها ، ومناقشتها أمام أساتذتها ، وأحدهم مؤرخ قدير قبض عليه بعد ذلك مع عدد من إخوانه أساتذة المعهد وأودعوا السجن بضعة أيام .

على أن الذكريات تتوالى إذا ما فكرت فى هذه الدار القديمة الموفرة الكائنة فى شارع رشيليو ، وأعنى « دار الكتب الوطنية » فانها لم تغلق أبوابها قط ولم ينقطع الطلاب والأساتذة والباحثون عن التردد عليها . وقد سمح لهم بالجلوس فقط فى قاعة المطبوعات الفسيحة التى كانت تشبه بفناء محطة السكة الحديدية أو فى قاعة المخطوطات المستطيلة ذات الجدران المكسوة بأخشاب أنيقة الصنع .

وكان البرد شديداً فى هاتين القاعتين . على أن ذلك لم يمنع القراء من الاقبال فى كل صباح على باب المكتبة وانتظار ناقوس الجرس الذى يأذن لهم بالدخول إلى الدار والجلوس فى أماكنهم المعتادة وهم يرتعدون من البرد . ولعلهم كانوا يعودون فى المساء إلى بيوتهم مزكومين إلا أنهم كانوا يعودون وفى نفوسهم هذه الغبطة التى يشعر بها الباحث إذا ما اكتشف المخطوط الذى يلزمه لنشر نص معروف مشتهر ، أو إذا ما قلب فى لذة وحنو صفحات سفر من الأسفار القديمة وعثر على ملاحظات دونها عالم من علماء القرن السادس عشر ، وغير ذلك من ألوان هذه الغبطة العقلية التى يجدها طلاب العلم والباحثون .

كان عدد المترددين على الدار كبيراً متنوعاً ، فيهم الطلاب وفيهم الأساتذة وفيهم الصحفيون والعلماء والباحثون وكل من أحب الكتب وطاب له أريجها . وهم وإن كانوا يتحملون فى غير تذمر شدة البرد ، قد كانوا يظهرون بعض الضيق إذا ما رأوا طلبهم لاستعارة بعض مجموعات

بالذات مرفوضاً . كانت بعض الأنوار الكهربائية معطلة ولم يكن فى الامكان الحصول على هذه المجموعات فى الظلام ، على أن بعضهم لم يكن يفهم ذلك . ولقد عرض أحدهم فى تهكم نقابه للبحث عن كتابه وهو لا يعى أن البحث عن كتاب قد يتطلب أحياناً زمناً طويلا لا ينفع فيه نقابه . بل لقد حدث يوماً أن أحد القراء أحضر معه إلى الدار مصباحا ضخما وألزم أحدنا بالبحث له عن كتابه واستحضاره .

وكان موظفو الدار يعملون دون أن يخلعوا معاطفهم أو قفازاتهم أو كوفياتهم ، بل كان بعضهم وهو أصلع يحتفظ بقبعته دون مبالاة بالتقاليد . أما الذين كانوا يعملون فى القاعات التى لا يصرح بالدخول فيها للجمهور فقد كانوا يلتفون فى أغطية من الصوف . كنا جميعاً نرتعد من البرد ، ومع ذلك كنا نعمل وكأننا لا نبالى بالبرد . وحدث أن انقطعت التدفئة عن جميع القاعات ولم يتبق إلا قاعة واحـدة فى الدور الأسفل كان بها جهاز صغير يحج إليه موظفو المكتبة كل بدوره ليتدفأ بحرارته ويدخر منهـا ما يعينه على مجابهـة شدة برد الأدوار العليا .

أما صلتنا بالقراء فقد تعقدت بعض التعقد . كان البعض ظريفا لم تؤثر فى مزاجه مؤثرات الحرب . ولقد عرض على أحدهم وعاء مليئا بعسل مقطوف من خلايا نحله الخاص إذ كنت قد قمت ببعض البحوث له . وكان البعض متوتر الأعصاب لا يستطيع صبراً ، كان لا يدرك أن انقطاع التيار الكهربائى عن الدار أو على الأقل تخفيفه كان لا يعيننا على الاسراع ، وأن جميـع المصاعد والآلات الرافعة عاطلة لا تعمـل . وأن رجالنا لم يكونوا جميعا خفافا أصحاء .

واقتضى منا الكشف الذى ذكرت فيه الكتب التى حرمت السلطات تداولها بذل صنوف من الكياسة والسياسة لاقناع القراء بعجزنا عن إرضائهم ، ولم يكن من اليسير علينا إفهامهم كل ما فى هذا الكشف اللعين من خبث .

وكانت مهمتنا تزداد صعوبة فى خلال إنذارات الخطر ، إذ كان القراء ملزمين بترك القاعات للتوجه إلى المخابىء ، فكان بعضهم لا يفارق مقعده إلا بعد إلحاح شديد ، وكان بعضهم يبنى فى سذاجة حمل الكتب معه ليقرأ فى خلال مابين الانذارين . وأخيراً كان يلتقى الجميع فى المخبا حيث كانت تدور مناقشات فلسفية وتاريخية يختمها صفير الانذار المزعج .

واستمرت الدار تعمل كما كانت تعمل فى الماضى ، رغم ظروف لا تواتيها ، ورغم تعذر وجود الأيدى العاملة ونقص الورق ، فقد واصلت الدأب على إصدار « فهارسها » وإقامة معارضها دالة بذلك على أن الحرب لم تصرفها عن مهمتها العلمية والثقافية . واستطاع الناس أن يشاهدوا تطور فن الطباعة الفرنسى ويعجبوا بتقدمه ، وبصفة خاصة تقدم الطبعات الخاصة المترفة ، إذ كان الحجم الكبير الذى كانت تصـدر به هذه الطبعات يسمح بجرأة موفقة فى أساليب الطبع والاصدار . فكنت تستطيع أن ترى الصورة التى تشغل صفحة كاملة من الكتاب ممهورة بتوقيع أكبر الحفارين المعاصرين ، كما كنت تستطيع أن تعجب بجمال الورق ونعومته وأناقته .

وكنا قد اضطررنا إلى إخراج الأسفار والمخطوطات النـادرة من الدار لوضعها فى مخبأ أمين ، وكان بودنا لو استطعنا أن ننقذها كلها ، على أنه كان علينا أن نختار من بينها أقومها ، فشمل اختيارنا الأسفار التى يرجع عهدها إلى نشأة فن الطباعة ، كما شمل أسفاراً من القرن

سادس عشر فريدة فى نوعها ، وبعض طبعات مصورة من القرن الثامن عشر كانت من مكتبة ارى أنتوانيت الخاصة .

هذه الكتب التى أمسكتها فى حرص وعناية وخوف أيدى الأمراء او الرهبان كنا لزمين بتكديسها تكديساً فى أعماق الصناديق بعد أحاطتها بأوراق الجرائد تم إرسالها فك رباطها وإيداعها خزائن أمينة . وكنا نتساءل فى قلق على أى حال سوف تعود إلينا .

يا للأسف ! لقد اضطرتنا الحرب أن تفارق أجل ما لدينا من مؤلفات ، ولكنها كانت من جهة أخرى تأتينا بهذه المجموعة الطريفة من الجرائد والمجلات والمنشورات والكتب المطبوعة خلسة وفى خفية عن أعين الاحتلال . وبديهى أن إعارة هذه المجموعة إلى القراء كانت أمراً لا سبيل إليه ، بل على النقيض من ذلك كان واجبنا يحتم علينا أن نخفى عن القراء هذه لمجموعة الأدبية الطريفة . فلو أن شرطيا من الذين كانوا يلازمون الدار درى بها وسأل حدنا عن أمر هذه الوثائق المخبأة فى خزائنها لعجزت عن الرد . وكان الكثيرون منا يعجبون روح هذه المؤلفات إعجابا شديداً . ولن أنسى أبداً الأثر الذى أحدثته فى نفسى مطالعة «الدفتر لأسود » لموزياك الكاتب و « شرف الشعراء » لأراجون الشاعر ، هذا السفر الذى كان لشعر فيه يغلى ويثور . وهكذا استطعنا أن نكون مجموعة فريدة أتاحت لنا فيما بعد على أثر تحرير بلادنا أن نقيم معرضاً عن « فرنسا فى أيام الاحتلال » أقبل عليه الجمهور فى شغف عظيم واهتمام بالغ .

وكانت روح الزمالة والصداقة فى الدار سائدة ، ولعلها كانت من أهم العوامل فى الترفيه عنا وتخفيف الهموم والآلام التى كانت فى صدورنا تضطرب . فكان من أصيب منا فى عزيز — وما أكثر من أصيب فى أثناء هذه الحرب — يجد من الدار العطف والحنو والعزاء . ولم يكن الاختلاف بيننا فى الرأى بالشىء الذى يذكر ، فقد كانت آمالنا جميعاً موجهة إلى شىء واحد نصبو إليه .

وهذا الشعور بالتضامن بيننا أتاح لنا أن نواصل العمل والمجهود ، حتى إذا رأينا فرنسا تحرر واجتاحت البلاد بأكلها موجة الفرح الكبرى شعرنا فى شىء من الغبطة بأن مجهودنا لم يذهب عبثاً .

ولقد تحسنت الأحوال عامة على أثر التحرير إلا ان الصعاب كلها لم تذلل . كنا قد واجهنا صعابا أكبر، فلا عجب أن نتحمل هذه الصعاب التى لن تدوم ، وأن نواصل رسالتنا فى سرور تلك الرسالة التى لم يمنعنا عن أدائها مانع . لقد ألفنا الجهد واستمرأنا الكفاح . وإنى لواثقة كل الثقة بأن هذه الدار القديمة سوف تعرف كيف تحيا بجهودها حياة جديدة . وهى فى جهودها المتواضعة تساهم بنصيبها مع الوطن الفرنسى كله فى سبيل هذه النهضة الحية المباركة الشاملة التى سوف يفيض ضياؤها كما كان يفيض من قبل .

أدفانا براده

رسالة من لندن

أين تجتمع الأمم المتحدة

« سنترال هول » و « تشرش هاوس » هما المكانان المخصصان الآن فى لندن لاجتماعات هيئة الأمم المتحدة التى افتتحت الفترة الأولى من دور اجتماعها الأول ، فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين من بعد ظهر الخميس العاشر من شهر يناير لسنة ١٩٤٦ . والمكانان واقعان فى « وستمنستر » على مئتى متر من دار البرلمان العتيد ، يلاصق أحدهما الكنيسة العظمى ، وتفصل أحدهما عن الآخر ساحة يتفرع منها شارع «ڤكتوريا» الموصل إلى محطة لندن الشهيرة عند أهل « القارة » وسائر الأجانب . وللمكانين على السواء صفة دينية مميزة ، وقد ظل أولهما منذ بنى فى سنة ١٩١٢ مركز « الاصلاحيين الأحرار » من رجال المذهب « البروتستانتى » تعقد فيه اجتماعاتهم وتدور مباحثاتهم وتصدر عنه فتاواهم ودعواتهم . وخصص الثانى لنزول الوافدين منهم من مختلف الديار أثناء تلك الاجتماعات والمباحثات .

ولسنترال هول إلى هذا عند « المجاهدين » منزلة . ففيه كانت تعقد مؤتمرات حزب العمال البريطانى السابقة لتوليه الحكم فى السنة الماضية . وفيه اجتمع مستر تشرشل وهو رئيس للوزارة البريطانية إبان واقعة « العلمين » بزعماء عمال المناجم يناشدهم وطنيتهم ويدعوهم إلى مضاعفة إنتاجهم من الفحم فى ساعة الخطر المداهم حتى لا تقع الكارثة وتنهار الامبراطورية . وفيه خطب « ديجول » احرار الفرنسيين الأوائل القلائل معلنا كلمته الحافزة : «إن فرنسا قد خسرت الموقعة ولكنها محتفظة بالايمان بالنصر » . ولذلك فقد اعتبر اختياره مكانا للاجتماعات العامة — إلى جانب تخصيص «تشرش هاوس» لاجتماعات اللجان — اختياراً موفقاً ، إذ ترفرف على المجتمعين فيه — وهم رؤساء الوفود وأعضاؤها ومستشاروها وسكرتيروها ورجال الصحافة والاذاعة ، وقد جاءوا إليه من كل فج — روح القدسية والرغبة فى الوئام .

على أن « سنترالهول » لم تبق له قشافته الصوفية الأولى التى تتميز بها بيوت العبادة والدين ، بل أدخلت عليه مظاهر الفخامة وإن كانت قد ظلت فى حدود البساطة ولم تتجاوزها إلى الترف غير المستساغ . فقد غطيت أخشاب أرضه « البلوطية » بالطنافس التى تغور فى وبرها الاقدام ، وغطى بيت الموسيق الكنسى بالفاخر من « القطيفة » ذات اللون الأزرق الموحد ، تكتنفه ذات اللون الأصفر الموحد أيضاً . وتوسط الأزرق المستطيل رمز « الأمم المتحدة »الذهبي يمثل الكرة الأرضية تربط بين أجزائها الحلقات .

وفى مقدمة المنصة التى يشرف عليها ذلك الرمز محاطاً بذلك الجلال المستند إلى تلك البساطة تقوم منضدة الرياسة من « البلوط » الانجليزى الفاتح ، وإليها ثلاثة مقاعد غطيت بالحرير ، وانفرد أوسطها — وهو مقعد الرئيس — بارتفاع المسند الظهرى ، وفوقها دواة كبيرة من الفضة وكوب وإبريق من البلور النفيس جيء بها جميعاً من بين كنوز المتاحف .

وعند سفح المنصة وفى وسطه يقوم المنبر مرتفعاً عن الأرض درجتين ، وإلى جانبيه ملتصقة بالسفح منضدتان صغيرتان للمترجمين ، إلى الانجليزية وإلى الفرنسية ، خلفهما مناضد متباينة الحجم ، مخصصة للسكرتيرين والمعاونين .

ثم مدت خلال القاعة الكبرى مناضد مختلف الوفود ، موزعة على ثلاثة أروقة ، كل رواق ستة صفوف روعى فى الجلوس إليها نظام الحروف الهجائية . وقد شاءت الوتيرة التى سار عليها المنظمون أن تتجاور الثلاث الدول العظمى ، وأن تتقارب العربية السعودية وسوريا ، وأن يتلاصق لبنان والعراق ، وأن تتوسط مصر القاعة كلها إذ كانت فى الصف الرابع من رواق الوسط .

ولكل وفد نوعان من المقاعد : أمامية يستند الجالسون عليها إلى المناضد ، وقد خصصت للرؤساء والأعضاء ، وخلفية يجلس إليها المستشارون . وصفت إلى جانبي القاعة مقاعد خصصت للسكرتيرين والملحقين .

وفى الطابق الأعلى مدرجات ثلاثة : وسط ويمين وشمال ، الوسط أكبرها وقد خصص للصحفيين ، وهو يسع خمسمائة مقعد مرقوم ، إذ لكل صحفى على بطاقته رقم مقعده المعلوم . كما خصص اليمين إلى مدعوى وزارة الخارجية البريطانية من رجال السلك السياسى والشخصيات الممتازة . وخصص الشمال للجمهور الذى وقف ينتظر دوره قبل الافتتاح بخمس عشرة ساعة .

وإلى أعلى مدرج الشمال أقيمت تسع قاعات زجاجية صغيرة جهزت بأدوات الاذاعة ، وخصصت لشركات الاذاعة العالمية ومصالحها كى يحتلها ممثلو هذه المصالح والشركات ، ويذيعوا منها أنباء ما يجرى فى الاجتماع خلال أرجاء العالم جميعاً . وفوق المداخل الرئيسية لمدارج الطابق الأعلى وضعت « كشافات » تسلط منها الأنوار على منصات الرياسة والوفود . وفى هذا الطابق أيضاً خصصت غرف لتسجيل الاذاعات ، وخصصت مقاصير للتليفون متصلة أسلاكها بشركات الأنباء اتصالا مباشراً دون مرور على « سنترال » ودون إدارة لأرقام . وفيه كذلك أعد مكان للاسعاف .

وفى الدور الأرضى غرفة كبيرة للتحرير زودت بنحو ستين آلة من الآلات الكاتبة ، خصصت لاستعمال الصحفيين ، تقابلها ردهة للبريد والبرق والتليفون تتصل الوفود ويتصل الصحفيون عن طريقها بداخل انجلترا وخارجها على السواء .

وفى « تشرش هاوس » المعد لاجتماع اللجان ، مثل ما فى « سنترال هول » من وسائل التيسير والاتصال . وفيه فوق هذه الوسائل مكتبة عامرة — على قصر المدة التى انقضت على تهيئتها — بالمؤلفات والتقارير ، وفيه مطعم ومقصف .

وقد عهد بالحراسة والمحافظة على النظام فى المكانين لقوة من مشاة البحرية البريطانية .

محمود عزمى

رسالة من باريس

الثقافة الفرنسية فى الخارج

أنشأت مدرسة المعلمين العليا فى باريس سلسلة من المحاضرات تلقى هذا العام حول انتشار الثقافة الفرنسية فى الخارج وعن وسائل استبقائه بل تقويته .

وقد بدأ هذه السلسلة الأستاذ جان توما خريج المدرسة ، وهو يدير الآن مكتب الصلات الثقافية بين فرنسا والعالم الخارجى . وهذا المكتب المهم يتصل فى وقت واحد بوزارة الخارجية ووزارة التربية الوطنية . وقد ألقى هذا الشاب الممتاز محاضرتين فى الحادى عشر والثامن عشر

من ديسمبر سنة ١٩٤٥ . وكان إلقاؤهما فى قاعة المحاضرات بالبناء الجديد وهى التى تسمى قاعة دوسان ، وشهدهما عدد قليل من المستمعين أكثرهم من طلاب المدرسة ، يتقدمهم مديرها الأستاذ بوفيليه وسكرتيرها العام الأستاذ بايون ؛ وقد قدم المدير المحاضر بكلمة موجزة . وسيتعاقب بعد الأستاذ توما جماعة من الاخصائيين يتناولون بعض النواحى لهذه المسألة المتشعبة ، ولا سيما الصلات الثقافية بين فرنسا والبلاد الانجليزية السكسونية وبينها وبين البلاد الاسلامية وسنلخصها للقراء بعد إلقائها .

وكانت المحاضرة الأولى متصلة بالموضـوع من نواحيه العامة على حين كانت الثانية فنية كما سنرى . وقد بدأ المحاضر بالاشارة إلى خطورة الموضوع الذى سيتناوله ؛ فقد عنى مؤتمر سان فرنسسكو بالتنظيم الدولى للثقافة ، ولكن المشكلة أشد خطورة من ذلك بالقياس إلى فرنسا فقد احتلها العدو خمس سنين من جهة ، وكان انتشار ثقافتها من جهة أخرى أملا لها لم تقصر قط فى استحضاره . وهى بعد ذلك ترى قوتها العسكرية والاقتصادية منقوصة إلى حين فلا يبقى لها إلا سلطانها العقلى . والفرنسيون جميعاً يتفقون على هذا المقدار .

ثم عمد المحاضر بعد هذه المقدمة إلى موضوعه الأساسى فقسمه إلى قسمين : أولها يتصل بالمصاعب التى تواجه فرنسا فى واجبها الثقافى ومهمتها الجامعية . ولهذه المصاعب مصادر أربعة . أولها هزيمة يونيو سنة ١٩٤٠ ومن الأدلة الخطيرة على تأثير هذه الهزيمة فى الثقافة الفرنسية فى الخارج أن عدد الطلاب المنتسبين إلى أقسام اللغة الفرنسية فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية قد بلغ النقص فيه من ثمانين إلى خمسة وثمانين فى المئة . وتعليل هذه الظاهرة يلتمس فى الذهول الذى أصاب الأمريكيين حين انتهى إليهم نبأ الهزيمة ، وفى الغيـظ الذى أصابهم من ذلك وقتاً ما . ولكن أهم سبب لهذا النقص يرجع إلى تفكير الطلاب فى مستقبلهم فالذين كانوا يريدون أن يكونوا أساتذة للغة الفرنسية قد قدروا أن فرنسا ستصبح دولة صغيرة وسيعرض الناس عن تعلم لغتها ؛ فلا معنى لاضاعة المستقبل فى الاستعداد لتعليم هذه اللغة ولذلك انحرفوا عنها إلى اللغة الأسبانية التى ورثت فى ذلك الوقت مركز اللغة الفرنسـية ولا سيما وقد ظهر الميل إلى التقرب من دول أمريكا الجنوبية . ولا شك فى أن الأمر قد تغير منذ ذلك الوقت ، فرجع الأمريكيون إلى اللغة الفرنسية . ولكننا نخطىء إن ظننا أنها استردت مركزها القديم . وإذا كانت اللغة والآداب الفرنسية تدرس وتفسر فى الجامعات الأمريكية كجامعة ييل وكولومبيا وهارفرد فانها تتقهقر فى الكليات والجامعات فى الولايات الجنوبية وشىء آخر ليس أقل من هذا خطراً ، وهو أن المؤتمر الذى انعقد فى لندن سـنة ١٩٤٣ لاختيار لغة دولية قد شهد على خلاف المألوف بلاداً كهولاندا والنرويج تقترح أن تكون الانجليزية لا الفرنسية هى اللغة الدولية . وقد كان الجهاد عنيفا ليعترف للغة الفرنسية بأنها لغة دولية رسمية كالانجليزية .

وكانت الأحداث السورية من آثار الهزيمة أيضـاً ؛ فلم يكن من شأن هذه الأحداث أن تقوى مركز اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسـية فى الشرق الأدنى ، فلم يضطرب المركز الفرنسى فى هذه البلاد قط ، كما هو مضطرب الآن . إذ لم تبق فرنسا كما كانت من قبل صاحبة المركز الثقافى الممتاز ، وإنما تشاركها فى ذلك على قدم المساواة انجلترا وأمريكا وروسيا من الناحية النظرية على الأقل !

المصدر الثانى انقطاع الصلة المادية بين فرنسا وغيرها من البلاد خمس سنين ؛ فقد نشأ عن

ذلك أن الطلاب لم يستطيعوا أن يأتوا لمواصلة الدراسة كما تعودوا أن يفعلوا حين كانوا يأتون إلى باريس وعواصم الأقاليم . وقد طال هذا الانقطاع ، وأصبح من الحق علينا أن نرغبهم فى الرجوع إلى جامعاتنا . وليس هذا بالشىء اليسير لأسباب كثيرة ، منها النقص فى وسائل المواصلات السريعة المريحة ، ومنها المصاعب المادية المختلفة بالقياس إلى شباب لم يتعودوا الحرمان ، ومنها أزمة المساكن وندرة المنتجات التى يحتاج إليها فى كل يوم ، وقسوة الجو وغير ذلك .

وقد تحدث إلينا الأستاذ توما عما وقع فى نفوس بعض الطلاب والطالبات من خيبة الأمل ؛ فقد أسرعوا إلى فرنسا متحمسين، فلم يكادوا يرون هذه المصاعب حتى انطفأت حماستهم . فقد كان الطلاب المصريون بنوع خاص أشدهم تبرما ، ولعلهم لم يستقبلوا كما كان ينبغى أن يستقبلوا .

المصدر الثالث فقدان الكتاب الفرنسى فى البلاد الأجنبية . وهذه الظاهرة من أشد الظواهر خطراً على ثقافتنا ، وهى ما زالت باقية إلى الآن ، يشكو منها اللاحقون الثقافيون جميعاً . فالمجلات الفرنسية مثلا لاتتجاوز الحدود إلا بمقدار . فليست هناك سفن ولا طائرات تستطيع نقلها ، وليس أصحابها حراصاً على إرسالها ، وليس فى فرنسا كثير من الورق لطبع الكتب والمجلات . ومع ذلك فقد بذلت خارج فرنسا جهود مدهشة . فقد كان كثير من الفرنسيين متفرقين فى أقطار الأرض فأنشأوا المجلات ونشروا الكتب ونظموا هذا النشر فى كندا والولايات المتحدة والمكسيك والبرازيل والأرجنتين ومصر ولبنان ، بل فى بريطانيا العظمى نفسها ، وكان هذا عملا رائعا .

وبين هذه المجلات يجب أن نسمى اثنتين على الأقل : إحداهما المجلة التى أصدرها روجيه كايوا فى عاصمة الأرجنتين وهى الآداب الفرنسية *Les Lettres Françaises* والثانية المجلة التى أصدرها رينيه اتيانبل فى الأسكندرية وهى « قيم » *Valeurs* .

المصدر الرابع المنافسة الدولية الثقافية . وهذه المنافسة قد أصبحت الآن منظمة تنظيما حسناً . وقد كان الألمانيون وحدهم قبل الحرب ينافسوننا منافسة جدية . أما الآن فقد أخذ الانجليز دون نية سيئة من غير شك يعنون عناية شديدة بالاعلان . وربما كانت هذه الكلمة بغيضة ، فلنقل إنهم يعنون بنشر الثقافة الانجليزية . فهم قد أدركوا خطورة هذا النشر . ويكفى أن نذكر المجلس البريطانى وما بث من المعاهد فى أقطار الأرض ، وقد أنشأ بعضها أخيراً فى مدينة براج . وهم أكثر منا مالا ، وهم يستطيعون أن يستعينوا بحلفائهم الأمريكيين الذين يشاركونهم فى حب الألعاب الرياضية والأندية والمعاهد .

فإلى جانب هذا التنظيم القوى يتضاءل ما تبذله جماعة الاليانس فرانسيز من الجهود . وقد ظهرت النتيجة مسرعة ، وأخذ ينتشر فى إيطاليا مثلا ميل إلى تكلم الانجليزية . ولاينبغى أن نهمل المنافسة الروسية وهى تظهر بنوع خاص فى البلاد السلافية حيث أظهر الاحصاء أن الطلاب الذين يتحولون إلى اللغة الروسية ، قد تضاعفوا عشرين ضعفا منذ أعوام قليلة .

وعلى الجملة فان الهزيمة الفرنسية وصعوبة المواصلات ونقص الكتب والمجلات والمنافسة الأجنبية المتزايدة ، كل ذلك يجعل موقف ثقافتنا حرجا وانتشارها عسيراً أشد عسراً مما يظن المتفائلون .

وبعد أن بين الأستاذ توما هذه المصاعب التى تواجه الثقافة الفرنسية عمد فى القسم الثانى إلى بيان أنواع التيسير التى يمكن أن تظفر بها هذه الثقافة ، إن صح هذا التعبير .

فأمام فرنسا فرص عظيمة مواتية ، وذلك لسببين :

أولها أن فرنسا تستفيد من ضعفها بمعنى أنها لا تهدد أحداً ، وذلك يعطف عليها قلوب أكثر الناس . وكذلك تجد أمريكا اللاتينية فى التراث الفرنسى ثقلا توازن به التأثير المرهق للولايات المتحدة التى تغرقها بالبعثات والدعوات . فكثير من الجمهوريات الصغيرة فى أمريكا اللاتينية ، تطلب إلينا الأساتذة ، بل تطلب إلينا أن ننظم شؤون التعليم فيها .

والأمر قريب من ذلك فى الصين ، وفى إيران حيث ينوء السكان بثقل الدول الثلاث العظمى .

السبب الثانى أنه لا سبيل إلى أن ينكر أحد أن النفوذ الفرنسى ما زال قائماً فيما يتصل بالعلوم والفنون والآداب . وقد عيب على فرنسا منهجها فى تعليم العلوم أو بعبارة أدق فى الانتفاع بتعليم العلوم . عيب عليها بعض مجالس الدرس فى الكوليج دى فرنس ، تلك المجالس التى كانت تختلف إليها سيدات رشيقات مغرورات يقصدن إلى الرياء أكثر مما يقصدن إلى العلم . ولكن يكفى أن تتحول عن قاعات الدرس إلى معامل البحث لترى العلماء الشبان يبحثون فى مشقة وصبر ، وفى هذا وحده ما يرد على هذا النقد . أما الفن فان أوربا وأمريكا تطلبان إلينا فى غير انقطاع معارض لآثار الفنانين الفرنسيين الذين تحتاجان إلى معرفتهم أو إلى رؤية آثارهم . ويقام الآن فى لندرة معرض لآثار بيكاسو وماتيس . ومع الأسف تقوم فى سبيل هذه المعارض مصاعب النقل ومصاعب الحصول على إذن المالكين لهذه الآثار . والأمر كذلك بالقياس إلى الموسيقى . وقد أقامت جماعة الكونسير بالكونسرفاتوار فى لندرة حفلات موسيقية ظفر فيها الموسيقار العظيم شارل مونش بفوز عظيم . وقد لاحظ المحاضر فى خاتمة حديثه أن هذا كله حسن مشجع ، ولكنه لن ينتج ولن يفيد إلا إذا أقيم على أساس صحيح متين من التعاون والتبادل . فلا ينبغى أن نظن أن فرنسا تشرف البلاد الأجنبية حين ترسل إليها ثقافتها . فهذا الظن سخيف ، وقد أساء إلى فرنسا أكثر مما أحسن إليها . وهناك صعوبة تقوم فى سبيل التبادل ، وهى أن الأستاذ مثلا فى فرنسا موظف من موظفى الدولة . فمن العسير فى ظاهر الأمر أن توجد فى فرنسا كراسى يشغلها الأساتذة الأجانب ، وقد يكون عكس ذلك عسيراً أيضاً . ولكن لا بد من أن يبذل جهد فى هذه السبيل ، ويجب أن نصل إلى تحقيق المعادلات بين الدرجات والاجازات والشهادات مهما يكن مصدرها . وهذه المعادلات إلى الآن أدنى إلى أن تكون نظرية منها إلى أن تكون عملية لا نستثنى من ذلك إلا قليلا .

ويختم الأستاذ تونا محاضرته بهذه الكلمة التى يرى أنها ستكون مقدمة لمحاضرته الثانية وهى أننا فى حاجة إلى الرجال . وهؤلاء الرجال يجب أن يكونوا شباناً ، والخير أن يكونوا أساتذة . ومن الحق أن ذخيرتنا من الأساتذة أقل من حاجتنا ، فما نكاد نرسل بعضهم إلى الخارج حتى يضطرب الأمر وتشكو المدارس والمعاهد . فاذا لم يمكن أن نرسل سيلا من أساتذتنا فلا أقل من أن نحسن تخير الذين نرسلهم . فان الأستاذ يستطيع أن يحسن كثيراً بسيرته ومسلكه . وليس أدل على ذلك من النجاح الذى أحرزه الأستاذ هنرى بير فى الولايات المتحدة الأمريكية . إنه خريج هذه المدرسة . وأنا واثق بأن كثيراً من الذين يستمعون لى الآن سيكونون رسلا للثقافة الفرنسية فى أقطار الأرض .

مؤنس طه حسين

شهريات

شهرية السياسة الدولية

سعدت مصر أثناء شهر يناير بتشريف حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود لها زائراً لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول . وكانت هذه الزيارة رداً لزيارة تفضل بها ملك مصر الكريم ، فى العام الماضى للبلاد العربية السعودية . وقد التقى الملكان العظيمان ذلك اللقاء التاريخى الذى أعطى اسم رضوى معنى جديداً فى التاريخ العربى الحديث . معنى جديداً له أثره البعيد ، وقيمته الحافلة بالنتائج العظيمة التى ظهر بعضها ، والتى ستكشف الايام عن سائرها ، والتى تصور أصدق تصوير مكانة الملكين العظيمين من الشعوب العربية وحرصهما على تقوية العروبة ، وتمتين الصلات بين شعوب الشرق العربى من جهة ، وتمكين هذا الشرق العربى من أن يقف قوياً ، مجتمع الكلمة موحد الرأى ليواجه الحوادث العالمية الكبرى وليشارك غيره من أقطار الأرض المتحضرة ، فى إقامة العالم الجديد على أساس من الحق والعدل ، والكرامة والمساواة بين الشعوب ، وقد فهم الشعبان هذه المعانى ، وقدرها حق قدرها . فكان فى الحفاوة التى لقيها ملكنا العظيم حين زار الحجاز ، وفى الحفاوة التى لقيها الملك العربى الكريم حين زار مصر ، دليل قاطع على أن هذين الشعبين يقدران حقائق السياسة ودقائقها ، ويشعران بما تحتاج إليه البلاد العربية فى هذه الظروف من جمع الكلمة ، وتوحيد الرأى ، وتحقيق التعاون ، وثيقان كل الثقة بأن مليكيهما العظيمين يشاركانهما فى هذا الشعور ، وفى هذا التقدير ، وينهضان بما تقتضيه الحياة الحديثة للشعوب العربية من الواجبات ، على أحسن وجه وأكمله . وليس من شك فى أن هذه الأعياد الشعبية الرائعة التى أقيمت للملكين العظيمين فى الحجاز ومصر ، ليست مجرد آيات للفرح والابتهاج ، ولكنها تدل على أشياء أبعد مدى من مجرد الفرح والابتهاج ، تدل على أن هذين الشعبين العظيمين يريدان مايريد ملكاهما من تحقيق العدل ، والحرية ، ورعاية الكرامة الانسانية ، لا فى الحياة الداخلية للشعوب فحسب بل فى الصلات الخارجية بين الشعوب أيضاً . فكل مظهر من مظاهر الفرح ، وكل آية من آيات الابتهاج ، وكل دليل من دلائل البشر والسرور ، وكل دعاء بحياة الملكين ، وتأييد ملكهما ، إنما هو إعلان لحرص الشعبين على ما يتمناه الملكان العظيمان ، ويعملان له من أن يعيش الناس فى حياتهم الخاصة والعامة ، وفيما يكون بينهم وبين أبناء الشعوب الأخرى من صلات عيشة قوامها الأمن والعدل والحرية والثقة .

والملكان العظيمان قبل كل شئ ، وبعد كل شئ رمزان عظيمان لمجد مؤثل عظيم أقامته بلاد العرب ، وأقامته مصر على مر العصور ، ولا بد لهذا المجد من أن يظل رفيعا ، ومن أن يزداد رفعة وشموخا كلما تقدمت الايام ، ومن أن تشارك الأمم العربية كلها فى تثبيته والتمكين له والاضافة إليه . وهذه هى الأغراض التى يسعى إليها فاروق الاول ملك مصر ، وعبد العزيز آل سعود ملك الدولة العربية السعودية ، وهى الأغراض التى التقيا من أجلها فى اجتماع رضوى ، والتقيا من أجلها فى مصر ، ومن أجلها لم تنفرد مصر والبلاد العربية السعودية

بالابتهاج لهذا اللقاء والاغتباط به ؛ وإنما شاركت فيه الأمم العربية كلها ، من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلنطى ، لأن هذه الأمم كلها طامعة فى العدل ، طامحة إلى الحرية والكرامة وهى تعلم أن للملكين العظيمين لا يسعيان إلا لذلك ، ولا يفكران إلا فيه وهى تتمنى لهما فى مسعاهما الكريم أكمل النجح وأعظم التوفيق .

وليس من شك فى أن الأمم العربية قد اهتمت لتبادل الزيارات بين الملكين العظيمين لأنها تقدر نهضة الشرق العربى وتحسب لها كل حساب وإذا كان للعرب أن يتمنوا شيئاً فانما هو أن تكثر هذه الزيارات الكريمة وأن تتجاوز مصر والبلاد العربية السعودية إلى غيرها من أقطار العروبة .

وفق الله الملكين العظيمين إلى الخير والنجح وهيأ لهما ولملوك العرب وأمرائهم ورؤسائهم من أمرهم رشدا .

وفى نفس اليوم الذى كان الملك العربى الكريم يشرف مصر فيه بزيارته وهو العاشر من شهر يناير كانت هيئة الأمم المتحدة تفتتح اجتماعها الأول فى لندرة . فكان البشر شاملا لأقطار الأرض كلها ، وكان الأمل باسماً لأجيال الناس فى كل مكان . فهيئة الأمم المتحدة أداة أنشئت لبناء العالم الجديد على أساس متين من العدل والمساواة بين الشعوب ، وفى ظل من السلام الشامل الكامل الموفور للناس جميعاً . وهى فى الوقت نفسه أداة أنشئت لتحقيق التعاون على ترقية الحضارة وإشاعة الرخاء وتأمين الناس من الخوف والبؤس والحرمان . وهى قد أنشئت بعد أن عبرت الانسانية أشد الأخطار وأعنف أعوام الهول ، فليس غريباً أن تستقبل الأمم اجتماعها الأول بكثير من البشر والأمل المبتسم الرضى . وقد مهدت الدول الثلاث الكبرى لهذا الاجتماع باجتماع وزراء خارجيتها الذى انعقد فى موسكو ، وقدر الناس أن هذه الدول الكبرى الثلاث قد رتبت أمرها ، وصفت ما بينها من خلاف ، وأن اجتماع هيئة الأمم المتحدة سيمضى فى طريق ميسرة مزللة لا تقوم فيها العقاب . وكانت الخطب التى ألقيت فى الأيام الأولى لهذا الاجتماع خليقة أن تملأ القلوب ثقة وأملا . وزاد هذه الثقة وهذا الأمل ما كان من انتخاب مجلس الأمن ورعاية الجغرافيا فى تأليفه فقد مثلت فيه الدول الخمس الكبرى بحكم الميثاق ومثلت فيه أمريكا الجنوبية ، ومثل فيه الشرق الأوسط بانتخاب مصر ، ومثل فيه شمال أوربا بانتخاب هولندا .

ولكن الأمور لم تجر كما كان الناس ينتظرون . فقد أثيرت المسألة الايرانية ، فكانت أول مشكلة امتحن بها مجلس الأمن ولم يكد مجلس الأمن يجتمع للنظر فى هذه المشكلة حتى أثارت روسيا مشكلة اليونان ومشكلة أندونسيا . وقد كان الناس يظنون أن الريح ستجرى رخاء فى الاجتماعات الأولى . فاذا هى تعصف من كل مكان ، وإذا الانسانية الآملة التى تتوق إلى الأمن والثقة تنظر فترى أن استواء سطح البحر واضطراب أمواجه فى خفة ورشاقة لم يكن يصور ثقة ولا أمناً ولا هدوءاً ، وإنما كان يخفى أمواجاً فى القاع تصطخب فى عنف شديد . فقد ظنت روسيا أن حلفاءها البريطانيين هم الذين دفعوا إيران إلى إثارة مشكلتها إلى مجلس الأمن .

فلم تدفع الحكومة اليونانية إلى إثارة مشكلة اليونان وإنما أثارتها هى لأن الحكومة اليونانية لا تستطيع أو لا تريد أن تثير هذه المشكلة ولم تدفع أندونسيا إلى إثارة مشكلتها لأن الأمم المتحدة لم تعترف بعد بالاستقلال لهذه البلاد . ولذلك أثارت أوكرانيا ، وهى من الدول الروسية السوفيتية ، مشكلة اندونسيا .

ونحن نكتب هذا فى الثالث والعشرين من شهر يناير والأمور معقدة أمام مجلس الأمن ، وكل شىء يدل على أن الأمم المتحدة تواجه طريقين ، إحداهما تحقق العدل والحرية والمساواة وهى أخذ الأمور بالحزم ، ورد الحقوق إلى أهلها ، وإجلاء المحتلين عن الأرض التى يحتلونها

ن تساوم الدول
بريطانيا العظمى
أن هذه الطريق

مشة يهتم لها العالم
المؤقتة وأعلن
انتخاب الجمعية
يوعيون لينهضوا
ون ويأتلفوا مع
مى لما بين البلدين

م الائتلاف حول
ضطر الجنرال إلى

كل شىء يدل إلى
اء الائتلاف إلى
اف سيظل عسيراً
من شك ، وكان
. استقالة الجنرال
ذلك لأن قوة
ين . فقد اصبحت
. الجمهورى الشعبي
الجديدة .
ن قوم يأتلفون فى
د أنشأ الفرنسيون
ية التأسيسية وقام
الخارجية ولكنهم
دستور . وتجرى
ن تحقيق مايريدون .

ط

بالابتهاج لهذا اللقاء والاغتباط به ؛ وإنما شاركت فيه الأمم العربية كلها ، من الخليج الفارسى إلى المحيط الأطلنطى ، لأن هذه الأمم كلها طامعة فى العدل ، طامحة إلى الحرية والكرامة وهى تعلم أن الملكين العظيمين لا يسعيان إلا لذلك ، ولا يفكران إلا فيه وهى تتمنى لهما فى مسعاهما الكريم

وليس من شك

نهضة الشرق العر

الزيارات الكر

وفق الله الم

من أمرهم رشد

وفى نفس ال

شهر يناير كانت

لأقطار الأرض ك

أنشئت لبناء الع

من السلام الشام

التعاون على ترقية

وهى قد أنشئت

أن تستقبل الأمم ا

الكبرى، لهذا ال

هذه الدول الك

هيئة الأمم المتحـ

ألقيت فى الأيام ا

الأمل ما كان من

الكبرى بحكم الم

ومثل فيه شمال أ

ولكن الأمو

مشكلة امتحن بها

مشكلة اليونان وم

الأولى . فاذا هى

تنظر فترى أن ا

أمناً ولا هدوءاً

أن حلفاءها البر

فلم تدفع الحـ

اليونانية لا تستطيع

لأن الأمم المتحدة

الدول الروسية ال

ونحن نكتب هذا فى الثالث والعشرين من شهر يناير والأمور معقدة أمام مجلس الأمن ، وكل شىء يدل على أن الأمم المتحدة تواجه طريقين ، إحداهما تحقق العدل والحرية والمساواة وهى أخذ الأمور بالحزم ، ورد الحقوق إلى أهلها ، وإجلاء المحتلين عن الأرض التى يحتلونها مهما يكن هؤلاء المحتلون ، ومهما تكن الارض التى يكون فيها الاحتلال .
والأخرى تؤجل الشر ولكنها لا تلغيه ، ولعلها إنما تؤجله لتقويه وهى أن تساوم الدول الكبرى على حساب الدول الصغيرة ، فيخلى بين روسيا وإيران ليخلى بين بريطانيا العظمى واليونان ، وبين هولندا وأندونسيا . وأكبر الظن مع الأسف الشديد ، أن هذه الطريق الثانية هى التى ستضطر هيئة الأمم المتحدة إلى سلوكها .

وبينما تتعقد الأمور فى لندره على هذا النحو ، تنشأ فى باريس أزمة مفاجئة يهتم لها العالم الخارجى أشد الاهتمام . فقد استقال الجنرال دى جول من رياسة الحكومة المؤقتة وأعلن عزمه على اعتزال السياسة ، والقراء يذكرون أننا لاحظنا حين علقنا على انتخاب الجمعية التأسيسية فى فرنسا أن طبيعة الأشياء تقتضى أن يأتلف الاشتراكيون والشيوعيون لينهضوا معاً بأعباء الحكم ، وإن قد كان هناك ميل إلى أن يامن الاشتراكيون ويأتلفوا مع الجمهوريين الشعبيين اتقاء لخطر الشيوعية وإيثاراً للتعاون مع بريطانيا العظمى لما بين البلدين من التجاور فى أوروبا وفى غيرها من القارات .
ولكن الجمعية التأسيسية أنشأت حكومة مؤتلفة من الأحزاب الثلاثة وتم الائتلاف حول الجنرال دى جول على أن هذا الائتلاف واجه مصاعب خطيرة لم تنقطع واضطر الجنرال إلى أن يستقيل ، لأنه لا يريد أن يحتمل تبعات لا يطمئن إلى احتمالها .
والمسألة الآن هى هل يبقى الائتلاف بين الأحزاب الثلاثة أم يزول . وكل شىء يدل إلى اليوم وهو الثالث والعشرين من شهر يناير على أن الأحزاب تحاول استبقاء الائتلاف إلى أن يتم وضع الدستور وإجراء الانتخابات البرلمانية . ولكن هذا الائتلاف سيظل عسيراً أشد العسر لأنه مخالف لطبيعة الأشياء . فالشعب الفرنسى مياسر ما فى ذلك من شك ، وكان الشيوعيون مصدر المصاعب للجنرال دى جول ، فاذا بقى الائتلاف بعد استقالة الجنرال سيكون الجمهوريون الشعبيون هم مصدر المصاعب للحكومة الجديدة . ذلك لأن قوة الجنرال دى جول كانت تؤيد الميامنين من الجمهوريين الشعبيين والاشتراكيين . فقد اصبحت كفة المياسرين هى الراجحة بعد استقالة الجنرال دى جول وسيقوم الحزب الجمهورى الشعبى فى خلق الصعوبات للحكومة الجديدة مقام الحزب الشيوعى فى خلقها للحكومة الجديدة .
والخير كل الخير أن تواجه الحقائق كما هى وأن تؤلف الحكومة من قوم يأتلفون فى أهوائهم ومذاهبهم فى النظم السياسية والاجتماعية إلى أبعد حد ممكن . ولو قد أنشأ الفرنسيون لأنفسهم حكومة مؤتلفة من الاشتراكيين والشيوعيين منذ انتخبت الجمعية التأسيسية وقام الميامنون جميعاً بالمعارضة لجنبوا أنفسهم مصاعب كثيرة فى سياستهم الداخلية والخارجية ولكنهم آثروا ومازالوا يؤثرون حكومة تصور الوحدة القومية إلى أن يوضع الدستور . وتجرى أمورهم فى مجراها الطبيعى . وهم من غير شك أعلم بما يريدون وأقدر على تحقيق مايريدون .

ط

شهرية المسرح

مضت سنوات الحرب ونحن محرومون الاستمتاع برؤية المسرحيات الفرنسية التي كانت تسوقها إلينا في كل موسم فرقة « الكوميديه فرنسيز » ، متشوقون إلى سماع ممثلين فرنسيين يقدمون لنا أجمل ما كتب في الأدب الفرنسي وأروع ما أنتجه كتاب فرنسا . ولم تكد تنتهي تلك السنوات الست التي كادت تمنعنا من كل اتصال عقلي أو روحي مع الفرنسيين حتى أنبئنا بقدوم فرقة أعضاؤها منتخبون من الفرق التمثيلية الكبرى في باريس . ونظرنا إلى البرنامج الذي كان قد أعد فاذا هو برنامج حافل بأسماء كتاب أكثرها كان مشهوراً منذ أمد بعيد ، والآخر لم يعرف إلا أثناء هذه الحرب الأخيرة .

الرسول تأليف هنري برنشتين (١)

وبدأت الفرقة موسمها بمسرحية « الرسول » لمؤلفها هنري برنشتين ، وهي قصة رجلين منفيين في مجاهل أفريقيا الوسطى ، أحدهما نقولا جاوز الأربعين وقد وخط الشيب شعره ، والآخر رولان وهو مهندس في ريعان شبابه . ومن حديث يدور بين الاثنين نعلم أن نقولا متزوج من امرأة جميلة — ماري — لم يغادرها إلا ليكفل لنفسه حياة مستقبلة سعيدة هنيئة في ظل حب متصل . وطال الحديث عن تلك المرأة وتكرر على طول الأيام ، حتى أولع بها الشاب رولان فلم يتحمل الحياة بعيداً عنها . فادعى المرض وسافر إلى فرنسا ليلتقي بماري التي لم يكن قد رأى منها إلا صورة أهدتها إلى زوجها قبيل سفره . ولما التقى الاثنان كان رولان قد أعياه ثقل حبه لامرأة صديقه ، وكانت ماري قد أخذت تشكو لصديقها جيو وحدتها واشتياقها إلى الحب الذي لم ترضه خطابات زوجها المليئة بعبارات الغرام المسكرة . كانت هي على حافة الهاوية ، فما بثها رولان حبه حتى أسلمت نفسها إليه . وبينما كان العاشقان يتذوقان عذب الهوى حضر الزوج فجأة وأفهمهما أنه على علم بعلاقتهما وتركهما في حيرة لا حد لها . انتحر رولان لأنه خان صديقه . أما ماري فقد نجحت بعد موت عشيقها في أن تستميل قلب نقولا وأن تنال مغفرته .

إن فكرة المسرحية في نفسها جميلة لا عيب فيها . شاب تأثر من حديث رجل عن امرأته فأولع بها دون أن يراها . وامرأة سئمت حياة مقفرة لا حب فيها ولا سعادة فأسلمت نفسها لأول شاب حدثها حديث الهوى . ولكن لم ينجح المؤلف في عرض الحوادث ، فأخرج لنا مسرحية كلها تصنع وتكلف ، مشاهدها طويلة أحياناً حتى أملت جمهور النظارة . فالفصل الأول بالرغم من أهميته لأنه يقدم لنا أشخاص المسرحية كان حواره ثقيلا متعبا . حاول المؤلف أن يجعله شيقاً لطيفا فأدخل عليه بعض الفكاهات البذيئة التي تنفر منها الآذان وتصور العقلية الفرنسية صورة غير صحيحة ، فأخفق في محاولته وأضاع القليل من المتعة التي كان يمتاز

(١) Henri Bernstein, *Le Messager.*

ها الحديث . وأراد برنشتين أيضاً أن يجعل من عودة الزوج منظراً تهتز له مشاعرنا ، فأخفق يضا فى المحاولة الأخرى وساق إلينا مشهداً يذكرنا بسخف مسرحيات الميلودرام . وحاول لمؤلف أخيراً أن يدخل صبغة مرحه على الفصل الثالث فكانت الفكاهات ثقيلة لم تثر الضحك ين السامعين .

هذا أمر القصة . أما الممثلون فقليل منهم نجح فى أداء دوره . كان مسيو جان هرفيه قوم بدور نقولا دونج وهو ممثل قدير لا شك فى ذلك . ولكن المدرسة الحديثة لاتستسيغ تمثيله المتكلف . ولربما نجح فى إخراج تلك الشخصية لو أنه لزم شيئاً من الهدوء فى بعض لمناظر ولطف من بعض تعبيراته ولم يأت بهذه الحركات التى أراد بها التأثير فى الجمهور والتى م تؤد إلا إلى إثارة الضحك بين النظارة . ومثل جان مارسان دور الشاب رولان ، فكان سطاً بين الاخفاق والنجاح إذ أنه توصل إلى إبراز ما كان عليه هذا الشاب من هيام وتردد خجل وضعف ، ولكنه أشعرنا بأن هذه الشخصية لم تلائمه فى كثير من الأحيان . ومثلت شخصية مارى مدام ميشيل برجيه فأعجبنا علابسها الأنيقة وحسن طلعتها ورشاقة حركاتها ، ولكن لم يرقنا أداؤها لأنها لم تظهر لنا ما كان يدور فى فؤادها من صراع شديد بين حبها لزوجها شغفها برولان . ولم تكن فى الفصل الأخير نادمة على خطيئتها كما يجب حين جاءت لتستغفر زوجها ، ولا سعيدة كما ينبغى لما فازت بهذه المغفرة .

أما الأدوار الثانوية فقد كانت ناجحة كل النجاح . مثلت مدام جاكلين جوبير دور بيريت ، صديقة مارى ، وهى امرأة مرحة مستهترة تبحث عن الحب فى غير طائل . وأخرج لنا مسيو جوتييه ــ سيلا دور جيو ، صديق الزوجين ، وهو رجل أعزب يتمتع بكل ما تقدم له الحياة من ملذات ومرح . كان تمثيله طبيعياً حقاً لا تكلف فيه ولا تصنع ، فنال إعجاباً خليقاً ببراعته .

ولم توفق الفرقة فى اختيار المناظر والأثاث على غنى دار الأوبرا الملكية بالأثاث الفاخر والمناظر الكثيرة الرائقة . أما ملابس السيدات ، وخاصة فى الفصل الثالث ، فقد كانت آية فى الابداع تصور الذوق الفرنسى المترف أجل تصوير .

الحب البغيض تأليف فرنسوا مورياك [1]

مسرحية ذات ثلاثة فصول مثلتها فى دار الأوبرا الملكية الفرقة الفرنسية . قصة قوية متقنة نالت إعجاباً وتقديراً عظيمين من الجمهور المصرى كما نالتهما حينما مثلت فى باريس على مسرح « الكوميدى فرنسيز » . لقد اعتدنا أن نرى فى قصص مورياك شخصياته الشاذة ، ولكننا لم نرها مطلقاً تحيا أمامنا : تتألم فتبكى ، وتسعد فتضحك . إذ أن المؤلف لم يكتب إلا مسرحية واحدة ، « أسمودية » ، لم تلق نجاحا قط ولم تمثل إلا قليلا جداً .

وصف لنا مورياك فى « الحب البغيض » العاطفة القوية العنيفة ، تلك العاطفة التى تتحكم فى الأشخاص وتفقدهم رشدهم ، فتسيرهم كما شاءت وأين شاءت . أب أثر أحب ابنته الكبرى اليزابيت حتى لم يقو على فراقها . فحطم سعادتها حينما أحبت الشاب آلان وأرادت الزواج منه . فلم يأذن لها بذلك مدعيا أن أختها ماريان تحب الشاب نفسه ، فضحت اليزابيت بحبها . ونجح

(١) François Mauriac, *Les Mal Aimés.*

الأب فى زواج آلان من ماريان وإبقاء ابنته الكبرى بجانبه . أما ماريان هذه فهى فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، عاشت بعد وفاة أمها لاتستمتع بعطف أبيها ، فشبت ساخطة على من حولها . وحاولت أن تفوز بحياة زوجية سعيدة مع آلان ، فرضيت عن تضحية أختها . ولكنها أخفقت فى أن تجد السعادة لأن زوجها كان يحب اليزابيت ، فكأنه بعيد عنها وهو قريب منها ، غائب عنها وهو حاضر معها . وهكذا حطم الأب حياة ثلاثة أشخاص : اليزابيت وماريان وآلان.

ولم يعجب الجمهور بالقصة فقط بل بالتمثيل أيضا ، إذ أن الممثلين قاموا بأدوارهم خير قيام . ومع ذلك لم تحسن مدام برناديت لونج (ماريان) إلا فى الفصل الثانى حينما التقت بآلان ، وقد كانت تعتقد أنه أحبها ثم غدر بها ليتزوج من اليزابيت . كان اليأس واضحاً فى نبرات صوتها وتعبيرات وجهها وفى كل ما أتت به من حركات . أما فى الفصلين الآخرين فقد سار تمثيلها على وتيرة واحدة فى حين كان الدور يتطلب أن تكون تارة ساخطة ، وتارة قاسية ، وتارة يائسة .

وقد كانت مدام إيفلين فولى (اليزابيت) جامدة باردة فى الفصل الأول بالرغم من السعادة التى كانت تغمرها لفوزها بآلان . ولكنها أكملت هذا النقص فى الفصل الثانى واتقدت ناراً وهى تدافع عن سعادتها التى أراد أبوها أن يسلبها إياها .

ومثل شخصية الأب مسيو جان فالكور . وقد أتقن دوره تمام الاتقان . لمسنا فى تمثيله فهماً لشخصية الأب المركبة وأخرجها لنا كما أرادها المؤلف .

وقد قام بدور آلان مسيو جان مارسان . كان فى أدائه قلقاً مضطربا كما رسم المؤلف هذه الشخصية . ولكنه لم يشعرنا فى تمثيله بما يجول فى فؤاده من فرح وحزن وأسى .

ومهما أخذ به الممثلون فى أسلوبهم التمثيلى فلا يسع أى شخص إلا الثناء عليهم والاعجاب بهم والتقدير لفنهم ولحسن اختيارهم للمناظر والملابس والأثاث .

أوديب ملكا تأليف سوفوكليس (١)

طال انتظارنا لهذا المساء الموعود الذى تمثل فيه مأساة أوديب ملكا . وما كنا لنتصور أن نرى ما رأينا من تمثيل هزلى ومناظر لا تمت بشىء إلى مكان المسرحية ولا إلى عصرها .

لست أدرى أكان مسيو جان هرفيه فى دور أوديب يمثل كوميديا أم مأساة سوفوكليس ؟ فكل ما جاء من حركات وتفوه به من أصوات اهتزت لها جدران دار الأوبرا الملكية لم يبعث إلا إلى الضحك .

لست أدرى أتسلم فرقة الممثلين الفرنسيين بأن هناك فروقاً بين الفن الاغريقى والفن المصرى فى البناء أم لا تسلم بذلك . وإن كانت الفرقة تعترف بهذه الفوارق فلماذا اختارت مدخلا فرعونياً لقصر أوديب مع أن هذا القصر يقع فى ثيبة فى اليونان ؟

لست أدرى أكانت سجدات الشعب وصلواته أمام قصر الملك مسيحية أم إغريقية ؟

ومع ذلك كانت هناك عناصر ناجحة فى المسرحية . لقد أدى أدوارهم ممثلو الأدوار الثانوية أداء حسناً . كان مسيو جان فالكور فى دور كريون طبيعياً ، لم يلتجىء إلى تكلف مسيو جان هرفيه بحجة أنه يمثل مأساة إغريقية . ولذا نجح حقاً بالرغم من قصر دوره . وجاء

---

(١) Sophocle, *Œdipe-Roi.*

تمثيل جوتييه ـ سيلا متقناً مطابقاً لقوة الشخصية الجبارة التى كان يقوم بها وهى شخصية تيرسـياس . أما مدام إيفلين فولى فقد أظهرت مواهب تستحق إعجابنا وتقـديرنا فى دور صغير لا أهمية له وهو دور فتاة من ثيبة .

وبالرغم من وجود هذه العناصر لم تنجح المسرحية ، فلم توفق الفرقة فى اختيار المناظر ولا فى أداء الممثلين . وقد تكون الترجمة أمينة ولـكنها أديت فى شعر لعله لم يبرأ من عيوب خطيرة ، ولم يكن إلقاء الممثلين لهذا الشعر أقل تقصيراً من الشعر نفسه .

الاحباء المشاكسون للـكاتب الإنجليزى نويل كوارد[1] (نقلها إلى الفرنسية ڤرچنيا ڤرنون وكلود أندريه پوچيه)

مسرحية مرحة متقنة الحوار مليئة بالفكاهات الحلوة والنكات اللبقة . قصة عاشقين فظيعين فى حبهما وهما دانييل وأنيت . لم يكد يجمعهما الزواج حتى فرق بينهما الطلاق . ثم يلتقيان فى الفصل الاول بعد خمس سـنوات وقد تزوج كل منهما : هو من لوسى وهى من فيكتور . ولـكنهما لم يكادا يلتقيان حتى استأنفا الحب وفرا إلى باريس ليستأنفا فيهـا الحياة . وقد استأنفا حياتهما أثناء الفصل الثانى فاذا هى عود إلى الخلاف والوفاق والخصام العنيف . وفى أثناء هذا كله كان الآخران يبحثان عنهما ثم يهتديان إليهما فى آخر الفصـل . وفى هذا الفصـل الثالث كان المنتظر أن يعود كل زوج إلى زوجه ، ولـكن العاشقين ينتلان عدوى الخصومة إلى الآخرين ثم ينسلان فى حين يختصم الآخران .

وما كنا لنتصور أن نرى مسيو چان ڤالـكور يمثل دوراً هزليا مثـل دور دانييل . كان فـكها فى كلامه رشـيقاً فى حركاته طبيعياً فى تمثيله . أما مدام برناديت لونچ ، وكانت تقوم بدور أنيت ، فقد أثبتت لنا بأدائها المتقن أنهـا ممثلة فائقة فى الـكوميديا بقدر ما هى رائعة فى الدراما . ولم ينجح مسيو چان مارسان فى دور كما نجح فى هذه القصة ؛ وهذا يدل على أن فنه الأصيل هو الـكوميديا . وكانت مدام چاكلين چوبير تمثل دور لوسى وأحسنت أداءها هى أيضاً وخاصة فى الفصل الثالث فى المشاجرة التى جرت بينها وبين ڤيكتور .

ووفقت الفرقة فى اختيار مناظر بديعة وأثاث جذاب رائق ساهم بقسط كبير فى نجاح المسرحية .

رشدى كامل

(١) Noël Coward, *Les Amants Terribles* (trad. Virginia Vernon et Claude André Puget).

من كتب الشرق والغرب

أغانى شيراز

نظم حافظ الشيرازى وترجمة الدكتور ابراهيم أمين الشواربى

عشت أياما جميلة مع « حافظ » أتاحها لى ولقراء العربيـة الدكتور ابراهيم أمين . لست أدرى كيف أشكره ، فهذه الساعات الحلوة التى أتاحها لى لا تقدر بثمن . وكيف تكافئ من ينقلك فى هذه الأيام الثقيلة الصاخبة الكئيبة ، إلى جو طليق هادئ رفاف ، تشيع فيه الأنداء والأضواء ، وترف فيه الانسام والأصداء ، ويستقبلك بالطلاقة والبشر والايناس ؟

لقد أخلدت — مع حافظ — إلى الغناء العذب بروح صادقة ، لا تكدرها شوائب الحياة ، ولا هموم العيش ، ولا أحقاد الناس ، ولا تفسدها كذلك غواشى القلق ، ولا هموم الفكر ، ولا الضرب فى بيداء المجهول .

كأس من الخمر ، ووجه جميل ، ورفاق مسعدون ، وطبيعة باسمة . وعلى الدنيا السلام !

— أى شىء أجمل من رفقة الأحباب ، والتمتع باللهو والرياض والربيع الجميل ؟
فأين الساقى ؟ قل له : ما هذا الانتظار الطويل ؟
— واعتبر ما يتهيأ لك من طيب الوقت فرصة عزيزة وغنيمة كبيرة .
فلا علم لأحد بما تكون عليه نهاية الأمور .

وهذه الأغانى هى المعروفة بغزليات حافظ ، وهى أربعمائة وست وتسعون مقطوعة ، كل منها يسمى «غزلا» . [والغزل أو الغزلية فى الشعر الفارسى عبارة عن منظومة قصيرة ، تتراوح بين سبعة أبيات وخمسة عشر بيتاً غالباً . وموضـوعه الغزل أكثر الأحيان ، ويكون أحياناً غرضاً آخر من أغراض الشعر . ويلتزم الشاعر ذكر لقبه الشعرى ، أو « تخلصه » — كما يقول الفرس والترك — فى آخر بيت من الغزل] (١)

وقد استغرقت ترجمة غزليات حافظ والفهارس الدقيقة الكاملة عن طبعاتها وترجماتها

---

(١) من مقال للدكتور عبد الوهاب عزام عن « أوزان الشعر وقوافيه » اقتبسه المترجم فى كتابه .

وشروحها مجلدين ضخمين ، تقرب صفحاتهما من الستمائة . وصدر الأول في العام الماضي والثاني في هذا العام. وقد تضمن الجزء الأول مقدمة بقلم الأستاذ العميد الدكتور طه حسين بك بارك فيها هذا الجهد الضخم الذي بذله الدكتور الشواربي . وفيها يقول :

« . . . وهذه طرفة أخرى نفيسة رائعة ، يسعدني أن أطرف بها قراء العربية ؛ لأنها ستمتعهم من جهة ، ولأنها ستزيد ثروة الأدب العربي من جهة أخرى ، ولأنها بعد ذلك ستثير في نفوس الكثيرين منهم ألواناً من التفكير المنتج ، وفنوناً من الشعور الخصب ، ولعلها أن تفتح لبعض الشباب أبواباً في الحس والشعور والتفكير لم تفتح لهم من قبل ؟

وهذه نبوءة تصح من غير شك لو خلي بين الأدباء الشبان خاصة وهذه المجموعة من شعر حافظ . فإن قلة النسخ المطبوعة منها ، وارتفاع ثمنها بالقياس إلى مقدرة هؤلاء الشبان ، قد يجعلان الانتفاع بها محدوداً في الوقت الذي يجب أن تكون في متناول الأيدي جميعاً .

إن هذه الأغاني تجيء في وقتها المناسب — والشعر العربي يعاني أزمة يحتاج فيها إلى مثل هذا الزاد — فلقد آن للشعر أن يكون غناء بحتا ، بعد ما طوح بنفسه في مجالات لم تعد له ، أو لم يعد يبدو فيها بأجمل ألوانه . . . طوح بنفسه في مجال الفلسفة ، وفي لجج الفكر ؛ كما أخذ يطوح بنفسه كذلك في مجال القصة والمسرحية وما إليها ، بعد أن عادت روح العصر لا تستسيغ القصة ولا المسرحية الشعرية .

والموجة الفكرية الفلسفية في الشعر العربي الحديث ، كانت ضرورة في وقت من الأوقات ؛ لأنها كانت رد فعل طبيعي لموجة أخرى سبقتها : موجة الأسلوب اللفظي ، أو الأسلوب الايقاعي . فكانت مهمة الموجة الجديدة أن تدخل القصد والمعنى إلى الأدب ، وأن تمد الشعر بروافد نفسية وفكرية حية ، لتنقذه من ذلك العبث بالمحسنات البديعية الجوفاء ، ومن الايقاع الموسيقي الذي لا يحمل وراءه حياة ولا جداً . وقد استطاعت أن تحيي الشعر العربي وتجدد مجده ، وتزيد عليه متاعا قيما من صور الحالات النفسية الصادقة ، يكاد يعدل عندي ماضي الشعر العربي كله ويربي عليه أيضاً ، ولكنها وقفت بالشعر الحديث حيث لا يجوز الوقوف ، قصت من أجنحته المرفرفة ، وغضت من غنائيته المنغمة ، وأقلت فيه من السبحات والومضات ، وجعلت عنصر الوعي الفكري بارزاً فيه .

والشعر يجب أن يدع للنثر الفني مجاله بعد ما نضج هذا النثر نهائياً وأصبح قادراً على هذه المجالات ، ثم ينطلق هو مرفرفاً لا تثقله هموم الفكر ، ولا تقيده مشاكل الفلسفة . يجب أن ينطلق صرخات عميقة قوية ، وأشجاناً روحية خالصة ، وأشواقاً مرفرفة وضيئة ، وأحلاماً مهومة طائرة ، وإشراقات وجدانية لطيفة ، وسبحات علوية شفيفة . وفرحات رفافة طليقة . يجب أن يكون تعبيراً عن لحظات الاشراق والتهويم ولحظات التوهج والانطلاق في النفس الانسانية ؛ تلك اللحظات التي يستحيل فيها الشاعر روحاً أكثر ما تكون تجرداً ، أو حساً أشد ما يكون توهجاً . تلك اللحظات التي ينطلق فيها التعبير كأنما يكون نفسه — وإن كان الوعي يعمل فيه — وهي لحظات يعرف مثلها كل شاعر ملهم في حياته الطويلة . وما عداها من اللحظات والحالات فغير جدير بالشعر في اعتقادي ، أو إنه من الدرجة الثانية أو الثالثة في حياة الشاعر الفنية !

وأحسب أنه قد آن الأوان لتنحسر الموجة الفكرية الفلسفية ، تاركة للشعر غنائيته وبساطته ورفرفته ، كيما يتأدى إلى الحس بأشواقه وأحلامه ، وبصوره وظلاله ، مثلما تتأدى للموسيقى

الطليقة ، والصور الفنية الموحية ، على قدر ما تسمح طبيعة الشعر ، وطريقة تناوله لموضوعه ، وفيها اختلاف لا بد منه ، عن طريقة الموسيقى وطريقة التصوير في الأداء .

و « أغاني شيراز » تأتي في حينها المناسب لتساعد على انحسار الموجة الفكرية عن الشعر الحديث . وقد لا تلبي هذه الأغاني كل مطالب الشعر في هذه الفترة ، لأن الحس يغلب عليها ، والأشواق الروحية الخالصة تقل فيها — على الرغم من طابعها الصوفي — ولكنها على كل حال تزيد من رصيد الغناء في الشعر العربي زيادة لها قيمتها . وحسبها أنها تجعل الشعر غناء خالصاً لا تبهظه أثقال الفلسفة إلا حيث تعرض في سرعة وتختفي سريعاً ، ولا تبرده ثلوج الفكر — وإن كان فيها على ما سيجيء — لعب بالألفاظ والصور والمعاني ، ولكنه لعب لطيف حلو لا يغض من حلاوة الغناء الطليق .

ثم إن لها عندي مزية أخرى :

فقارئ هذه الأغاني يستروح فيها عطر الشرق البعيد ، وبساطته ومرحه ، وغيبيته وتصوفه ، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى استرواح هذا كله ، حين تغمرنا موجة العقلية الغربية ، وهي موجة قوية طاغية ، لا نجد لها في حاضرنا الروحي كفاء .

وفي أغاني حافظ ، كما في رباعيات الخيام الفارسيين ، وكذلك في اشعار تاجور الهندي — على بعدما بينهم في الاحساس والاتجاه — ذلك الروح الشرقي العميق ، الذي يستطيع اليوم أن يسعفنا ويحفظ اتزاننا الشعوري في وجه التيار .

وهـذا هو ما أعنيه باسترواح الشرق البعيد ، فليس نموذجاً واحداً ما أريد ، ولكنها نماذج شتى ، تجمعها سمات أصيلة ، تعبر عن الموروث والمذخور في نفس الشرق من رصيد .

والآن فالى غزليات حافظ أو أغاني شيراز :

إنها لعجيبة مدهشة تلك التي تجعل القارئ يتابع حافظاً في لذة وارتياح ، فلا يمل ولا يسأم ذلك التكرار الذي لا ينتهي في الغزليات ، وذلك اللعب بالنكات اللفظية والتعبيرية التي تزحم الديوان ، والتي كانت نظائرها في شعر البديعيين في اللغة العربية كفيلة باسقاط هـذا الشعر ، وكفيلة كذلك بالسأم والضيق إلى حد الاختناق(١) .

ولكن حافظا لا يدعك تسأم أو تمل ، وهو يكرر ويكرر إلى غير ما نهاية : أوصاف طرة الحبيب التي هي تارة شباك لصيد المحبين ، أو سلسلة يأوي إليها العشاق راضين ، وتارة نافجة مسك يفوح منها الطيب ، أو صولجان من العنبر يسحبه الحبيب على القمر المشرق في وجهه الجميل . . . ثم أوصاف غمازته التي هي بئر ، وعينه التي هي نرجسة ، وحاجبه الذي هو قوس أو ركن تتعلق به عيون العباد ، وقامته التي هي شجرة سرو أو شمشاد . . . إلى آخر هذا الحشد المكرور من التشبيهات .

كذلك لا يدعك تسأم أو تمل ، وهو يحشد في غزلياته ما لا يحصى من الاشارات إلى أحداث التاريخ ، وسير العشاق ، وقصص القرآن والكتب المقدسة ، والأساطير ، وطبائع الطير والحيوان ، واصطلاحات الفلك والهندسة والطب ، وإشارات التصوف ورموز أهل الطريق

---

(١) أرجح كثيراً أن يكون حافظ شديد التأثر بهؤلاء البديعيين وبخاصة اذا ذكرنا أنه عاش في القرن الثامن .

تلك العجيبة المدهشة هى روح حافظ الحلوة ، التى تطالعك فى غزلياته المكرورة ؛ وهى روح أنيسة لطيفة عذبة ، تشيع فى محياك الابتسامة الراضية عن هذا الصديق الودود ، الذى لا تملك إلا أن تنصت له وتهش لحديثه ، ولو راح « يخرف » فى بعض الأحيان !

وأنا أعنى كلمة « يخرف » هذه . فحافظ فى كثير من الأحيان — إن لم يكن فى جميع الأحيان — يطالعك بوجه « درويش » . « يخطرف » فى حديثه ؛ ويلقى كلمة من هنا وكلمة من هناك ، حتى ليخيل إليك فى بعض الأحيان أنه لا توجد فى « الظاهر » رابطة بين الاشارات والايماءات ؛ إنما تربطها فى « الباطن » رؤى درويش متصوف ، تطالعه من وراء « الغيب » فيرمز لها ولا يبين !

ولكن هذا لايعنى التفكك فى أسلوب حافظ الشعرى . فوراء هذه الاشارات والايماءات جو موحد تعيش فيه الغزلية الواحدة ، بل تعيش فيه الغزليات جميعاً ، ذلك هو جو «الشهود» إذا استعرنا اصطلاحات الصوفية . وما لنا ألا نستعير هذه الاصطلاحات وحافظ فى غزلياته يتبع « طريق » الصوفية فى التعبير ، وطبيعتهم فى الشعور ؟

وجو « الشهود » هذا هو الذى يجعلك تقبل من حافظ إيماءاته وإشاراته المتناثرة ؛ فكلها أصداء لطيفة . لا نتمالات شاردة ، تتوالى على حس مرهف ، فى «حضرة» الحبيب ! ويربطها جميعا ذلك الرباط اللطيف الدقيق .

خذ مثلا هذه الغزلية :

— إن شفة الحبيب ياقوتة ظمأى إلى الدماء
وأنا من أجل رؤيتها أضحى بالروح . وهذا هو عملى وشغلى الشاغل .
— وهلا يخجل من تلك العين المكحولة بالسواد ، وهذه الأهداب الطويلة المديدة من رأى كيف يسلب الحبيب القلوب ، وهو مع ذلك ينكر أحوالى ؟ !
— فيا حادى العيس ! لا تحمل رحلى إلى الباب ، فعلى قمة هذه الجادة يتشعب الطريق الرئيسى إلى منزل حبيبى وداره
— وأنا عبد لحظى وطالعى ، فقد تملكنى فى قحط الوفاء عشق هذه « النورية » المخمورة الرأس ...!
— وقارورة عطر الورد ، وذؤابة الحبيب التى تفوح بالعبير هما فيض لشمة واحدة من روائح « عطارى » الذكية
— فلا تطردنى أيها البستانى عن بابك ؛ فأنا كالنسيم وماء روضتك من دموعى الحمراء التى تشبه زهرات الرمان
— ولقد أمرت لى عين الحبيب بشربة من القند ممزوجة بماء الورد من شفته الندية وكانت عينه الشبيهة بالنرجسة الغضة هى الطبيب لقلبى العليل
— وحبيبى « الحلو الكلام » ، « النادر الأقوال »
هو الذى علم « حافظاً » الدقائق فى إنشاد « الغزل »

فهى انتقالات وقفزات دائمة . ولكنك ترقبها كما ترقب الطائر الخفيف يقفز من فنن إلى فنن ، ويحلق هنا وينقض هناك ، فى رشاقة ولطف وإغراء !

وليست كل الغزليات من هــذا القبيل ، ولــكن هذه السمة واضحة فيها حتى لو كان فيها التسلسل . لأن طابع « الدرويش » الذى يوزع الـكلمات والإشارات والايماءات هو الطابع العام . وهذه غزلية أخرى تصور ما أعنيه :

— مبعثر الخصلات ، محمر الوجنات ، ضاحك الأسنان ، تلعب به الخمر ، سكران ممزق القميص[1] ، يتغنى بالألحان ، فى يده إبريق من بنت الحان !
— عيناه كأنهما زهرات النرجس توحى بالعربدة ، وشفتاه الرقيقتان ساحرتان أقبل فى نصف الليل أمس ، فجلس إلى وسادتى بضع ثوان !
— ثم أدار رأسه إلى أذنى وهمس فيها لحناً حزيناً
قائلا : « يا عاشق القديم ، هل أنت نائم نعسان ؟ ! »
— والعاشق الذى يعطونه مثل هذه الخمر الليلية
يكفر بالعشق إذا لم يصبح عابداً للخمر والدنان !
— فاذهب — أيها الزاهد — ولا تهزأ بمن يتجرعون الثمالة
فانهم لم يعطونا غير هذه التحفة منذ أقدم الأزمان !
— ولقد شربنا ما صبه الساقى فى كئوسنا
سواء كانت خمره من خمور العربدة أو من خمور الفراديس والجنان !
— وابتسامة كأس الشراب ، وطرة الحبيب المجعدة الملتفة
ما أكثر ما كسرتا من توبات مثل توبتك أيها « الحافظ » الولهان !

فهنــا التسلسل فى المعنى إلى حد ما . ولــكنها حافلة بالايماءات والاشارات المتناثرة فى شتى الأغراض .

أما التكرار الذى أشرت إليه آنفاً فهو ملحوظ بوفرة فى هذه الغزليات ، ولــكنه كما قلت لا يبعث مللا ولا سآمة ، وهذا هو العجيب ...

ولقد سبق حافظاً شاعر فارسى آخر ، دائب التكرار أيضاً لمقاطعه ولمعانيه ، دون أن يسئم هو الآخر أو يمل ... ذلك هو الخيام .

ولــكنك هناك واجد حرارة لاذعة ، وأسى عميقا ، ومعنى نفسياً ضخما . وهذه كلها قد تلسبك الترجيع والتكرار فى « الرباعيات » ولا نظير لها هنا فى « الغزليات » التى تمضى لطيفة شفيفة ، لا يفارقها روح الدعابة ولا خفة الروح ، حتى فى مواقف الحرقة والأسى ... فلم يبق إلا أن فى روح حافظ تلك الجاذبيــة اللطيفة التى تدفع السأم والملالة ، بل تبث النشاط والخفة والأنس فى جو الغزليات .

وعلى ذكر الخيام فان هنــاك اشتراكا فى الظاهر فى خصائص الشاعرين واتجاهها ، ولــكن ما أبعد ما بينهما فى الحقيقة .

وحينما تروعك فى « الرباعيات » تلك اللهفة المحرقة لاستجلاء السر الأعظم الذى أوصدت دونه الأبواب ، فراح « الخيام » يدقها دقاً عنيفاً متواصلا ، حتى كلت يداه وأدركه الإعياء وغشاه الملال ،

---

(١) لعلها اشارة الى يوسف وقميصه المقدود .

لس يغرق اشجانه فى كأس من الشراب ، ويتسلى هنيهة عن ذلك السر المحجب الذى يكرثه
يعنيه ، ريثما يعاود الدق على الأبواب من جديد على هـذا النحو الشجى المرير :

أحس فى نفسى دبيب الفنـاء ولم اصب فى العيش إلا الشقاء
يا حسرتا إن حان حينى ولم يتح لفكرى حل لغز القضاء

لبست ثوب العمر لم أستشر وحرت فيـه بين شتى الفكر
وسوف أنضوه برغمى ولم أدرك لماذا جئت أين المقر ؟

اشرب فثواك التراب المهيل بلا حبيب مؤنس او خليل
وانشق عبير العيش فى فجره فليس يزهو الورد بعد الذبول

كم آلم الدهر فؤاداً طعين وأسلم الروح ظعين حزين
وليس ممن فاتنا عائد أسأله عن حالة الراحلين

لم أشرب الخمر ابتغاء الطرب ولا دعتنى قلة فى الأدب
لكن إحساسى نزاعاً إلى إطلاق نفسى كان كل السبب

أفنيت عمرى فى اكتناه القضاء وكشف ما يحجبه فى الخفاء
فلم أجد أسراره ، وانقضى عمرى وأحسست دبيب الفناء(1)

حينما تروعك من « الخيام » هذه اللهفة العارمة ، وذلك الشجى الكظيم ، وترى الكأس
يده يحاول أن يغرق فيها أشجانه بعد أن كلت يداه من دق الأبواب . . فانظر تر « حافظاً »
طريقه إلى دار الخمار فى وداعة واستبشار ، لا ليغرق هما ولا ليسكت حيرة ، بل لينتشى
يشمل ويتملى محاسن الحبيب ! ولقد يئس هو الآخر من استجلاء سر الغيب ، ولكن هذا
يكرثه ولا يعنيه ، فالخلق للخالق ، والسر عنقاء ليست صيداً لأحد . فهات كئوسك أيها
لخمار لعلنا نرى فى الكأس وجه الحبيب ؛ وربما تفتحت لنا فيها أسرار الغيوب ، ورأينا
مضى فيها وما سيأتى ، كمرآة الاسكندر التى كانت تكشف البعيد كالقريب !

— الآن ونسيم الجنة يهب من البستان
إلى بالخمر المفرحة وبالحوراء التى قامتها كحور الجنان
— ولم لا يفخر السائل المسكين بأنه أضحى اليوم سلطان الزمان
وقد عقد له السحاب خيامه ، وبسطت له الحقول مائدة الخوان ؟!
— وهذا الربيع الجميل يحكى لى حكايته الجميلة
فيقول : « ليس عاقلا من يفضل النسيئة ويترك النقد
— فعمر قلبك بالشراب ، فلا هم لهذه الدنيا الخربة
إلا أن تحيل ترابنا إلى لبنات وآجرات » . . . الخ

(1) من ترجمة رامى للرباعيات .

وحتى عند ما يتحد الموضوع وطريقة التعبير بينهما وكثيراً ما يقع هذا (١) فانك تلمح الفارق بين القلق العميق الأليم في الخيام ، والراحة اللذيذة السالية في حافظ ، الذى لا ينسى أبداً تورياته وجناساته ولعبه الجميل !

يقول الخيام في رباعياته :

سمعت صوتاً هاتفا في السحر	نادى من الحان : غفاة البشر
هبوا املئوا كأس الطلى قبل أن	تفعم كأس العمر كف القدر
أفق وصب الخمر انعم بها	واكشف خبايا النفس من حجبها
وروّ أوصالى بها قبلما	يصاغ دن الخمر من تربها
أين النديم السمح أين الصبوح	فقد أمض الهم قلبي الجريح
ثلاثة هن أحب المنى	خمر وأنغام ووجه صبيح

ويقول حافظ في غزلياته :

— ايها الساقى لقد أذن الصبح فاملأ القدح بالشراب
وتمجل ، فدورة الفلك ليس فيها ريث واتئاد
— وقبلما يتحطم هذا العالم الفانى ويتخرب
أسرع إلى تحطيمى وتخريبى بكأس شرابك الملتهب المتقد
— ولقد طلعت شمس الخمر من مشرق كأسك
فاذا أردت صفاء العيش ، فقم من غفلتك وادفع النعاس من رأسك
— وقبلما يأخذ الفلك طينتنا ويصنع منها الكيزان والأكواب
تنبه واملأ صحاف رءوسنا بالخمر والشراب . . . الخ

وحافظ — كما ترى — في نشوة بالخمر وبالجمال في الطبيعة وفي الوجوه الحسان . وجمال الطبيعة دائماً في خاطره وهو يتغزل بالوجوه الجميلة . والنشوة بخمر الجمال دائماً في حسه وهو يشمل بخمر الدنان . والدنيا كلها ربيع دائم باسم، لا تذبل زهراته الجميلة ، ولا تجف أعواده الندية . والحب جميل حتى مع الهجر والفراق ، والتأوهات والدموع لذيذة كالقبل والعناق «فيارب لاتجعل العالم خالياً من أنين العاشقين . فأصداء أنينهم بهيجة حسنة الترجيع والتلحين» والحبيب معبود يعبد واصلا راضياً ويعبد هاجراً قالياً . وحافظ عابد صوفى يتمسح بالأعتاب ويصدع بالاشارة ، ويمرغ خديه بالتراب — كما يقول — في جذل وانجذاب !
وأنا أعنى كلمة « انجذاب » هذه ؛ لحبه وخمره يستوى أن يكونا في الأرض أو في السماء ، فهو ينتقل من هذه إلى تلك في رشاقة وخفة وفي تهويمة ناعسة ، فلاتدرى أيهما هواه . وخمره

---

(١) الخيام سابق فقد عاش في القرن الرابع ومطلع الخامس .

نواسية أو إلهية . فهو فى « الحان » كما فى « الخانقاه » درويش مجذوب ، ثمل بالشراب أيا كان كنه الشراب !

— البستان جميل ، وأجمل منه صحبة الخلان والأحباب
فليطب وقت الورد ، فيه يطيب وقت الشاربين والشراب !
— وفى كل لحظة تتعطر مشام روحى بما تحمله الصبا من عبير
ولكن « أرباب الهوى » أنفاسهم دائماً محببة تستطاب
— ولقد عزمت الوردة على الرحيل قبلما تتفتح عن غلالتها
فنوح أيها البلبل فنواح أصحاب القلوب الجريحة مستطاب
— ولتكن لك البشرى أيها الطائر الجميل الصوت ... فى طريق العشق
يستحسن لدى الحبيب نواح « القائمين بالأسحار » ويستطاب ! ... الخ

وهو فى هذه الدنيا الجميلة مشغول بسبحاته ولحظاته ، عن مواضعات المجتمع وزحمة الأطماع ومعترك الحياة . . . إنه مستهتر فى عشقه الصوفى أو الغزلى ، نشوان بخمره الالهية أو النواسية ، وليقل من شاء كيف شاء ، فهو خير عند نفسه وعند الله من المرائين المنافقين ومن الوعاظ الثقلاء !

— لقد انقضى الصيام وأقبل العيد[1] ، وارتفعت القلوب بالابتهال والضراعة
واجرت الخمر فى حانوتها ، فاطلب الكأس بما تملك من قدرة واستطاعة ؟
— وانقضت نوبة « بائعى الزهد » تلاء الأرواح المنافقين !
وآن أوان الشراب والعربدة للشاربين والمعربدين
— وأى لوم على من يحتسى مثل هذه الخمر وهذا الشراب ؟
وأى عيب نعيبه عليه إذا فقد الوعى وأضاع الصواب !؟
— وشارب الخمر الذى لا رياء فيه ولا نفاق
خير من « بائع الزهد » الذى يكون فيه الرياء وضعف الأخلاق
— ولسنا نحن من المعربدين المرائين ولا من المصطنعين للرياء
وشاهدنا على هذه الحال هو « عالم السر والخفاء » ... الخ

وفى غزلية ثانية يقول ، زاهدا فى المطامح والآراب :

— وقل لمن مضجعه فى النهاية قبضتان من التراب :
ماحاجتك إلى رفع الايوان إلى الأفلاك ؟

---

(١) يقول شوقى :

رمضان ولى هاتها يا ساقى   مشتاقة تسعى الى مشتاق

وفى غزلية أخرى يقول متهكماً على الطموح وكل شىء إلى زوال :

— « لقد ذهبت عظمة « آصف »(1) ومركبه على الريح ومنطقه مع الطير
وضاعت جميعها ولم يتمتع بشىء منها !
— فلا تطر بجناحك وريشك وترتفع عن « الطريق » فالسهم المريش
يرتفع مدة فى الهواء ، ولكن سرعان ما يهبط إلى الأرض

هل كان حافظ متشائماً كما يبدو من هذه الأبيات الأخيرة ؟ يقول الدكتور عبد الوهاب عزام فى الجزء الثانى من كتاب « قصة الأدب فى العالم » صفحة ٥١١

« وحافظ يبين فى شعره عن انقباض واكتئاب وحزن ، ويعرب عما يمتحن به فى هذا العالم ، ويغلب عليه التشاؤم ؛ ولكنه يبين عن فرحه وسروره أحياناً ، وعن تهلله وإشراقه ، وتأميله وانبساطه ، كأنه برئ من مرض ، أو استراح من ألم ، أو ظفر بما يريد بعد عناء ، أو حم له بعد طول الفراق لقاء » .

والذى يقرأ غزليات حافظ قد يعن له أن يخالف الدكتور عزام فى تصويره لنفس حافظ فيراه — على عكس مايرى الخيام — كثير الابتسام قليل الانقباض ، ويرى التشاؤم فى حديثه عارضاً خفيفاً ، لاسمة أصيلة . وإنما يراه فى جميع أحواله هادئاً لطيفاً . ضحكته ابتسامة ، وصرخته آهة ، وهو برىء النفس من الحقد والألم جميعاً ، مشغول عن الحقد والألم بالسبحات الصوفية واللحظات الغزلية ، واستجلاء الحسن والجمال ، فى هذه وتلك ، وفى الغيب والعيان .

وهناك خلاف بين الدكتور عزام والدكتور إبراهيم أمين على تصوير أسلوب حافظ الشعرى فى لغته . فالدكتور عزام يقول :

« ولحافظ فى الشعر أسلوب دقيق جميل يشبه النغم الموسيقى المحكم ، جانست كل لفظة صاحبتها ، وأصابت كل كلمة دلالتها . ومعانيه بين التصريح والتلويح ، والظهور والخفاء تسترق عناية القارئ وتستولى عليه فيتأملها حريصاً عليها معجباً بها . وقل من يساير حافظاً فى إحكام السبك ، ودقة النسج ، وإجادة النظم ، فلا تجد فى أوزانه وقوافيه — على كثرة ما كنى وورى وجانس — تكلفاً أو اضطراباً أو فضولا » .

ثم يقول :

« وعابر ديوان حافظ كالسائر فى حديقة ورد ، تروعه الصور الكثيرة والألوان المختلفة ؛ ولكنها كلها ورد . فهو يعرض صوراً كثيرة لحقائق قليلة . أو هو كالمطرب يسمعك كثيراً من الأوزان والألحان والأنغام ، ولكنها لا تعدو حديث الحبيب فى جماله ووصله وهجره وبعده وقربه ورضاه وغضبه ، وكل ما سمعت من هذا معجب مطرب رائع ، وكأن كل قطعة — بإحسان التعبير وإجادة التصوير — تتضمن معانى جديدة لم تتناولها قطعة قبلها » .

وهذا التصوير لأسلوب حافظ فى لغته يبدو — حتى لمن لا يعرفون مثلى هذه اللغة — أكثر انطباقاً ؛ لأنه يتفق مع السمات النفسية للشاعر ، ومع موضوعات فنه وطابعها الرقيق الجميل

(1) يقصد آصف بن برخيا فى مملكة سليمان .

الحلو . فلست أدرى من أين إذن جاء الدكتور إبراهيم أمين بهذا الوصف الآخر « لطريقة الأداء عند حافظ » . قال :

« كان شاعراً عاتيا ، فلم يكن يأبه لشيء ، ولم يكن يهتم بشيء . . . كان يعلم أن أقواله تفتن الجماهير ، ولكن ذلك لم يشغله إلا الى قدر يسير . وكان يعرف أن أشعاره تفتن الألباب ولكنه لم يكن يهتم بهـذا الاعجاب ، بل كان يمضى فى طريقه كالجيش اللجب ، يطوى بيداء الحقب ، فى أناة أو صخب .

« وكان كالنهر العاتى ، يفيض على جنبـات الوادى ، فيكتسح حطامه ، ويهدر ركامه ، ويدفع ما أمامه ، جبار عنيد ، يشتد هديره ، ويزداد نذيره ، وهو ماض فى سبيله على نغماته الدائمة التى لا تهدأ ولا تسكن .

« وكان فناناً ، فكان يرضى نفسه قبل كل شيء ، تهتف به فيلبيها ، وتنـاديه فيجيبها ، وتحدثه فيقبل عليها ، ثم يستمع إلى نبراتها الخافتـة التى لا تكاد تبين ، ويتحسس سكناتها الصامتة التى تخفى فى قراره المعين . فاذا فرغ إلى نفسه مرة أخرى ، رددها فى أسلوب مفصح مبين ، أو سـجلها عليها كلمات معجزة تنحدر من عليين ، أو أعادها إلى نفسه ليؤكد لها ما جاشت به من قول مخلص أمين » .

وعلى ما فى هذا التصوير لطبيعة حافظ وطريقة أدائه من تناقض واضح بين بعضه وبعض واندفاع فى سجعات رنانة قد تفوت الدقة على الأداء ، فانها فى صميمها تخالف صورة حافظ وطبيعته التى يستشفها قارئ الغزليات . وهبنى مخطئاً فى هـذا لأن النص الفارسى ليس فى متناول يدى ، فها هو ذا تصوير الدكتور عزام لأسـلوب حافظ يؤيدنى . وأغلب الظن أن التوفيق هنا لم يحالف الدكتور إبراهيم أمين .

وأسلوب الترجمة ؟

ربما لم أكن صاحب حق فى نقده — ككل من لا يعرفون الفارسية — ولكن هذا لا يمنع من التعبير عن إحساسى بأن روح حافظ المشرقة اللطيفة ، كانت تخبو وتخنس فى بعض الأحيان ، ثم تبقى من وراء الألفاظ توصوص وتشير فى جهد إلى جوهرها اللطيف !

وقد نقل المترجم بعض الغزليات القليل منظوماً كلها منثوراً . فأحسن فى هذه الخطة . فالنظم باللغة العربية عسير محتاج إلى هبة خاصة ، ولعله يكون أعسر حين يراد منه نقل مثل هذه اللمحات الخفيفة السريعة ، التى تربطها روابط خفية دقيقة . وذلك يبدو عند مراجعة الغزليات التى نقلها نثراً ونظماً فهى فى النظم لا تكاد تبين ، وفيها بعـد واضح عن حقيقتها البـادية فى النثر قدر ما يستطيع .

ويجب أن أشهد بعد ذلك بسلامة لغة الترجمة فيما عدا أخطاء يسـيرة ، لعلها من السهو فى الكتابة .

ولكم وددت أن أستغنى عن هذه الصفحة الأخيرة ، ليخلص للدكتور ابراهيم أمين ثنائى وشكرى بالنيابة عن قراء العربية . فما يليق — فى الواقع — أن يجزى صاحب هذا الفضل بغير الثناء المطلق والشكر الجزيل .

سيد قطب

من وراء البحار

معرض صور تيت بلندن وقيمته الفنية

يهتم جمهور لنـدن الآن اهتماماً خاصا بمعارض الصور التى أقيمت فى المتاحف الفنية وقد كتب لنا بهذه المناسبة الكاتب أريك نيوتون مقالا عن متحف « تيت » Tate Gallery المعروف بلندن يقول فيه :

إن ما يقوم به المتحف الأهلى للفن بلندن بالنسبة لصور العباقرة من قدماء المصورين يعادل ما يراد أن يقوم به متحف تيت بالنسبة للمصورين المعاصرين . وقد وضعت هذه العبارة «مايراد» عن قصد لأن الحكومة لم تظهر إلا فى الزمن الأخير سخاء نحو الفن الحديث مثل ما أظهرته نحو فن الزمن الماضى .

وقد يستغرب المرء لو قارن بين ما ينفق من مال على المتحف الأهلى وما ينفق على متحف تيت ، إذ يخيل إليه أن الهيئات الرسمية بانجلترا تكاد تتعمد تجاهل رجال الفن الحديث على حين هى تعبر عن تقديرها للقدماء بما تدفقه من مال .

ولكنى لن أذكر الأرقام ، إذ ربما كانت مضللة كالكثير من الاحصاءات ، إذ أولا أثمان الآثار الفنية القديمة مرتفعة جداً بالقياس إلى الصور الحديثة . وإذ ثانياً أن متحف تيت لا يمتمه ولم يكن ليعتمد مطلقاً على المساعدات الرسمية ، فلقد كان المتحمسون للفن الحديث أسخياء إلى درجة غريبة ، فاستطاع متحف تيت أن يجمع مجموعة مناسبة وإن لم تكن عديمة النظير من الصور والتماثيل من صنع رجال الفن فى القرنين التاسع عشر والعشرين . ولم يخرج المتحف الأهلى سليما من الحرب العالمية الثانية ، ولكن القاعات التى تفتح للجمهور الآن كافية . أما متحف تيت فقد أصيب إصابات وقفت عمله وستمضى سنة أو سنتان قبل أن يستطيع عرض كنوزه . لذلك خصص لمجموعتـه عدد من غرف المتحف الأهلى عرضت فيها نخبـة من صوره الآن للأنظار .

ولا ريب فى أن هذا المعرض من اهم المعارض التى تجد إقبالا ، إذ أن صوره لم تشاهد منذ قيام الحرب العالمية الثانية . وإذا كان هذا الكلام ينطبق على صور الأساتذة القدماء فليس من المستغرب ان يهتم البريطانيون بخير ما ظهر فى فنون الأمس واليوم وبخاصة طلبـة الفن فى هذا الجيل الذين قطعت صلتهم بالطبع بمذهب اللمحة أو مذهب ما بعـد اللمحة وغيرها من الحركات فى انجلترا وفى الخارج .

وقد رتب المعرض ترتيباً حسناً وأحسن الاختيار .

وترجع الصور المعروضة إلى عصر هوجارث (وقد عرضت مجموعة صوره عن الزواج الجديد . . .) إذ أن هوجارث هو من وجهات متعددة أول مصور انجليزى حقيق ، ومجموعة متحف تيت هى أولا مجموعة صور بريطانية .

وبعد أن أثبت المعرض مركزهو جارث باعتباره منشئاً للمدرسة البريطانية أشار إشارة قصيرة إلى جتزبورو . وعرضت مجموعة بديعة لمناظر الطبيعة صورها ترنر وكونستابل . ثم هنالك غرفة صغيرة مليئة بالمصورين الذين عادوا إلى الأسلوب السابق لرفائيل (ومنها صورة ميليه البديعة التى تصور المسيح فى دار أبويه) . ثم عنى المنظمون بأن يلتزموا تياراً وسطاً بدلا من التزام تاريخ الفن الانجليزى وحده ، فأولوا اهتمامهم بالفن الفرنسى بدلا من الفن الانجليزى . ومن المؤكد أن مذهب اللمحة الفرنسى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان يبعث الحياة فى التصوير الأوربى . ويحتوى متحف تيت على مجموعة قيمة من صور مونيه ومانيه وبسارو ويمكن مشاهدة الصفات الرفيعة لهذا الفن فى النخبة المعروضة .

وقد شغلت صورة مانيه « الساقيات » المركز الرئيسى فى قاعة تحتوى كذلك على صورة جميلة هادئة للمصور ديجا وصورة صغيرة بديعة لكورو وعدد من المصورين الذى جاءوا بعد مذهب اللمحة . ومنها المنظر الطبيعى العجيب الذى صوره سيزان ، وصورة لجانجوان من مناظر تاهيتى ، وثلاث من صور فان جوج وهى كرسى وازهار عباد الشمس وشجر البلوط .

صورة لبكاسو

ولم يمثل المصورون المتأخرون فى المعرض مثل هذا التمثيل . ويوجد صورتان يمثلان المصور المتجول بكاسو فى دورين من أدوار تطوره ، إحداها تمثل الدور « الأزرق » والأخرى تمثل الدور الكلاسيكى . ولكن لن يكون المعرض كاملا إذا لم يحتو على بضع عشرة من سوره تمثل ألوان تأثيره فى الفن اليوم .

وليس فى المعرض أية تماثيل مع أن مجموعة تيت تحتوى على قطع مشهورة من صنع مايول ورودان وابستاين .

ويتطلع الناس إلى اليوم الذى تعود فيه الصور والتماثيل إلى مكانها الحقيق فى متحف تيت . وليس ثمة شك فى أنه نمت حركة قوية بين رجال الفن البريطانيين فى أثناء الحرب العالمية الثانية . وستنقل خير الصور التى صورها فنانو الحرب وهى معروضة الآن فى دار برلنجتون إلى متحف تيت ، وستكون سنو الحرب ممثلة خير تمثيل .

والآن وقد انتهت الحرب العالمية الثانية يخشى أن الدولة التى أظهرت شعوراً قوياً بالتبعة نحو الفن والفنانين قد تعود شيئاً ما إلى سياستها السابقة للحرب من الاعتماد على الحماسة الفردية . وهى لا تفعل ذلك فى هذه المرة عن عدم اهتمام بالفن ، فان عدم الاهتمام بالفن قد قضى عليه بل يخشى أن تكون لبعض الأمور الهامة الأسبقية فى أموال الدولة . كما أن مبانى المتحف نفسها لا يمكن إصلاحها قبل إيجاد حل لمشاكل السكن لدى الأمة . ولذلك قد تهمل محتويات المتحف إلى أن تمضى فترة الانشاء الاقتصادى .

وقد يكون هذا الاهمال خطيراً ولكنه ليس منظوراً ، فان لبريطانيا مجلساً للفنون من واجبه أن يرعى حسن خدمة الفن . ولكن إذا كان عمل هذا المجلس فى أثناء الحرب أن يرعى انتشار حب الفن فى أنحاء البلاد فانى على يقين من أنه لا ينسى أن مجموعة الفن الحديث ذات شأن كبير .

مؤتمر التعليم فى لندن

عقد فى لندن أثناء إجازة عيد الميلاد مؤتمر الجمعيات التعليمية لأول مرة بعد الحرب. وظل هذا المؤتمر يعقد قبلها سنويا مدة ٢٧ عاماً، وقد اشترك فى هذا المؤتمر أربعون هيئة مختلفة ولم تمثل فيه جمعيات الأساتذة فحسب بل مثلت فيه كذلك هيئات كثيرة مختلفة، فمن نقابة الدراما البريطانية إلى مجلس التربية للوطن العالمى، واتحاد الجامعات لتحسين حال الحيوان!

وجاء فى أخبار المؤتمر أنه عقد برياسة ليدى سيمون التى تكلمت عن علاقة الأبوين بالمدرسة، وأشارت إلى أن قانون التعليم الجديد يثير عدة مشاكل يجب أن يبحثها الآباء والأساتذة معاً، مثل الاختيار للمدارس الثانوية، ورفع السن فى المدرسة، ومنهج المدرسة الحديثة. وطالبت بأن يمثل الآباء فى الهيئات الحكومية واللجان التى تشرف على التعليم.

وتكلمت مسز ستوكس ناظرة كلية وستفيلد للفتيات بلندن عن التوحيد بين المدرسين فى مهنة التدريس، فان القانون الجديد يقسم المدارس إلى نوعين ابتدائية للتلاميذ حتى الحادية عشرة من عمرهم، وثانوية لمن هم أكبر سناً، وقد صار مدرس المدارس الثانوية يعتبر نفسه أرقى من المدرس فى المدارس الابتدائية.

وطالبت هذه السيدة بتحسين أحوال المدرسين الشخصية والاجتماعية حتى لا تتهم مهنة التعليم بأنها منفردة وقائمة بذاتها.

وقال مستر تيجل بارى فى هذا المعنى إن بعض المحترفين لمهنة التعليم هم من ذوى الصفات المتفوقة، وإنهم فضلوا هذه المهنة على غيرها من المهن التى تدر ربحا كبيراً، وإن القانون الجديد يحدد عدد طلبة الفصول بأربعين تلميذاً فى الفصول الابتدائية و ٣٠ تلميذاً فى الفصول المتقدمة. على أن هذا النص لا يعمل به الآن، لقلة عدد الأساتذة والحاجة إلى الأبنية.

وأشارت مس سترادفيك ناظرة مدرسة سان بول وهى من أهم المدارس العامة إلى أهمية التأثير الشخصى فى المدارس المستقلة ذات الفصول الصغيرة، وأهمية المدارس التى لا تخضع لنظام الدولة فى بريطانيا. وتكلم مستر هوارد فى هذا الموضوع أيضاً.

وأشار مستر هوايتهاوس إلى أهمية إدخال النشاط فى الفنون والحرف فى المنهج النظامى فان ذلك يزيد من القوى الفعلية للتلميذ، وليس ذلك فقط، بل إنه يكون أساسياً لتربية هواية مفيدة لديه.

وأعلن مستر سيرل ون رئيس مفتشى الموسيق بوزارة المعارف فى المؤتمر نبأ إنشاء مدارس ثانوية يقيم فيها الطلبة والطالبات الذين عندهم ميل قوى نحو الموسيق، فدل بذلك على اهتمام وزارة المعارف بمواد كانت تعتبر فيما مضى خارج نطاق المدرسة.

وتكلم مستر وود فى إعداد اللاجئين الألمان من الأساتذة والمنظمين الاجتماعيين للقيام بواجبهم فى ألمانيا فيما بعد الحرب. وأشير فى إحدى الخطب إلى وجوب تدريس اللغة الروسية فى منهج الدراسة بالمدارس الانجليزية، وقد أدخلت دراسة هذه اللغة فعلا فى بعض المدارس على سبيل التجربة.

وتكلم ممثل لمجلس الفنون لبريطانيا مقترحاً دعوة جوقات الأوبرا من باريس وستوكهلم وبراغ، وربما كانت كذلك روسيا للتمثيل فى لندن أثناء الموسم القادم.

الحركة الأدبية والفنية بفرنسا

قد تكون الحالة السياسية بفرنسا غير مستقرة الاستقرار الواجب ، ولكن فرنسا استعادت نشاطها الفنى والأدبى أو كادت تستعيده . فمن أخبار فرنسا نعلم أن جورج ديهامل الكاتب الفرنسى المعروف عاد إلى أرض فرنسا بعد أن قام برحلة موفقة فى الولايات المتحدة ، وكندا ألقى فيها عدة محاضرات . وكانت حقيبته عند عودته مليئة بالكتب الفرنسية الأخيرة التى نشرت فى مونتريال بكندا . ومن المعروف أن قسما كبيراً من سكان كندا يتكلم الفرنسية .

وزار العاصمة الفرنسية لفيف من الأدباء البلجيكيين برياسة رئيس جمعيتهم جورج رانسى فاستقبلهم مسيو جورج لكومت رئيس جمعية الأدباء الفرنسيين .

ووفد على باريس أرنست أريك نوت الكاتب الألمانى الذى يكتب باللغة الفرنسية ، وهو الذى وضع من قبل مؤلفات صائبة تنبأ فيها بنهاية الهتلرية واضطر للفرار إلى الولايات المتحدة وعمل فى البحرية الأمريكية . وقد قال عند عوده : « لست أعرف أنى حاجة إلى فرنسا ولكنى أعرف أنى فى حاجة إليها » .

ونال جائزة الحلفاء الأدبية روجيه ڤاياند لكتابه « لعب عجيب » وبحثت الجمعية عن المؤلف فلم تعثر عليه إذ أنه لم يرد أن يظهر للجمهور وهو شاب مستقل عرف فى حركة المقاومة السرية ، وكتابه مرآة لهذه الحركة . وكان مراسلا حربياً فعرف مسالك الڤوج والالزاس وألمانيا . وهو يعمل الآن مراسلا برلمانياً لاحدى الصحف الصباحية .

وعقد فى باريس المؤتمر الجامعى ، وقدم المندوبون الفرنسيون والأجانب تقاريرهم عن المشاكل الكبيرة التى تعترض تعميم التعليم . واقترحت اللجنة المشكلة للانتقال من التعليم الابتدائى إلى الثانوى ومن التعليم الثانوى إلى العالى أن ينتخب الطلبة حسب استعدادهم فيوجه البعض إلى الحياة العقلية ويوجه البعض الآخر إلى الأعمال اليدوية .

ومنحت جامعة باريس الدكتوراه الفخرية لاثنين وثلاثين عالما أجنبياً . ومن اشهرهم لورد كينس من جامعة كامبردج ومتشل من جامعة كولومبيا وسير هنرى ديل وسير الكسندر فلمنج وكلاهما حائز لجائزة نوبل ، وهوبكنز من كامبردج وكابتزا من موسكو ونيلز بوهر الدنماركى الحائز لجائزة نوبل .

أما فى ميدان العلوم فقد صدر مرسوم بتعيين أعضاء لجنة البحث فى النشاط الذرى وهى مؤلفة من فردريك جوليو كورى الأستاذ بكوليج دى فرانس ومدير المركز الوطنى للبحوث العلمية وإيرين جوليو وبيير أوجيه مدير التعليم العالى وفرنسيس بيران والثلاثة الآخرون أساتذة فى كلية العلوم بباريس . وعين مسيو راوول دوترى مديراً عاما ومندوب الحكومة فى تلك اللجنة .

وفردريك جوليو كورى مولود فى باريس فى ١٩ مارس سنة ١٩٠٠ وقد حصل مع زوجته على جائزة نوبل لاكتشافاتهما العلمية .

أما أوجيه وبيران فقد درسا فى النورمال وراول دوترى خريج مدرسة الهندسة .

وسننشر فى العدد القادم مقالا قيما للاديب الفرنسى المعروف أندريه مالرو عن فن السنما ويجمل أن نذكر بهذه المناسبة أنه حصل على جائزة لويس دليك من أجل شريط سنمائى اسمه

« الأمل » وهذه الرواية السنمائية هى قصة نضال الجمهوريين الاسبانيين فى جبال تزويل ، وقد اشترك المؤلف فى هذا النضال إذ كان طياراً فى الفرقة الدولية .

ومن أنباء السنما فى فرنسا أنه عرض فى باريس شريط ملون للأخبار الجارية وكان الاخراج موفقاً .

وقد صنع بناء على طلب وزارة الخارجية الفرنسية شريط سجل عزف سبعين موسيقياً لسنفونية سيزار فرنك (أن ريه) وأخذت مناظر فى سويسرا لاظهار قصة أندريه جيد المسماة « السنفونيه الريفيه » فى السنما .

ظهر حديثا

الباب الضيق تأليف أندريه جيد وترجمة نزيه الحكيم (دار الكاتب المصرى)

ليس القراء فى حاجة إلى أن يقدم إليهم أندريه جيد ؛ فالمثقفون جميعاً فى أقطار الأرض كلها يعرفون هذا الكاتب الفرنسى العظيم الذى غذى عقول الفرنسيين بكثير من آثاره الخالدة ، وكون للأمة الفرنسية غير جيل من الكتاب البارعين . وليس من شك فى أن اللغات الحية كلها تعرف آثار هذا الكاتب الفذ ، وفى أن قراء الأمم الأوربية والأمريكية على اختلافها يستمتعون بما فى هذه الآثار من غذاء دسم للقلوب والعقول جميعاً . ولكن لغتنا العربية لا تكاد تعرف من هذه الآثار شيئاً كما أنها لا تكاد تعرف شيئاً من آثار الكتاب البارعين فى اللغات الأوربية الأخرى . ومع ذلك فقد أذاعت لجنة التأليف والترجمة والنشر قبل هذه الحرب الأخيرة بوقت غير قصير كتاباً من كتب أندريه جيد هو السنفونية الريفية ، نقلها إلى العربية الدكتور حسن صادق . وطبعت هذه الترجمة غير مرة فكان ذلك دليلا على أن قراء العربية لا يريدون إلا أن يقرءوا بشرط أن يجدوا ما يقرءون ، وأن يقدم إليهم المترجمون والمؤلفون ما يحتاجون إليه لارضاء حاجاتهم إلى هذا المتاع الفنى الرفيع .

وقد أخذت دار الكاتب المصرى تعلن منذ الصيف الماضى أنها ستقدم إلى قراء العربية ألواناً من الأدب والفن والعلم ، منها ما ينشئه المؤلفون ومنها ما ينقله المترجمون . وظهر أنها قد أخذت تبر بهذا الوعد ؛ فهى تقدم إلى قراء العربية الآن طائفة من الكتب هى التى سنتناولها فى هذا الحديث . وأولها بالطبع « الباب الضيق » الذى ألفه أندريه جيد وترجمه نزيه الحكيم .

والباب الضيق قصة رائعة من طراز خاص غير مألوف فى الأدب الفرنسى المعاصر ، بل هى من طراز خاص غير مألوف فى أدب أندريه جيد نفسه . فهى قصة الحب النقى الممتاز الذى يرتفع عن خطوب الحياة اليومية ، ويرفع أصحابه عن هذه الخطوب ؛ وما يزال يرتفع ويرفع أصحابه حتى يبلغ بنفسه وبهم نوعاً من التصوف يمتزج بالحب الالهى امتزاجاً .

شخصان تجمع بينهما القرابة : فتى يدرس فى مدرسة المعلمين العليا ، وفتاة تعيش بين أبيها وأمها وأختها فى مدينة الهافر . وقد نشأ الحب بين هذين الشخصين منذ أواخر الصبا وأوائل الشباب ، ولكنه حب يجهل نفسه ولا يكاد يبين إلا عن حنان قوى . وهذه الشجرة الضئيلة القوية النقية تنشأ فى بيئة كريمة ولكنها لا تخلو من بعض الشر . فى الأم دعابة وميل إلى المجون ، وهى تنتهى بالفرار مع من تحب وتترك ابنتيها لأبيهما البائس المحزون . والفتى يتردد على هذه الأسرة ، فتزداد شجرة الحب بينه وبين الأخت الكبرى أليسا قوة ونمواً حتى يتبين أمر هذا الحب للعاشقين . ولكن الأخت الصغرى ليست بمأمن من حب الفتى ، فهى تحبه أيضاً وتختلس فرصة تظهره فيها على هذا الحب . ولكن الفتى لا يكن لها إلا هذا الحب البرىء الذى يكون بين الأقرباء ، فأما الحب الآخر فقد خص به أختها الكبرى . وقد ظهرت الأخت الكبرى على ما يملأ قلب أختها من شغف بالفتى ، وعرف الثلاثة ما بينهم من هذا الأمر المعقد . فأما الأخت الصغرى فقد ضحت

بنفسها واقترنت على كره منها بالزوج الذي قدمته الأسرة لها . وأما الأخت الكبرى فقد عرفت تضحية أختها وأبت أن تستمتع بهذا الحب الذي تركته لها . فهي لا تقترن بالفتى ولكنها لا تصد عن حبه ، وإنما تحاول أن ترفع هذا الحب إلى منزلة النقاء ، والطهر لم يتعود الناس أن يبلغوها .

والقصة كلها تدور على هذا الحب الذي صمم على أن يظل نقياً وأبى أن يزهد في نفسه أو يفني في السلو والصدود ، فهي صراع بين نوازع النفس إلى إرضاء عواطفها ونوازع النفس إلى بلوغ المثل الأعلى . ولست أدري ، وليس أحد يدري أي هذه النوازع قد انتصر . فقد ذهبت أليسا ضحية هذا الصراع ، ولكنها ذهبت نقية مطهرة مبرأة من كل إثم .

فأنت ترى من هذا الحديث القصير أن أندريه جيد قد ذهب في قصته هذه مذهباً لم يكد يألفه في قصصه الأخرى ، بل لم يكد يألفه غيره من الكتاب ؛ ولذلك دهش حين طلب إليه المترجم أن يأذن له في نقلها إلى اللغة العربية . فهي قصة لم يكد يألفها المسيحيون الكاثوليكيون في أوربا فكيف بالمسلمين الذين يظن أندريه جيد أن دينهم لم يعودهم أن يثيروا في نفوسهم مثل هذه المشكلات .

وقد ترجمت القصة ترجمة حسنة وإن كنت أشك كل الشك في أنها تنقل إلى العربية دقائق الفن الأدبي الرفيع كما يصدر عن أندريه جيد . والشيء الذي لا شك فيه هو أن الترجمة صحيحة صادقة في نقل الخواطر والأفكار . وسترى حين يظهر عليها القراء أوفق المترجم حين اختارها ليهديها إلى قراء العربية فأهدى إليهم شيئاً يلائم أذواقهم ، أم وفق أندريه جيد حين شك في حسن استقبال القراء المسلمين لهذه القصة التي لم يكد يطمئن إليها القراء المسيحيون . وسيعرف القراء رأي أندريه جيد في ترجمة هذا الكتاب وردي عليه فيما ظن من أن الاسلام يحمل أهله على الهدوء والاطمئنان واجتناب ما يثيره القلق في النفوس من المشكلات .

صورة دوريان جراى تأليف أوسكار وايلد وترجمة لويس عوض (دار الكاتب المصري)

والمثقفون يعرفون أوسكار وايلد بين كتاب الانجليز كما يعرفون أندريه جيد بين الكتاب الفرنسيين . ولعلهم قد عرفوا من أمر الكاتب الانجليزي أكثر مما يعرفون من أمر الكاتب الفرنسي . فلم تجر حياة أوسكار وايلد هادئة ولا مطردة ، ولكنهم لم يقرءوا آثار أوسكار وايلد في العربية ، ولعلهم شهدوا بعض قصصه التمثيلية تعرض عليهم باللغة العربية . ومن أجل ذلك نحمد للأستاذ لويس عوض ترجمة هذه القصة ، كما نحمد لدار الكاتب المصري نشرها .

وصورة دوريان جراى قصة يسيرة جداً في ظاهر الأمر ، ولكنها في الحقيقة معقدة أشد التعقيد والجمع بين اليسر والتعقيد في قصة واحدة على هذا النحو أو تيسير الأشياء المعقدة على هذا النحو الذي أتيح لأوسكار وايلد آية من آيات التفوق في الذكاء من جهة وفي فن التعبير من جهة أخرى . فدوريان جراى فتى رائع الحسن بارع الجمال يرسم صورته فنان ممتاز . وهذا الفنان قد أحب الفتى حباً عميقاً متحرجا شديد الغيرة . ولكن للفنان صديقاً هو اللورد هنرى ، لا يكاد يرى الفتى حتى يكلف به كلفاً شديداً . والفنان رجل نقي الطبع مستقيم السيرة محافظ على الأخلاق الموروثة . واللورد هنري رجل قد أفسده الترف فساء خلقه وساءت سيرته وساء تقديره للأشياء وحكمه عليها فهو شاك في كل شيء وفي الأخلاق والأوضاع الاجتماعية بنوع خاص . وقد استطاع أن

يستميل الفتى إلى نفسه ، وأن يخلبه بحديثه العذب وشكه الهادئ وسخريته اللاذعة . وقد تمت صورة الفتى فاذا هي آية من آيات التصوير . ولكن الفتى يتمنى فيما بينه وبين نفسه ، وقد سمع كثيراً من الثناء على شبابه وجماله ، لو احتفظت له الأيام بهذا الشباب الغض وأثرت في الصورة لا في شخصه . وهي أمنية ساخرة كما ترى ، ولكن الأيام تحول السخرية إلى جد كما تحول الجد إلى سخرية ؛ فقد اندفع الفتى بتأثير اللورد هنرى حتى تورط في سيرة قوامها الاباحة وقسوة القلب وفجور النفس والازدراء لكل شيء . ولكنه يرى ذات يوم آثار هذه السيرة المنكرة في صورته ولا يراها في وجهه ، فوجهه مازال محتفظاً بجماله الرائع وحسنه البارع ، وهو كلما أقدم على إثم أو تورط في خطيئة رأى أثر ذلك في صورته لا في وجهه ، وهو ضيق بالصورة فيخفيها على الناس ولا يراها إلا قليلا بين حين وحين . وهو يمضي في القسوة والاثم والفجور إلى أقصى غاياتها حتى يصبح حديث لندرة . وهو ينتهي إلى القتل وإلى إكراه صديق له على إخفاء جريمة القتل ومحو آثارها . ونتائج هذه الجرائم كلها تظهر في الصورة دون أن تظهر في وجهه . ثم يمسه الندم آخر الأمر فيعذبه عذاباً شديداً ، وهو يعمد إلى الصورة التي تصور جرائمه فيمزقها بنفس السكين الذي قتل به أخيراً . ولكن السكين لا يكاد ينفذ في الصورة حتى تسمع صيحة هائلة ويخر جسم صريع على الأرض ، وإذا الفتى قد قتل نفسه ، وإذا الصورة قد استردت جمالها الرائع وحسنها الخلاب .

وليس هذا تلخيصاً للقصة وإنما هو إشارة لموضوعها . فالقصة أوسع وأعمق وأدق من أن تلخص في هذه الكلمات القليلة . وهي من أشد القصص تصويراً لحياة المترفين من الانجليز ولما يكون بينهم من هذا الاقبال على العيش في تكلف وفي بساطة وفي جد وفي سخرية وفي تأنق وفي إهمال ، كل ذلك يصور في القصة تصويراً رائعاً .

وقد وفق المترجم إلى نقلها في لغة عربية لا ترتفع إلى أوج البيان ، ولكنها يسيرة سائغة لا تشق على أحد ولا يضيق بها المتحرجون .

حكايات فارسية للدكتور يحيي الخشاب (دار الكاتب المصرى)

والدكتور يحيي الخشاب كغيره من شباب المعهد الذي أنشيء في كلية الآداب للغات الشرقية ، يريد أن يحيي سيرة ابن المقفع وأن ينقل إلى العرب المحدثين كما نقل ابن المقفع إلى العرب الأقدمين ألواناً من أدب الفرس وحكمتهم وسياستهم . وهو من أجل ذلك قد أهدى إلى القراء هذا الكتاب الصغير الكبير في وقت واحد . فهو صغير في الحجم لا يكاد يبلغ مئتي صفحة ، ولكنه كبير بما اشتمل عليه من آداب وحكمة وسياسة . وهو يحمل إلى قراء العربية عبيراً رفيقاً حسن الموقع في النفس من هذه الحياة الفارسية الممتازة بما فيها من رقة وفطنة وفكاهة .

وقد عدل الدكتور يحيي الخشاب عن الترجمة الحرفية كما امتنع عن الانشاء الخالص ، فقارب النص الفارسي ولم يطابق بينه وبين النص العربي مطابقة دقيقة وأحسن بذلك صنعاً ؛ لأنه لا يؤلف للمتخصصين وإنما يؤلف لعامة المثقفين . وهو على ذلك لم يهمل المتخصصين إهمالا ، وإنما رد كل قصة إلى أصلها ليرجع إليها المتخصصون إن شاءوا . وإذا لم يكن بد من أن نأخذ هذا الكتاب الممتع الظريف بشيء ، فقد نحب أن نطلب إلى الدكتور يحيي الخشاب العناية بتصحيح كتبه حين يطبعها

وفضلا من العناية باللغة والنحو . فقد نجد فى كتابه هذا ما يمكن أن يغضب سيبويه والفراء .
وقد وقع ابن المقفع فى بعض الخطأ حين نقل من الفارسية إلى العربية ، ولكن ليس من الضرورى أن نسير سيرة ابن المقفع حتى حين يخطىء .

من حولنا للأستاذ محمد سعيد العريان (دار الكاتب المصرى)

أما الأستاذ محمد سعيد العريان فلم يترجم عن فرنسية ولا عن إنجليزية ولا عن فارسية ، وإنما ترجم عن الحياة المصرية المعاصرة . فهو لا ينقل أدب غيره وإنما يعرض أدب نفسه . والأدب الذى يعرضه قيم ممتع خليق بالعناية حقاً ؛ فهى صور صغيرة للحياة المصرية المعاصرة يعرضها فى قصص صغار قصار . والصور كلها جميلة رائعة ، منها ما يؤثر فى النفس تأثيراً عميقاً بعيداً ، ومنها ما يدعو إلى التفكير المتصل ، ومنها ما يتيح التسلية العابرة . ولولا أنى قرأت للأستاذ العريان قصة «قطر الندى» وعرفت منها أن خياله قوى يستطيع أن يبعد إن مضى أمامه ، وأن يمعن فى التحليق إن ارتفع فى الجو ، لوصفت خياله فى هذه القصص الصغار بشىء من الضعف . فلنقل إذن إنه أمسك خياله فأبى عليه أن يبعد أو أن يمعن فى الارتفاع ، حتى لا يشق على القارئ ولا يكلفه عناء ثقيلا ، لأنه يريد أن يرفه عليه وأن يلهيه عن نفسه ويلفته إلى غيره من المعاصرين المصريين الذين يشقون من حوله فى غير إبعاد ولا تكلف للشقاء .

والأستاذ العريان تلميذ لمصطفى صادق الرافعى رحمه الله ، تأثر به تأثراً شديداً فى أسلوبه ومذهبه فى التعبير ، ولن كان قد وجد شيئاً يقوله على حين لم يكد الرافعى رحمه الله يقول شيئاً . وربما كان من الخير للأستاذ العريان أن يتخفف بعض الشىء من تراث الرافعى ، ويؤثر السهل على الحزن ، ورقة اللفظ ولينه على التصعب والتشدد فيه . ففى لفظ الأستاذ العريان شدة متكلفة ورصانة لا تخلو من الصنعة ، وإيثار لبعض الألفاظ والأساليب التى لعل زمانها أن يكون قد انقضى . وفى الأستاذ العريان ميل إلى التأكيد أخذه فى أكبر الظن من تأثره للرافعى وتكلفه للرصانة . ولذلك يكثر استعمال «إن» فى كلامه ، وقد تتابع «الانات» حتى يضيق بها قارئ مثلى ، فكيف بالقارئ الذى لا يتخذ الأدب صناعة ، ولا يتكلف العناية بمذاهب القدماء .

ومهما نلاحظ على أسلوب الأستاذ العريان فلن نستطيع أن ننكر أن هذه القصص نماذج قيمة يحسن أن يقرأها الشباب ليتعلموا منها كيف يكون التعبير الصحيح الصادق عن المعانى التى تصورها صاحبها تصوراً صحيحاً صادقاً .

طه حسين

في مجلات الشرق

طبيعة العقاب وتأثيره

في الجزء السادس من السنة التاسعة لمجلة «المعلم الجديد» التي تصدرها وزارة المعارف العراقية في بغداد، مقال بهذا العنوان للأستاذ احمد عبد الباقي مفتش المعارف بلواء بغداد، يقول فيه:

« من الطبيعي أن الألم الناشيء من العقوبة أهم أمر فيها ؛ ولذلك كان من الضروري الاهتمام به وتوجيه الفرد المعاقب نحو الجهة الصحيحة المفهومة ، فان هذا الألم يترك في نفس الفرد المعاقب شعوراً بالبغض والكراهية لواحد من الاثنين : إما لنفسه ، وإما للشخص المعاقب . فالعقوبة الصحيحة هي ما يجعل ذلك الفرد يدرك أن السبب الوحيد لما أصابه من عقوبة إنما هو سلوكه ليس غير ، وفي هذه الحالة يتوجه غضبه على نفسه فيحاسبها ، وقد يحاول إصلاحها إذا ما توافرت له الأسباب . أما إذا لم يتيسر له أن يفهم العقاب الذي ناله بهذا الشكل فان العقوبة تخسر التأثير الذي توخيناه منها ، فيتجه غضب الفرد إلى الشخص المعاقب ، ولو بغير إرادته وشعوره ، بل قد يظهر غضبه في شكل مقاومة للتعليم وكره المدرسة ، فيكون عاملا في إحداث متاعب أخرى كانت المدرسة في غنى عنها لو أحسن استعمال العقاب . وهكذا يؤدي العقاب إلى عكس ما تأمله منه إذا لم نجعل الفرد المعاقب يدرك أنه هو المسئول عما ناله من عقوبة . »

الحقائق العارية !

في العدد ٤٢٠ من مجلة «المكشوف» التي تصدر في بيروت مقال للأستاذ زهير زهير بعنوان « أوسكار وايلد في مجلتين عربيتين » عرض فيه الكاتب لمقالين عن ذلك الأديب الانكليزي نشر أحدهما في « الكاتب المصري » والآخر في مجلة « الكتاب » فلم يعجبه نهج الكاتبين فيما كتبا ، وختم مقاله ذاك بالعبارة الآتية التي تتلخص فيها أوجه اعتراضه على ذينك المقالين :

« إن التزمت والتحرج في كتابة سير الأدباء ودرس آثارهم على ضوء حياتهم ، أقل ما يقال فيهما إنهما لا يصلحان سبيلا قويما لاظهار الحقيقة في عريها الكامل . ويغلب على الظن أن المتحدثين عن أوسكار وايلد في مجلتي « الكتاب » و « الكاتب المصري » قد استسلما إلى نوع من التزمت يكاد يشبه ذلك التزمت الفيكتوري الذي ذهب ضحيته فنان موهوب كأوسكار وايلد . »

لنحطم السدود !

في عدد شوال من مجلة « الثريا » التي تصدر في تونس مقال بهذا العنوان للأستاذ الهادي العبيدي يقول فيه :

« ... الترجمة والنقل : ذلك هو الطور الذي لم نجتزه بعد ، والذي يجب أن يكون

المرحلة التأسيسية فى نهضتنا الأدبية والفنية ، لأنه القاعدة التى سارت عليها كل الأمم ، وما تقدمت أمة عاشت منكمشة على نفسها ولم تتعرف إلى ما يجرى خارج حدودها . يجب تحطيم هذه السدود السميكة التى تحول دون أدبائنا ودون أدباء العالم . إن الآداب والفنون والمدنيات تتلاقح ويقتبس بعضها من بعض . ومن العجيب المدهش أن نشعر بضرورة اقتباس أزياء ومواعين أمم الغرب ، فنرتدى البنطلون والجاكيت بدل الجبة والمنتان ، وننير بيوتنا بالفوانيس الكهربائية بدل سراج الزيت ، ونمتطى السيارة بدل ظهر الحمارة ، ثم نغض الطرف فى عالم الآداب والفنون عن واجب التعرف لما تعالجه تلك الأمم من الأساليب وتتفتق عنه أذهان أبنائها من رائع عجيب . ليكن عمل الترجمة فى نهضتنا التونسية عملا أساسياً يهتم له ويعنى به ، ولينظم وتؤسس اللجان وتنتخب له الأقلام ليفيد ويؤثر الأثر المرغوب فيه . أما أن يبق (غية) بعض الكتاب ونوعاً من أنواع تسليتهم فستقطع السنوات التى تتألف منها القرون دون أن نظفر بنتاية . وعلى هذا السنن سارت وتسير مصر والشام وبلاد الشرق الناهضة . »

أعمال الأدباء التونسيين

وفى عدد ذى القعدة من المجلة نفسها ، كلمة بهذا العنوان يقول فيها المحرر :

« يتطلع أدباء الخضراء إلى عودة الحياة العادية إلى العالم واتصال تونس بالخارج بأعناق مشرئبة وعيون متوسلة مترقبة وصول المواد الأساسية للطباعة ... لنشر مؤلفاتهم الثمينة التى حبروها خلال الحرب وخشوا ضياعها أثناء احتدام القوات بالبلاد التونسية وانهمار مطر القذائف الجهنمية أكثر من خشيتهم على أرواحهم وعيالهم ومتاعهم . . . »

ثم أورد المحرر أسماء طائفة من هذه الكتب التى يشير إليها ، فنها كتاب « صدور الأفارقة » وهو كتاب ضخم يضم تراجم علماء وأدباء إفريقية الذين أضافوا إلى كنوز المعرفة العربية نفائس خالدة ، وهو من وضع صاحب المعالى أمير الأمراء وزير الدولة التونسية السيد حسن حسنى عبد الوهاب ... وكتاب « مشاهير القرن الرابع عشر » ويتحدث فيه مؤلفه الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور المدرس بكلية الزيتونة — عن عظماء الشمال الافريقى فى العلم والسياسة والأدب ... إلى كتب أخرى غير هذين تدل على نهضة تأليفية فى تونس نرجو لها التوفيق بعون الله .

انزلوا إلينا !

فى العدد السادس من السنة السابعة لمجلة « الغرى » التى تصدر فى النجف بالعراق ، كلمة للأديب هادى محي الخفاجى يتحدث فيها عن الأدب والأدباء ، فيقول :

« قيل إن الأديب مرآة عصره . ومعنى هذا أن الأديب مرآة المجتمع الذى عاش أو يعيش فيه ، ومرآة الأمة التى نشأ أو ينشأ فيها ، مرآة تعكس كل صورة من صور ذلك المجتمع وتلك الأمة فى عزها وذلها ، وتقدمها وانحطاطها ، وحريتها واستعبادها ، وشبعها وجوعها وسلمها وحربها ؛ مرآة ، ولا كالمرائى التى تزول صورها بزوال أشباحها ، تحتفظ بصور

كل ما يقع من أحداث وما يجـد من أوضاع وما يلى من نظامات ، فتسلمها إلى الاجيال واضحة جلية يقرءون فيها تاريخهم وتاريخ آبائهم . ولن يتم كل هذا ما دامت « المرآة » فى السماء و « الأشباح » على الارض ؛ أفلم يأن لكثير من أدبائنا المحلقين فى عليا سماواتهم أن يهبطوا قليلا إلى المدى الذى يبصرون فيه جراح أمتهم ويتحسسون أوجاعها وآلامها ، فلعلهم يستطيعون — إن أعجزهم أن يكونوا من أساتها — أن يكونوا تاريخها للآتى من الأجيال ! »

إصرار !

فى عدد أول يناير من مجلة « ام درمان » قصيدة بهذا العنوان للشاعر الشاب كمال الحقوق ، نقتطف منها الأبيات الآتية :

أخى ، هل نحن تحت الارض أعشاب وديدان
أخى يأيها الانسان ، هل فى مصر إنسان
أراها مسرح الأشباح قد وارته ألوان
هى الفلاح ، والفلاح أسمال وأكفان
هى العمال ، والعمال إجهاد وحرمان
أرانا نجمع الأشواك ، هل للشوك ريحان
أخى ، ما الصبر ؟ إن الصبر كفران وخذلان
أخى ، ما نحن بالأحرار لكن نحن عبدان
لقد ضاقت بنا الأوطان ما للعبد أوطان
اخى ، ماالسجن ؟ هل فى السجن تعذيب وحرمان
وهل يجدى مع الاحرار قضبان وسجان
سوانا يرهب القضبان أو تثنيه جدران
إذا كنا شرارات فنحن اليوم بركان !

سيوف من خشب !

وفى العدد ٣٠ من مجلة « الأصداء » التى تصدر فى سوريا كلمة بهذا العنوان ، جاء فيها :

« هذا الشيخ ، بعمامته التى تشبه البرج ، وقافاته وراءاته التى تخرج مفخمة مضخمة كأنها من وراء مكروفون . يقف كل يوم جمعة ، هو وعشرات أمثاله ، ليرغوا ويزبدوا ، منذرين الضالين بعذاب السعير وبئس المصير . ألا فاسألهم وكن متلطفاً فى سؤالك : أهذه كل بضاعتكم ؟ ولا تنتظر الجواب ، فالجواب واضح على كل حال . فاذا ترك أسيادنا المسجد فاذر من اقتفاء خطواتهم والتلصص عليهم ، لأنهم لا يقرونك على هذا المنكر ، وإنه لمنكر

أن ترى الشيخ يفعل فى دنياه غير ما قاله فى مسجده ! لقد كان المسجد مجلساً للشعب ، تدار فيه شئون دولة مترامية الأطراف ، وكانت منه تسـير الجيوش وتجرد الحملات . . . حينما كان الخطيب يتسنم المنبر وبيده سيف من فولاذ . . . أما خطيب اليوم ، فانه يكافح بتفاهاته وراءاته ، حتى السيف ، فانه لم يعد اليوم سوى سيف . . . من خشب ! »

زيادة الخير شر ! . . .

المثل المعروف : « زيادة الخير خير » وفى مصر يقولون : « إن فى زيادة الخير خيرين ! » ولـكن الدكتور سليم حيدر يأبى إلا أن يتخذ هذا العنوان لمقاله الطريف فى عدد يناير من مجلة « الأديب » التى تصدر فى بيروت ، ويمضى فى الاستدلال لرأيه بأمثلة عدة ، نقتطف منها ما يلى :

« زيادة الغيث عاقبتها الجفـاف : تطغى الأنهر ، فتغرق المزارع ، فتشرق المزروعات ، فاذا لسعها الهجير ذوت وترك الهجير عليها مسحة الخير الذاهب !

« زيادة الاحسان ، وهل أندى من الاحســان ؟ . . . يفيض بركة على المحسن ، ويسراً على المسكين ، ويمسك رمق الفرد ، ويحفظ كيان المجموع ، زيادة الاحسان عدم وإقلال !

« زيادة المال ، وأى متاع أعز من المال ؟ . . . يطغى على الغنىّ حب الاستزادة ، فينزلق من راية الاقتصاد إلى هوة الشح . . . ويقفى هـذا الغنى الشحيح ، فيتسابق أولاده إلى تبذير ما جمعت يداه . . . وتذهب ثروة لا صاحبها عاش بها مرضياً ، ولا وارثها عاش بها مكتفياً ، ولا استفاد منها عضو صالح فى المجتمع !

« زيادة الجاه غرور ، وزيادة القوة شرور ، وزيادة الود نفور ، وزيادة الجمال فتـور ! »

كيف نحارب الطائفية ؟

وفى العدد نفسه من مجلة « الأديب » مقال آخر بهذا العنوان بقلم عبد اللطيف شرارة ، يقول فيها :

« إن التوفيق بين الدين والفلسـفة محاولة عقيمة ، وقد قام بها ابن سينا منذ قرون ، فانتهى به الأمر إلى اعتباره زنديقاً من قبل رجال الدين ، قصير النظر من قبل الفلاسفة ، وهذا كل ما ربحه فى تجربته ! كما أن التوفيق بين دين ودين انتهى على يد الـكثيرين فى أوروبا وفى الشرق إلى مآس ردد التاريخ صداها ... والانسان ، وبالتالى المجتمع الانســانى ، ينطوى على غريزة دينية لا يجوز ولا يمكن إهمالها فى كيانه النفسى والاجتماعى ، فالاستغناء المطلق عن العقائد الدينية أمر ثبتت استحالته ، بله إضراره ، فالدين معنى قائم لازم لا بد منه . . .

« وإذا كانت بلادنا فى حاجة إلى شىء من اشياء الفـكر ، فهى محتاجة إلى من يغذى فى قلوب أهليها جلال القانون الأخـلاق . . . وذلك لن يتم إلا بايقاظ الحس الدينى الخالص من كل شائبة مذهبية أو نغمة سياسية . »

صورة

دوريان جراى

تأليف

أوسكار وايلد

نقلت حديثاً إلى اللغة العربية
ة أوسكار وايلد الشهيرة « صورة
وريان جراى » .

وهى قصة شاب انجليزى جميل
طلعة ولكنه انغمس فى الرذائل ،
كانت له صورة من أحد كبار
نانين المعجبين به يعتز بها وفى هذه
صورة سر غريب إذ تظهر عليها
كل العلائم التى تنتاب المقبلين على
هو والملذات ، فهى تهرم بينما
احبها محتفظ بشبابه . والرواية
تبر الآن مثالا للروايات الأخلاقية
إن أثارت فى زمنها سخط الناس
رموا مؤلفها بالتهتك .

نقل هذه القصة إلى العربية
أستاذ لويس عوض مدرس الأدب
إنجليزى بكلية الآداب بجامعة
اد الأول .

وقامت بنشرها دار الكاتب
صرى فى طبعة أنيقة وهى تحتوى
عدة صور ورسوم مختارة من
لم « صورة دوريان جراى » إنتاج
مترو جلدوين ماير » .

تحت الطبع

شبح كانترفيل

تأليف

أوسكار وايلد

تعريب لويس عوض

وهى سجل طريف للمحن التى ألمت بشبح قصر آل كانترفيل حين انتقل هذا القصر التاريخى إلى وزير أمريكا المفوض فى بلاط سانت جيمس .



طبعة مزينة بصور مختارة من فيلم « شبح كانترفيل » انتاج « مترو جولدوين ماير »



الى قراء اللغة الفرنسية

إلى الذين يريدون أن يطلعوا على خير ما يكتبه الأدباء الأوربيون وأدباء الشرق نقدم فهرس عدد يناير من « مجلة القاهرة » *La Revue du Caire* وهو حافل بمقالات تتناول شتى نواحي الحياة الأدبية والفنية لديتوش وجاك تاجير ودبرتويه وبوريس بولفوى ودى فو والدكتور لوت وروبرت كمب ورينيه دومينيل .

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTERATURE ET D'HISTOIRE

*

SOMMAIRE DU NUMERO DE JANVIER

Abonnements pour l'Egypte P.T. 100

pour l'Etranger le port en plus.

Administration: 3, Rue Nemr, Le Caire.

الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم « الكاتب المصرى »

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو مايعادلها

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل مايرد اليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

الثمن بمصر : ١٠ قروش